أحمد صدقي الدجاني

عبد الناصر
والثورة العربيّة

دار الوحدة - بيروت

عبـد النـاصر
والثـورة العربيـة

إهـــــــــداء ٢٠٠٧

أستاذ الدكتور / قدري محمود حفني

جمهورية مصر العربية

أحمد صدقي الدجاني

عبد الناصر
والثورة العربيّة

دار الوحدة - بيروت

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الاولى
١٩٧٣/٢/١

مقدمة

« الثورة العربية » هي من أهم الظواهر في تاريخ العرب المعاصر • وستبقى وسيبقى مصير الوطن العربي لفترة قادمة مرتبطا بهذه الظاهرة • وحين نتحدث عن الثورة العربية باعتبارها الحركة التاريخية لجماهير الأمة العربية على مدى الوطن العربي كله ، يتداعى الى الخاطر جمال عبد الناصر ••• الرجل الذي قاد مسيرة هذه الثورة على مدى ثمانية عشر عاما •

وهذا كتاب عن « عبد الناصر والثورة العربية » نقصد به أن نتعرف على الثورة العربية في عهد عبد الناصر ••• نبين ما وصلت اليه فكرتها وما قطعته سيرتها بقيادته • وهذه المعرفة ضرورية لكل عربي يتطلع للمساهمة في وضع مستقبل الأمة العربية وتحقيق النصر لها • وان يعرف من أين والى أين •

يصدر هذا الكتاب في الذكرى الثالثة لرحيل عبد الناصر • وقد برزت فكرة كتابته أول ما برزت اثر نكسة حزيران (يونيو) ١٩٦٧ استجابة لالحاح شعور بحاجة شبابنا الى المعرفة العلمية للثورة العربية ولدور عبد الناصر ، وبحاجتهم أيضا الى تقويم علمي للتجربة العربية الثورية ، يجيب عن التساؤلات التي طرحتها النكسة حول مسيرة الثورة •

وحين رحل عبد الناصر فجأة يوم ٢٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠ وانتقل الى الرفيق الأعلى زاد الحاح ذلك الشعور واشتدت الحاجة الى المعرفة والتقويم ، فقوي الدافع لمباشرة الكتابة . وقد شارك كاتب هذه السطور منذ النكسة في نشاطات فكرية تتصل بهذا الموضوع فساعده ذلك على رسم الخطوط الرئيسية للدراسة. ثم شارك بعد الرحيل في القاء محاضرات وندوات عن عبد الناصر والثورة العربية كان لها فضل اغناء أفكاره حول الموضوع .

وهكذا تبلور مخطط تفصيلي للدراسة يتضمن تحديد المقصود بالثورة العربية وعطاء عبد الناصر لها . ويعرض لبناء عبد الناصر قاعدة الثورة في مصر العربية ... وتحديده لمصر المكان والدور ، واستلامه السلطة ، واعلان الثورة المبادىء الستة ، وتطبيق كل مبدأ منها ، وتقويم ما أنجز بايجابياته وسلبياته ثم يعرض لقيادة عبد الناصر الثورة العربية في الوطن العربي ... بلورته لفكرة القومية العربية ، ودوره في تحرير الأرض العربية وانشغاله بتحرير فلسطين ، في السعي لتحقيق الوحدة العربية. وفي بناء الاشتراكية في الوطن العربي، وفي اغناء التجربة التنظيمية وطرح البناء التنظيمي العربي الواحد ، وتقويم ما أنجز بايجابياتهوسلبياته. ثم يعرض أخيراً لمشاركة عبد الناصر في بلورة فكرة العالم الثالث ... رسم سياسة الحياد الايجابي وعدم الانحياز ، ودعم حركة التحرر العالمي ، والدعوة الى السلام القائم على العدل ، والى التعاون من أجل الرخاء . وضمن كل نقطة من هذه النقاط تندرج قضايا كثيرة لا بد من طرحها ومناقشتها .

ولقد تبين بعد مباشرة الكتابة أن الوفاء بهذا المخطط التفصيلي الطموح يستوجب وقتا طويلا وتفرغا لا تتيحه مشاغل العمل العام . فلا مندوحة عن انجازه على مراحل .

وهذا الكتاب هو ثمرة المرحلة الأولى • وهو يتضمن مدخلا للدراسة ينتهي بتحديد عطاء عبد الناصر للثورة العربية • ثم تلي فصول هذا العطاء في مصر والوطن العربي والعالم ، وتركز على الجانب الفكري منه دون أن تغفل عن متابعة ما تحقق عمليا •

أول هذه الفصول تأكيد حقيقة عروبة مصر وهو ينشغل بالقاعدة وتأثير الفكرة فيها • ويليه فصل يبحث في مصر المكان والدور ، وفصل آخر عن نضال ثورة ٢٣ يوليو لتحقيق المبدأ الأول من المبادىء الستة وهو القضاء على الاستعمار • ويبقى أن تتناول في دراسة أخرى المبادىء الباقية واحدا واحدا فنعرض للثورة الزراعية ونقومها ، ونعرض لبناء جيش قوي ، ولاقامة حياة ديموقراطية ، وللتصنيع الخ •••

وهناك فصل عن بلورة فكرة القومية العربية وتحديد أهداف النضال العربي وهودراسة فكرية نظرية • ويبقى أن تتناول في دراسة أخرى التطبيق العملي لهذه الفكرة وما تحقق على طريق التحرير والوحدة ومسالك العمل العربي والأداة التنظيمية للثورة •

وأخيرا يأتي فصل عن المشاركة في بلورة فكرة العالم الثالث وهو يجمع بين عرض الأحداث ومعالجة الموضوع فكريا •

سيتضح من قراءة هذا الكتاب أن مؤلفه عالج الموضوع من موقع الايمان بالثورة العربية • وكان من أجل ذلك شديد الحرص على الموضوعية • وقد استفاد من دراسات عدة صدرت عن عبد الناصر والثورة العربية • وكان حريصا أن يشير الى مراجعه ، وهو يستشعر تقديرا خاصا لدراسات الدكتور جمال حمدان في الجغرافية السياسية وخصوصا في كتابيه « استراتيجية الاستعمار والتحرير » و « شخصية مصر » •

ولقد سار المؤلف في كتابه على أسلوب الدراسة التاريخية متأثرا من جهة بتخصصه ، ومستشعرا من جهة أخرى أن هذا الأسلــوب الأفضــل لتتبع حركة المسار ورصد تطور الافكار ضمن نمو الظاهرة • وسيلاحظ القارىء أن المؤلف حرص على الاستشهاد بكلمات عبد الناصر في مواضع كثيرة لتعتبر هي بنصهــا عن فكر الثورة العربيــة ، وليتتبــع القــارىء خط سيرها في التجربة العربية الثورية •

ويرجو المؤلف أن يحقق هذا الكتاب هدفــه فيساهــم في التعريف بالثورة العربية في عهد عبد الناصر • كما يرجو أن يتاح له متابعة كتابــة الجوانب الأخرى في هذا الموضوع •

واللــه المــوفــق

المــؤلــف

القاهرة ــ طرابلس الغرب
صيــف ١٩٧٣

مدخل

اعمال عبد الناصر التي سيسجلها التاريخ كثيرة • ولكن عبد الناصر يدخل التاريخ في المقام الأول ويخلد فيه باعتباره رائد القومية العربية وقائد الثورة العربية الشاملة في العصر الحديث •

ان هذه الصفة تستوعب وتشمل جميع أفكار وأعمال وانجازات عبد الناصر على المستويين الوطني والقومي في مصر والوطن العربي • وعلى أساسها أصبح عبد الناصر زعيم الأمة العربية جمعاء ، وأول زعيم لها على المستوى القومي منذ صلاح الدين •

كما أن هذه الصفة كانت المنطلق الذي انطلق منه عبد الناصر الى العالم أجمع واحتل به مكانه في العالم كواحد من عظماء القرن العشرين •

وهكذا فان عطاء عبد الناصر للتاريخ هو التحامه بالثورة العربية وقيادته لها على مدى ثمانية عشر عاما • وهو العطاء الذي أوصل الى قيام الزعامة العربية الشاملة التي « لا تنحصر في الحدود السياسية التي تقوم بين الاقطار العربية ،ولا يعترف الولاء لها بمثل هذه الحدود ••• والتي جعلت زعامة عبد الناصر نوعا متميزاً من الزعامات ، فما من زعيم عربي تمتع بهذا النوع من الزعامة أو أوجد لنفسه ولاء مثل الولاء الذي

يشعر به نحو القيادة الناصرية في عموم الأقطار العربيـة » [1] • وهـو العطاء الذي طرح عبد الناصر « كداعية لثورة جديدة تستهدف استقـلال كل العرب وتقدم انموذجا للثورة في العالم الثالث » [2] •

ومن أجل هذا العطاء احتل عبد الناصر مكان القيـادة في الوطـن العربي وقد ساهم في قيادة العالم الثالث ، ونال تقدير الأمة العربية والعالم في حياته • ثم كان ذلك التعبير الرائع عن التقدير من هؤلاء جميعا يـوم وداعه • وقد بدا هذا ــ المعنى في كثير من الأقوال التي قيلت بمناسبـة وفاته في شتى أرجاء المعمورة ، ونكتفي بايراد انموذج لها ما قاله المؤرخ العالمي توينبي : « لقد استثار عبد الناصر في العرب طاقاتهم الكامنة فكان رد الفعل هو ذلك التجاوب العميق الرائع من المحيط الى الخليج •

ثم استثار ناصر طاقـات الشعوب المتطلعـة الى الحريـة فكان رد الفعل قيام ثورات تحررية مشتعلة في آسيا وأفريقيا واكبت سير القافلة الى الاستقلال واستثار عبد الناصر الاستعمار العالمي فكان رد الفعل ألوانا من العدوان ثم الاستسلام أمام القوى الصاعدة » [3] •

وحين نتحدث عن عبد الناصر والثورة العربية فاننا نقصد أن نتعرف على الثورة العربية في عهد عبد الناصر ••• نتبين ما وصلت اليه فكرتهـا

---

(1) انيس صايغ في مفهوم الزعامـة السياسية مـن فيصل الاول الى جمال عبد الناصر ، ص ١٠ .

(2) أنتوني ناتنج العرب ص ٣٧٧ .

(3) انظر مقالة عبد الناصر كما يراه العالم مجلة الكاتب العـدد ١١٦ نوفمبر ١٩٧٠ .

وما قطعته مسيرتها بقيادته ، لنصل الى الاجابة العلمية على السؤال الكبير الذي ألح عند فراق عبد الناصر القائد •

ماذا بعد ؟ وما مستقبل الثورة العربية ؟

ان هذا الحديث يستوجب منا بداية أن نعرض لبعض المواضع العامة المرتبطة به والتي لا بد من ايضاحها تمهيدا له وحسما لأي لبس يمكن أن يبرز فيه •

هناك أولا تحديد معنى الثورة العربية الذي ينبغي أن يكون واضحا ومحددا قبل الحديث عن عطاء عبد الناصر في مجال الثورة العربية ••• ويلاحظ في كثير من الكتابات التي تناولت هذا الموضوع افتقار معنى الثورة العربية فيها الى التحديد ، الأمر الذي سبب خلطا بين معان عدة وتشابكا بين دوائر مختلفة • وأبسط مثل هو تحديد الصلة بين معاني الثورة المصرية وثورة ٢٣ يوليو العربية والثورة العربية الواحدة أو الشاملة والثورة العربية الوحدوية الاشتراكية ، وما قد يتردد من تعبيرات في هذا الموضوع •

لقد جاء تعبير الثورة العربية على لسان عبد الناصر في مناسبات كثيرة • وشرح عبد الناصر في أكثر من مناسبة المقصود من الثورة معرفا اياها ومحددا أبعادا لها • من ذلك قوله في مجلس الأمة ٢٥ نوفمبر ١٩٦٥ :

« ان الثورة العربية الشاملة ••• ما تزال هي القوى الأصلية القادرة على تحقيق الآمال العربية كلها • لكنني أود أن أقول بوضوح ••• ان الثورة العربية الشاملة لا يمكن أن تكون مجموعة من المغامرات أو الانقلابات ،

وانما هي الحركة التاريخية لجماهير الأمة العربية للقفز عبر
التخلف ... الى التقدم السياسي والاجتماعي والثقافي ،
مستندة على القيم الحضارية للأمة العربية ، محققة بالنضال
الثوري أهدافها » .

واضح من هذا القول أن الثورة العربية الشاملة لا تنحصر في جزء من الوطن العربي دون غيره من الاجزاء . وانما هي الحركة التاريخية لجماهير الامة العربية على مدى الوطن العربي كله . فبُعد المكان فيها يشمل الساحة القومية جميعها . كما أنها لا تقتصر على جانب واحد من جوانب الحياة للجماهير العربية وانما تنشغل بتلك الجوانب جميعا في تكامل جلي بين الثورتين السياسية والاجتماعية للقفز عبر التخلف الى التقدم السياسي والاجتماعي والثقافي . فمضمونها أيضا يتصف بالشمول . وهي ـ الثورة العربية ـ ليست مقطوعة الجذور تقوم في فراغ وانما تستند على القيم الحضارية للامة العربية ، وتحمل رسالة العرب الحضارية للامة العربية ، وتحمل رسالة العرب الحضارية الى العالم . فبُعد الزمان فيها يمتد عبر قرون في الماضي ويستشرف آفاق قرون في المستقبل .

واذا كان عبد الناصر قد حدد في قوله السالف معنى الثورة العربية في وطنها وعلى ارضها ، فانه وعى بعمق مكانها في عالم اليوم على الكرة الارضية ككل . فقد قال في خطاب له يوم ٢٠ مايو سنة ١٩٦٣ :

« ... ان الثورة العربية بقوى الشعب العاملة تزداد
كل يوم قوة واندفاعا ، وتقترب باستمرار والحاح من يوم
انتصارها الكامل النهائي . وتشعر الثورة العربية أنها لا
لا تمارس دورها وحدها . انها تشعر انها تقف ، من التحالف
العظيم لقوى الثورة المعادية للاستعمار والتخلف ، هذه

الثورة التي تقف فيها حركة التحرير الوطنية الهائلة التي تجتاح آسيا وافريقيا وأميركا اللاتينية جنبا الى جنب مع قوى المعسكر الاشتراكي التي أستطاعت أن تحقق انجازات سياسية واقتصادية وعملية جبارة » .

واضح من هذا القول أن الثورة العربية ليست معزولة عن العالم المحيط بها ومن ثم فهي لا تمارس دورها وحدها . وانما تقف ضمن التحالف العظيم لقوى الثورة المعادية للاستعمار والتخلف . هذا التحالف الذي يجمع حركات التحرير الوطنية في العالم الثالث مع قوى المعسكر الاشتراكي في مواجهة الاستعمار العالمي . ولقد أكد عبد الناصر مرارا هذا التوجه العالمي للثورة العربية واقامه على اساس موضوعي ووعي علمي بطبيعة عالم اليوم . يتضح ذلك في قوله ببور سعيد يوم ٢٣ديسمبر سنة ١٩٦٦ .

« ... نحن في عالم لا يستطيع أن يعيش فيه أحد بمفرده في عزلة عن غيره .. قوى العدوان تتقاسم فيما بينها الأدوار ، والغنائم ... قوى السلام لا بد أن تتضامن فيما بينها ، لكي لا تتحول واحدة بعد واحدة فرادى وعزلاء لتصبح بعض غنائم قوى العدوان ..

لا بد من تلاحم قوى السلام في العالم ، حتى نستطيع ان نواجه قوى العدوان في العالم » .

وهكذا يتحدد بدقة معنى الثورة العربية التي تتحدث عنها في هذه الدراسة كما فهمها عبد الناصر .

فهي ثورة الجماهير العربية على مدى الوطن العربي ضد الاستعمار

والقهر بلوغا للتحرر السياسي ، وضد التخلف والاستغلال بلوغا للتحرر الاجتماعي وصنعا للتقدم ، وضد التجزئة وتعدد الكيانات بلوغا للدولة العربية القومية الواحدة . وهي في نضالها قوة من قوى الثورة العالمية المعادية للاستعمار والتخلف والمناضلة من أجل السلام والرخاء .

وعلى هذا فهذه الثورة العربية على مدى ساحة الوطن العربي ثورة شاملة وهي أيضا ثورة واحدة . وقد اطلقت عليها اسماء ونعوت تفيد هذا المعنى . فهي « الثورة القومية العربية الشاملة » أو « الثورة القومية العربية الاشتراكية الديموقراطية » [1] أو « الثورة الوحدوية الاشتراكية » [2] . أو « الثورة العربية الحديثة » ... الخ .

ونحن في هذه الدراسة سنستخدم تعبير الثورة العربية الذي استخدمه عبد الناصر ليفيد معنى الثورة العربية بأبعادها المختلفة جميعها ... التحرري والاشتراكي والوحدوي والروحي والانساني .

ان هذا المعنى المحدد الشامل للثورة العربية لم يكتمل في الوطن العربي الا بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ في مصر . وكان لعبد الناصر نفسه كما هو معروف وكما سيتضح من هذه الدراسة ـ فضل كبير في بلورته وتحديده . وعلى هذا فأننا حين تتحدث عن الثورة العربية فأننا نقصد الحركة التاريخية التي ظهرت في الوطن العربي منذ ٢٣ يوليو . والتي عبرت عنها مرحلة جديدة في النضال العربي . فالحق أن يوم الثالث والعشرين من يوليو سنة ١٩٥٢ ـ كما افتتح الميثاق ـ « كان بداية مرحلة جديدة ومجيدة في تاريخ النضال المتواصل للشعب العربي في مصر » ونضيف

---

(١) انظر عبد الله الريماوي ـ البيان القومي الثوري ص ١١٥ و١١٦ .
(٢) انظر مطاع صفدي ـ ناصر الناصرية والثورة العربية ص ٨ .

ــ ونحن ننطلق من منطلق قومي ــ أن ذلك اليوم كان ايضا بداية مرحلة جديدة ومجيدة في تاريخ النضال المتواصل للامة العربية جمعاء في الوطن العربي كله • وواضح من الحديث عن النضال المتواصل ان هذه المرحلة لا تنفصل عما سبقها ولا تقوم وحدها • ولكنها تتميز باكتمال معنى الثورة العربية فيها •

ان الثورة العربية بهذا المفهوم تعبر عن المرحلة الحاضرة في حركة اليقظة العربية الحديثة التي ظهرت في الوطن العربي منذ أواخر القرن الماضي ، وشقت طريقها صعدا لتحقيق انبعاث الامة العربية وبناء نهضتها بفضل جهود قادة الفكر المصلحين من امثال جمال الدين الافغاني ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي ونضال جماهير الشعب الذي تجسد في صور عدة طوال النصف الاول من هذا القرن • وهكذا فان الثورة العربية بهذا المفهوم لا تنطلق من فراغ ولا تمثل نبتا بلا جذور • وانما هي التطور الطبيعي ضمن الحركة التاريخية لليقظة العربية الحديثة •

كذلك فان الثورة العربية بهذا المفهوم تشمل جميع الحركات العربية الثورية التي قامت في الاقطار العربية منذ ٢٣ يوليو ١٩٥٢ لتحقيق اهداف النضال العربي ، والتي عبرت عن المد الثوري العربي الذي تلا تفجر الثورة العربية في مصر • ويمكننا ان نلاحظ هذا المفهوم للثورة العربية في اقوال عبد الناصر وأعماله • فقد رأى عبد الناصر في الثورات التي تفجرت منذ ٢٣ يوليو ١٩٥٢ في تلك الاقطار العربية اجزاء من « الثورة العربية » الشاملة والواحدة • ونكتفي للتدليل ايراد نماذج من أقوال كثيرة لعبد الناصر ــ فهو يقول : عن ثورة الجزائر في احدى المناسبات ••

« ••• ان ثورة الجزائر ملك للامة العربية كلها • ان أيام في الجزائر ترتبط بأغلى الذكريات وأعزها في قلوبنا »•

« ٢ يوليو ١٩٦٢ »

وعن ثورة ليبيا يقول في ٢٣ يوليو ١٩٧٠ :

« ... لقد حصل النضال العربي ، على دور ليبيا كاملا ، لصالح الثورة العربية ولصالح التحرير العربي بقيام الثورة فيها » .

وهو يقول عن ثورة السودان في المناسبة نفسها :

« ... بعد هذا (يقصد النكسة) شهدت أرض الامة العربية ، الثورة السودانية ، وصممت الثورة في السودان على أن تتحرر كليا من النفوذ الاجنبي .. وعلى أن تعمل بكل طاقاتها في اطار التضامن العربي وفي اطار الوحدة العربية .. » .

وهكذا فان تفجير ثورة الجزائر منذ عام ١٩٥٤ وعلى مدى ثماني سنوات ومعركة الاحلاف التي خاضتها الجماهير العربية عام ١٩٥٤ ، وكسر احتكار السلاح عام ١٩٥٥ ، وتأميم القناة ومجابهة العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ — ووحدة مصر وسوريا عام ١٩٥٨ ، وتفجر ثورة العراق عام ١٩٥٨ ، وتفجر ثورة اليمن عام ١٩٦٢ ، والتحرك الشعبي في السودان عام ١٩٦٤ ، وتفجر الثورة في الجنوب العربي حتى أواخر عام ١٩٦٧ ، واخيرا تفجر ثورتي السودان وليبيا عام ١٩٦٩ ... جميع هذه الحركات الثورية فضلا عن ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ في مصر تنضوي تحت لواء الثورة العربية بالمفهوم هذا . كذلك فان جميع النكسات التي حدثت خلال مسيرة الثورة العربية ومثلت الجزر الثوري العربي ، وأبرزها نكسة الانفصال عام ١٩٦١ ونكسة الهزيمة عام ١٩٦٧ والتجارب المرة في العراق وسوريا ، تقع الى جانب الانتصارات ضمن التجربة العربية الثورية .

ولقد كانت ثورة مصر يوم ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ أول وأهم الحركات العربية الثورية في هذه المرحلة من النضال العربي مثلت بداية جديدة

ومجيدة وجعلت من مصر قاعدة صلبة للثورة العربية • واذا كان البعض رأى فيها الثورة المصرية الوطنية فانها ــ وكما ابرزت مسيرتها ــ تجاوزت حدود اقليم مصر في تأثيرها وتعدت تلك الحدود الى الوطن العربي كله ، وحملت الفكرة القومية وظهرت بوجه عربي صميم ، فأكدت أنها ثورة مصر العربية واصبحت هذه الثورة من خلال التجربة العربية الثورية « ثورة يوليو الام » ــ كما أسماها البعض ــ « حيث رصع العالم العربي منذ قيامها بنسل دافق من الثورات التحريرية ، تبدو كالاقمار حول الشمس أو كالنوايات حول النواة ، وكان لكل منها بدورها صداها العميق الفاعل ، ابتداء من الجزائر وانتهاء اليمن » [1] • وسميت ايضا « الثورة العربية الام » في « الثورة القومية الشاملة » [2] • ووصفت بأنها « قاعدة للعمل الوحدوي الثوري في الوطن العربي » [3] وتلتقي هذه الاسماء مع اسم « الثورة العربية النواة » الذي سنستخدمه للدلالة ، على مكان ثورة ٢٣ يوليو في مصر من الثورة العربية عامة •

ان الحرص على ابراز وجه ثورة مصر العربي ومضمونها القومي يتفق مع واقعها ومع مفهوم عبد الناصر لها ، ومنطلقه في القيام بها • وتراث عبد الناصر يؤكد أن الرجل كان عربيا مصريا • والحق أنه لم يترك مجالا للتأويل في منطلقه ومفهومه لثورة ٢٣ يوليو حين قال :

« ••• الواقع أني دخلت الثورة المصرية كوطني وكقومي عربي ، ولا زلت هكذا الى اليوم ومعنى هذا في نظري أن الاولوية لبلادي ، وللامة العربية التي تعد بلادي

---

(١) جمال حمدان : استراتيجية الاستعمار والتحرير ، ص ٢٧٨ .
(٢) عبد الله الريماوي : البيان القومي الثوري ، ص ١١٥ .
(٣) نديم البيطار : مجلة مواقف عدد ٦ ، ص ٦ ومجلة الآداب فبراير ٧١ .

جزءا منها ولقد كانت أقوالي وأفعالي متمشية مع ايماني بالقومية العربية » ٧

« من حديث مع مراسل مجلة لايف في يوم ١٤ — ٧ — ١٩٥٩ » .

ان ثورة ٢٣ يوليو كما هو واضح مما سبق جزء من الثورة العربية يقع ضمن دائرتها وهي وان لم تكن مرادفة للثورة العربية ، الا انها نواتها الاولى وقاعدتها الصلبة .

وحين تتحدث عن عبد الناصر والثورة العربية فاننا ننطلق في حديثنا من وعي عميق لحقيقة الصلة بين الفرد ومجتمعه وبين القائد وجماهير الامة ، ومن فهم كامل لدور البطل وحدود تأثيره ضمن حركة تيار التاريخ .

والحق أن هذا هو الموضوع الثاني الذي يستحق التحديد والايضاح ، ومعلوم ان قضية البطل في التاريخ كانت ولا تزال محل خلاف بين المذاهب التاريخية المختلفة . وان الخلاف حولها تراوح بين رأي يقول بأن تاريخ البشرية هو تاريخ ابطالها ، ورأي مناقض يرى في الابطال افراد كانوا مجرد أدوات ولو لم يوجدوا لوجد غيرهم . وليس هذا المجال مجال مناقشة تفاصيل الموضوع وانما نكتفي بالقول أننا حين تتحدث عن عبد الناصر كقائد وكبطل ففي اعتبارنا ما أكده عبد الناصر مرارا من أنه جاء تعبيرا عن الوطن العربي في ظرف معين وفي زمان معين وأن دوره في قيادة الوطن العربي كان بمقدار تعبيره عنه . وفي اعتبارنا أيضا أن عظمة عبد الناصر كانت في قدرته الفائقة على استلهام ارادة الجماهير وصياغتها والتعبير عنها والالتحام الكامل بها .. بذلك اصبح عبد الناصر زعيم الامة وقائدها ، ومن ثم رمز الثورة العربية وصار اسمه مرادفا لمدلول هذه الثورة . وتلك ظاهرة متكررة في التاريخ بالنسبة لعظام الرجال الذين قادوا الثورات الانسانية .

لقد كان عبد الناصر حريصا غاية الحرص على التأكيد أن الشعب هو المعلم وهو القائد وهو الرائد • وعلى التقليل من شأن دوره في قيادة هذا الشعب ، والتحذير من الاعتماد على الفرد • هو حرص يزيد في قيمة عبد الناصر ومنزلته • ونكتفي بالاستشهاد ببعض اقواله في هذا المجال لنرى كيف كان عبد الناصر نفسه يفهم هذا الموضوع • فها هو يخاطب الامة في افتتاح مجلس الامة في مارس سنة ٦٤ قائلا :

« ••• ان الارادة الشعبية هي التي تملك ان تصنع قيادتها وان تحدد لها مكانها • واني لأرفع صوتي هنا أمامكم محذر من الاعتماد على الفرد •

ان الشعب يجب دائما أن يبقى سيد كل فرد •

ان الشعب أبقى وأخلد من كل قائد •• مهما بلغ اسهامه في نضال أمته •

أقول أمامكم هذا وأنا ادرك وأقدر ان هذا الشعب العظيم أعطاني من تأييده وتقديره ما لم أكن أتصوره يوما أو احلم به •

لقد قدمت له عمري ••• ولكنه اعطاني ما هو اكثر من عمر أي انسان •

لقد أسلم الي أمانة لم أكن أتصور أن يتحملها فرد » •

ان هذا الحديث ينبض بمشاعر المحبة والتقدير للشعب ، وهو ايضا يسلط ضوءا كاشفا على العلاقة الوثيقة بين الشعب والقائد وموقف

كل منهما تجاه الاخر • ولقد تجلت هذه العلاقة بأروع صورها مرات كثيرة خلال قيادة عبد الناصر للثورة العربية • وكان من اعظم هذه المرات ما حدث يومي ٩ و ١٠ يونيو سنة ١٩٦٧ • فكيف فهم عبد الناصر هذا الذي حدث ؟ انه يقول يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٦٧ موضحا فهمه :

« ••• انني لم اعتبر لدقيقة واحدة ، أن خروج جماهير شعبنا برغم الظلام وبرغم غارات العدو مساء يوم ٩ يونيو تكريما لشخصي ، وانما اعتبرت أن ذلك الموقف كان تصميما على النضال • ولقد قلت مرات عديدة أن هذا الشعب قد اعطاني اكثر مما حلمت به في أي يوم من الايام •

••• ولقد رفعت صوتي اكثر من مرة محذرا من الاعتماد على الفرد لأن كل فرد له دوره يؤديه ويمضي ، ويبقى الشعب وحده من الازل الى الابد واذن فمن هذه الناحية ليس عندي ما اقوله •

••• لقد كان موقف شعبنا يوم ٩ و ١٠ يونيو اكثر مما استحق ، واكثر مما يستحق أي فرد ، ولكنه بالنسبة لي كان يحمل معان اخرى • معنى استمرار النضال ، ومعنى استعداد الشعب لكل التكاليف والتضحيات ، ومعنى التصميم على المقاومة والصمود » •

ان هذه العلاقة الوثيقة بين القائد والجماهير حقيقة بارزة في التاريخ الانساني لا يمكن انكارها مهما كان الخلاف بين المذاهب التاريخية حول دور البطل في التاريخ • وهي تبلغ اوج قوتها حين يرتفع القائد من خلال

مسيرة النضال الى منزلة الرمز ... المنزلة التي احتلها عبد الناصر في حياته وخلد فيها بعد مماته .

لقد اجمع من تناولوا موضوع زعامة عبد الناصر للامة العربية على تسجيل حقيقة هذه الزعامة وتبين جوانبها . واتفقوا ان هذه الظاهرة لم تتكرر في التاريخ العربي منذ صلاح الدين .

ولسنا هنا في مجال استعراض هذه الاقوال ، ولا في مجال دراسة أنماط الزعامة . ولكننا نقصد الى توضيح التأثير المتبادل بين البطل والامة كما جسدتها ظاهرة عبد الناصر والثورة العربية .. البطل الذي اخذ من امته كل شيء واستلهم ارادة جماهيرها فأحسن صياغةهذه الارادة والتعبير عنها والالتحام الكامل بها . والامة التي استجابت وسلمته زمام أمرها . واذا كان تحديد دور البطل من صنع التاريخ فان البطل يساهم في صنع نفسه وصنع التاريخ . ولا بد من ملاحظة ان هذه العلاقة تعبر عن نفسها في حركة مركبة بمعنى ان آلية (ميكانيكية) هذه الحركة لا تتصف بالبساطة وانما تتداخل فيها عوامل عدة . فالبطل كفرد طليعي نخبةيتجاوز مجتمعه بعد ان يأخذ منه كل شيء ، ويسعى الى قيادة هذا المجتمع وصولا للاهداف التي اختزنتها احلام الجماهير . والمجتمع يحاول امتصاص البطل أو تطويقه بأساليب مختلفة من اخطرها احاطته بسحر التأليه . والبطل الحقيقي ينجو وينجح في ارساء العلاقة على اساس صحيح يعطي للشعب حقه ويحفظ له قدره ، ويمكّن البطل من القيام بدوره القيادي . وهذا ما نجح فيه عبد الناصر الى مدى بعيد .

ولا يفوتنا أيضا في هذا المجال ان نشير الى ان البطل لا يمكن ان يعمل بمفرده ولكنه يعمل كقائد لمجموعة طلائع ثورية تمثل بالنسبة اليه عصبته ويتبادل معها ثقة كبيرة . وقد توافرت هذه العصبة لعبد الناصر

من خلال تنظيم الضباط الاحرار كما التحق بها آخرون خلال المسيرة الثورية ٠

وهكذا فان حديثنا عن انجاز عبد الناصر في مجال الثورة العربية محكوم بفهمنا هذا لدور البطل والعلاقة الوثيقة بين القائد والطليعة والجماهير ٠ هذا الفهم الذي يرى فيما أنجزه عبد الناصر ثمرة نضال الجماهير الملتحمة به ، وثمرة نضاله ملتحما بالجماهير ٠

وأخيرا فان الحديث عن عبد الناصر والثورة العربية يقتضي توضيح النظرة التي ننظر بها الى تراث عبد الناصر الفكري والعملي في التجربة العربية الثورية ٠ كما يستوجب التنبيه الى طبيعة دور عبد الناصر في تلك التجربة ٠

من الطبيعي أن ننظر الى تراث عبد الناصر نظرة شاملة تأخذ هذا التراث بمجموعه ، وترى فيه وحدة متكاملة ٠ ولكن في اعتبارنا أيضا في الوقت نفسه حقيقتين ٠ أولاهما : ان هذا التراث لم يتجمع مرة واحدة ، وانما هو حصاد التجربة العربية الثورية خلال قيادة عبد الناصر لها طوال ثمانية عشر عاما ٠ بما يعنيه ذلك من ان عبد الناصر اعتمد في هذه التجربة التدرج وعرف التطور وانتهج اسلوب التجربة والخطأ ٠ وثانيهما : أن عبد الناصر كان في هذه التجربة القائد المفكر والقائد المنفذ وجمع بين صفتين وقرن الفكر بالتطبيق ٠

فبالنسبة للحقيقة الاولى نجد ان عبد الناصر دخل الثورة وقد توافرت لديه نظرات حول امور عدة ، ولكنه من خلال الممارسة سار سيرا حثيثا نحو بلورة النظرية ويمكننا أن نرى تلك النظرات في المبادىء الستة التي اعلنتها ثورة ٢٣ يوليو أثر قيامها ، ونراها في فلسفة الثورة حين تناول

عبد الناصر بالشرح بـُعدَي الزمان والمكان • وقد وصف الميثاق المبادىء الستة بأنها : « كانت اعلاما للثورة وليست أسلوب عمل ثوري ومنهاج تغيير جذري » •

وآمن عبد الناصر بأهمية الممارسة ودورها في اغناء النظرات وانضاجها لتصبح نظرية ، وفي بلورة الفكر من خلال حقائق الواقع ، باعتبار الممارسة هي التفاعل المستمر بين الفكر والواقع • وانطلاقا من وعي عبد الناصر للصلة العضوية بين القائد والجماهير كان واضحا في ذهنه أن الممارسة بما فيها من تجربة وخطأ هي الاسلوب المناسب •

ونلاحظ ان الميثاق سجل هذا المعنى حين قال : « لكن الشعب المعلم صانع الحضارة •• راح يلقن طلائعه اسرار آماله الكبرى ، ومضى يحرك المبادىء الستة بالتجربة والخطأ نحو وضوح فكري لصنع التصميم الهندسي لبناء المجتمع الجديد الذي يريده • وراح الشعب الكادح يكدس مواد البناء ويكتل جميع القوى الثورية القادرة على الاسهام فيه في صفوف الجماهير » •

ويشرح لنا عبد الناصر ايمانه بأهمية الممارسة ودورها في التجربة العربية الثورية ، ويوضح لنا اسلوبه ومنهجه الثوري ، بشكل مبسط في مناقشات اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطني القومي للقوى الشعبية (٢٥ نوفمبر سنة ١٩٦١) وذلك بمناسبة اعداد الميثاق بعد عشرة اعوام من قيام الثورة ومن الممارسة المستمرة فيقول :

« •• ولم يكن مطلوبا مني في يوم ٢٣ يوليو ان اطلع ومعي كتاب مطبوع واقول ان هذا الكتاب هو نظرية •• مستحيل ••• لو كنا قعدنا نعمل هذا الكتاب قبل ٢٣ يوليو لم نكن عملنا ٢٣ يوليو •

في الاسلام ، كان يقدر ينزل مع سيدنا جبريل كتاب مطبوع ومجلد ويقول هذه النظرية ، هذا هو القرآن ، وهذه هي العقيدة . وقد حدث غير ذلك ليعطينا ربنا في حياتنا عبرة وعظة .

ابتدأ الاسلام بأشهد أن لا اله الا الله ، وأن سيدنا محمدا رسول الله .. ابتدأ الاسلام بهذا .. جملتان ... لم يبدأ بكل ما هو موجود في القرآن ثم بدأ بعد هذا ايضا الاسلام يعطينا عبرا وعظة في حياتنا ..

٢٣ سنة لغاية تمام القرآن ، وتم نزول القرآن . لماذا فعل الله ذلك ؟ فعله حتى يعطينا الفرصةوالدليل او الوسيلة التي نقدر أن نعمل بها في حياتنا وفي دنيانا » .

ان هذا التفسير للقصد الالهي من تنزيل القرآن الكريم منجما يبرز أهمية الممارسة ودورها ويكشف في الوقت نفسه ايمان عبد الناصر بها .

وطبيعي ان الممارسة تحمل في طياتها التدرج والتطور والتجربة والخطأ ، وصولا الى بلورة النظرية أو دليل العمل . وهذا يعني انالتطبيق الثوري فيها يسبق النظريات . وقد أوضح عبد الناصر في مناقشات اللجنة التحضيرية تجربته الخاصة في هذا المجال وكان مما قاله :

« ... في يوم ٢٣ يوليو لم أكن اعرف أبدا أن اتكلم الكلام الذي اتكلم به الان ، وذلك لاني لم امش يومئذ في تجربة العشر سنين التي وجدت فيها هذه المدة ..

ان ظروفنا قضت ان التطبيق الثوري ، تطبيقنا

الثوري ، كان سابقا النظرية التي هي دليل العمل • عن أي شيء تكون النظرية هي تأتي عن دراسة المشاكل ••
انا لا استطيع انأحدد اين نقف •• الشعب هو الذي يحدد أين نقف •• أنا لن استطيع أن اقف الا اذا انتهى استغلال الانسان للانسان ، وكل واحد اصبح يشعر أن فيه فرصة متكافئة مع الآخر » •

وهكذا فاننا حين ننظر الى تراث عبد الناصر الفكري والعمليكوحدة متكاملة لا يغيب عن بالنا التدرج في صنعه ، ولا الحركةالمتطورة المتصاعدة التي حكمت مسار تكوينه • وهذه النظرة تمكن من فهم مواقف وأقوال في التجربة قد تبدو متباينة متناقضة وهي في حقيقتها متطورة •

ان هذه النظرة ترفض محاولة تصور التجربة او تصويرها كما لو كان مسارها الثوري مرسوما منذ البداية في جملته وفي أدق تفاصيله وفق ترتيب محكم سري من القائمين عليها • وهو اتجاه موجود في تفسير « الناصرية » وعرضها • وتؤمن نظرتنا بأن المفاهيم الثورية عند عبدالناصر تطورت في حركة صاعدة منذ ٢٣ يوليو ١٩٥٢ الى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ •

ولكن هذه النظرة مع ايمانها بالتطور ترى في الوقت نفسه أن هذا التطور كان منطلقا من مبادىء ونظرات محددة حكمت مسار حركته ، وكانت بمثابة مؤشرات له • ونضرب مثلا عليها ما جاء على لسانعبدالناصر في الكلمة السابقة : « لن استطيع ان اقف الا اذا انتهى استغلال الانسان للانسان » ، وما وضح عند عبد الناصر منذ البداية من نظرة قومية • أما تفاصيل المسار فهو من صنع التيار التاريخي الذي أوجده تلاحم الشعب بالقائد •

وهذه النظرة تعني بالنسبة لنا انه وان كانواردا تقسيممسار التجربة

العربية الثورية الى مراحل عدة الا انه لا يمكن القول بالفصل الكامل بين طبيعة كل مرحلة • وان مثل هذا التقسيم لا يجب ان يأخذ بالاطلاق لانه يخل حقيقة بتفسير التجربة الناصرية • فنجد مثلا من يرى ان التطور انطوى على ثلاث مراحل هي مرحلة التوجه نحو الاستقلال (١٩٥٢ — ١٩٥٦) ثم مرحلة تثبيت الاستقلال (١٩٥٦ — ١٩٦١) واخيرا مرحلة التحول الاجتماعي (١٩٦١ — ١٩٧٠) • ويحصر هذا التصور نفسه في حدود مصر والثورة المصرية « الاقليمية » • فيقصر هذا التصور وهذا التقسيم عن تفسير التوجه العربي القومي الذي بدأ مع بداية الثورة ، وعن تفسير البعد الاجتماعي الذي بدت تباشيره آنذاك • كما نجد ايضا من يرى ان المسار انطلق من ثورة وطنية الى ثورة قومية الى ثورة قومية تقدمية • فمع قبولنا بالخط العريض لهذا التقسيم نجد انالتجربة تؤكد وجود التوجه القومي والتوجه الاشتراكي منذ البداية وستتجلى هذه الحقيقة في الصفحات القادمة •

وأما بالنسبة لحقيقة أن عبد الناصر كان في التجربة العربية الثورية القائد المفكر والقائد المنفذ ، فهي واضحة تماما طوال المسيرة الناصرية • وقد قدم عبد الناصر في عصره من خلالها أنموذجا للقائد الذي يجمع بين الصفتين ويقرن الفكر بالتطبيق • وتكرر ظهور هذا الانموذج في ثورات العالم الثالث على الخصوص ، ولكن بقي انموذج عبد الناصر من أكثرها نضجا ووضوحا •

ولا شك في أن هذا الجمع خلص التجربة العربية الثورية منالتباعد او التناقض بين الفكر والتطبيق اللذين يحدثان عادة في حالة الفصل بين الصفتين • كما أكسب نضال عبد الناصر قيمة كبيرة باعتباره نضالا عمليا قائما على وضوح فكري •• وليس مجرد نظريات وأحلام تقرأ في الكتب

ولا تجد لها تجسيدا عمليا او اجراءات وتصرفات عشوائية تحمل اسم الثورية ولا تستند على فكر واضح .

ونحن حين ننظر لعبد الناصر المفكر والمنفذ فان في اعتبارنا الارضية التي وقف عليها في وطنه العربي ، وفي اعتبارنا ايضا العصر الذي عاش فيه والعالم الذي احاط به . خصوصا وان عبد الناصر كان حريصا على استشراف آفاق عالمه المعاصر ، وعلى توفير الفكر المفتوح على كل التجارب في ثورته . فمن الطبيعي ان يكون قد تأثر وأثر ـ بشكل او بآخر ـ في صنع التقدم العالمي .

بعد هذه البداية التي تمثل مدخلا لدراستنا ، نستطيع ان نبدأ حديثنا عن « عبد الناصر والثورة العربية » وبنظرة شاملة نافذة في تراث عبد الناصر نجد أن أعظم ما حققه القائد من خلال قيادته الثورة العربية هو :

● تأكيد الانتماء المصري الى الامة العربية تاريخيا ونضاليا ومصيريا ، وتحديد دور مصر العربي وبناء قلعة الثورة فيها .

● وبلورة فكرة القومية العربية وتحديد أهداف النضال العربي .

● والسير الحثيث على طريق التحرر العربي السياسي والاجتماعي وفي طريق الوحدة العربية .

● والمشاركة في بلورة فكرة العالم الثالث الذي يتبنى الحياد الايجابي وعدم الانحياز ويناضل في سبيل السلام القائم على العدل والتعاون الدولي من اجل الرخاء .

وبهذا الذي تحقق حدثت نقلة كبيرة في الوطن العربي وفي العالم الثالث خلال عهد عبد الناصر حتى اصبح أمرا طبيعيا التمييز ما قبل هذا العهد وما بعده فيهما .

تأكيد حقيقة
عروبة مصر

حرص عبد الناصر اول ما حرص ومنذ بداية ثورته على تأكيد حقيقة الانتماء المصري للامة العربية ، وعمل على ابراز وجه مصر العربي •

ونقول « تأكيد » لان هذا الانتماء حقيقة تاريخيه ونضالية ومصيرية كانت موجودة دوما • ولكن هذه الحقيقة حجبت بغشاوة وأنكرت على المستوى الرسمي خلال النصف الاول من القرن على وجـه الخصوص ، حين تكاتفت قوى الصراع الفكري الاستعماري مع بعض القوى الحاكمة التقليدية على شن حرب عدوان عليها ، وسعت بقوة لاستبدالها بالانتماء الاقليمي المعزول الذي حاولت ان تجد له سندا في أغوار التاريخ السحيق كما حاولت من خلال هذا الانتماء استغلال مشاعر الوطنية للانحراف بها فطرحت شعار « مصر للمصريين » وصولا لشعـار « مصر قطعة مـن أوروبا » •

فأما حقيقة الانتماء المصري للعرب أمة ووطنا فنجدها على مر القرون وفي شتى العهود منذ ان اكتمل تكون الامة العربية اواخر القرن الهجري الاول ، وأصبح واضحا التمييز بين بلاد عربية تنطق بالضاد وبين بـلاد أعجمية تجمعها معها رابطة الدين • وقد التحمت مصر ارضا وشعبا بالوطن العربي والامة العربية خلال تلك العهود ، فلم تعرف المنطقة بين اجزائهـا حدودا أو قيودا الى ان جاء الاستعمار الغربي الحديث منذ القرن التاسع عشر فأقام الحدود وفرض القيود • وهكذا كانت العلاقة بين الاجزاء في تواصل لم ينقطع ، وكثيرا ما خضعت تلك الاجزاء لحكم واحد • ونلاحظ انالحكم العثماني لها لم يمس وحدتها وكان حق المواطنة فيها شاملا لكل

الاجزاء ولا يقف عند جزء بعينه • وتكفي نظرة لأسماء العائلات في مصر او في بقية الوطن العربي لنرى آثار ذلك ومدى ما تحقق من امتزاج بين الاجزاء فدوما نجد اسماء المغربي والجزايرلي والتلمساني والتونسي والحجازي والمكي والعراقي والبغدادي والنابلسي والشامي والعكاوي والقدسي والتهامي والطرابلسي ••• الخ • وكانت تيارات التجارةوالثقافة فيها تعمل في اتجاه التبادل والتفاعل المستمر بينها • وقد احتلت مصر بحكم موقعها وامكانياتها مكانا هاما في المنطقة العربية من خلال انتمائها العربي •

وعى شعب مصر هذه الحقيقة ، فعبر عنها ذلك التعبير العامي الأصيل الذي تخلده المأثورات الشعبية حين قال عن « المصري » انه ابن العرب • كما أكدت هذه الحقيقة الدراسات التاريخيةوالجنسية واللغويةوالجغرافية والسياسية والاقتصادية التي تناولت مصر والمنطقة • ولسنا في مجال الحديث المفصل عما تضمنته هذهالدراسات ، ولذا فانا نكتفيبالاشارة الى بعضها • فهناك ما كتبه جمال حمدان في « شخصية مصر » وما كتبه محمد عزة دروزة في « عروبة مصر في الماضيوالحاضر » ودراساتبريستيد عن الحضارة المصرية وحضارات الشرق الادنى القديم • ودراسات بروكلمان وفرضية كابتاني ودراسات تفصيلية كثيرة لعدد منالباحثين [١] •

وتعرضت حقيقة عروبة مصر لمحاولات المسخ والتشويه على يد الاستعمار الغربي الذي نجح في التسلط على مصر في الربعالاخير منالقرن الماضي • تماما كما تعرضت حقيقة العروبة في بقية الاجزاء للمحاولات نفسها على يد الاستعمار الغربي الذي تسلط عليها •

---

(١) يراجع بحث عبد الناصر والقومية العربية للمقدم ابراهيم الفحام حيث اورد مقتطفات من بعض هذه الدراسات . من منشورات معهد تدريب ضباط الشرطة .

أما في ارض الكنانة فان الاحتلال الانجليزي الذي بدأ عام ١٨٨٢ عمل بنشاط وبسرعة على عزل مصر عن المشرق العربي والمغرب معا . فوضع مناهج التعليم التي تخدم هذا الغرض ، وتعاظم نتيجة لذلك الحديث عن التاريخ الفرعوني في محاولة للقفز عن الماضي العربي الاسلامي القريب الى الماضي البعيد . وتعرضت اللغة العربية لحملات ظالمة وظهرت الدعوة الى استخدام اللغة العامية ، وجرت محاولة فرض اللغة الانجليزية لغة للتعليم من اجل تصفية الرابطة اللغوية . ورفع حزب الامة شعار مصر للمصريين مستغلا الخلط القائم بين فكرة الوحدة العربية وبين الارتباط بالدولة العلية . وانبهر عدد من المثقفين بالحضارة الاوروبية فاندفعوا يحاولون ربط مصر بها ، وتحدثوا عن شيء اسمه حضارة البحر المتوسط زعموا ان مصر تنتمي لها امتدادا لمحاولة الخديوي اسماعيل الانغماسي الذي أراد أن يجعل من مصر « قطعة من أوروبا » .

وقد نجحت هذه المحاولات في تغطية حقيقة عروبة مصر بغشاوة ، وحجبت شمسها بغيوم سوداء . خاصة بعد ان انساق بعض المثقفين في هذا التيار وسقطوا في أحابيل الصراع الفكري الاستعماري . فساروا وراء بعض المظاهر السطحية واستسلموا لواقع التجزئة وللظروف السياسية الوقتية التي حكمت المنطقة العربية . وحفظت كتاباتهم ما يثير الاستغراب من آرائهم المعبرة عن هذا الاتجاه ، والتي تبين مدى عجزهم عن فهم حقيقة عروبة مصر . ويمكن ان تتعرف على نماذج من هذه الكتابات في دراسة أنيس صايغ القيمة عن تطور الفكرة العربية في مصر ، وفي الفصل الجيد الذي كتبه ابراهيم الفحام عن « حالة الدعوة القومية في مصر قبل الزعامة الناصرية » .

وهكذا مر شعب مصر العربي بمحنة صعبة واجه فيها محاولات انكار انتمائه العربي ، بغية اضعافه والتحكم في مصيره وتعطيله عن القيام بدوره

تجاه أمته العربية . تماما كما مر الشعب العربي في الاجزاء العربية الاخرى بالمحنة نفسها مواجها انكار انتمائه العربي . وكانت سياسة العزلة عن العروبة أو الاتجاه الى هذه السياسة عند ساسة مصر ـ كما يقول جمال حمدان ـ « مسألة مناورات تكتيكية تحتمها مصالح الرجعية الحاكمة ولا تدل على واقع الشعب الطبيعي أو اتجاهه الحر » [1] .

وكان لسيادة الانتماء الاقليمي على المستوى الرسمي نتائجه الوخيمة على حركة النضال العربي في تلك المرحلة . وقد أوضح الميثاق الوطني ذلك حين شرح اسباب فشل ثورة ١٩١٩ في مصر وذكر منها « ان القيادات الثورية في ذلك الوقت لم تستطع ان تمد بعدها عبر سيناء ، وعجزت عن تحديد الشخصية المصرية ؛ ولم تستطع ان تستشف من خلال التاريخ انه ليس هناك صدام على الاطلاق بين الوطنية المصرية والقومية العربية. لقد فشلت هذه القيادات في ان تتعلم من التاريخ ، وفشلت ايضا في ان تتعلم من عدوها الذي تحاربه ، والذي كان يعامل الامة العربية كلها على اختلاف شعوبها طبقا لمخطط واحد » [2] . ونضرب مثلا على ذلك رفض سعد زغلول اقتراحا قدمه له بعض الساسة العرب اثناء وجوده في باريس سنة ١٩١٩ للقيام بعمل عربي مشترك ، ورده عليهم قائلا « ان قضيتنا مصرية وليست عربية » . وما رواه عبد الرحمن عزام من انه كان يحدثه يوما عن الوحدة العربية فقاطعه متهكما « اذا جمعت صفرا مع صفر فالنتيجة صفر » . وقد رضي لطفي السيد ان يشترك بصفته رئيس الجامعة المصرية في افتتاح الجامعة العبرية بالقدس رغم تحذير الكثيرين من العرب له من الاشتراك في هذه المناسبة . وفي عام ١٩٣٢ وافقت حكومة صدقي

---

(١) جمال حمدان : شخصية مصر ، ص ٢٤٥ طبعة كتاب الهلال .
(٢) الميثاق الوطني ، فصل جذور النضال المصري .

باشا على الاشتراك في المعرض الصهيوني وأصدرت أمرا بتخفيض أجور السفر بالقطار الى فلسطين (١) .

ولكن على الرغم من عنف تلك الحرب التي شنها الاستعمار الغربي وانساق فيها الاقليميون ضد عروبة مصر ، وعلى الرغم من نجاح محاولاتهم جزئيا في تغطية هذه الحقيقة بغشاوة ، نلاحظ ان الشعب العربي في مصر شأنه في بقية الاجزاء العربية كان ينطلق للتعبير عن انتمائه العربي بين حين وآخر وخاصة في المحن القومية استجابة لتلك الحقيقة وبدافع من عقيدته وقيمه الروحية . وهناك امثلة كثيرة على ذلك نشير من بينها الى موقف شعب مصر العربي من الغزو الايطالي لليبيا عام ١٩١١ ، حين اندفع الناس للتبرع اعانة للمجاهدين ودعما للجهاد ، وتطوع بعض الشباب وعلى رأسهم عزيز المصري . وتجلى ذلك الموقف الشعبي في السخط الذي صبه على مقالات ثلاث كتبها احمد لطفي السيد في « الجريدة » لسان حال حزب الامة نعى فيها على المصريين تبرعهم ودعاهم الى الضن بأموالهم ، فتفجر السخط الشعبي حتى اضطر لطفي السيد « الى الانسحاب من الميدان والسفر الى قريته برقين » . وتولى محمد حسين هيكل مهام رئاسة التحرير نيابة عنه حتى يهدأ الناس . والقصة كاملة نجدها في مذكرات هيكل ، وهي تصور البون الشاسع بين الموقف الشعبي وموقف بعض المثقفين الذي أشرنا اليه (٢) .

وقد بدا هذا الموقف الشعبي الاصيل خلال الغزو الفرنسي الاستعماري لسوريا ، ونجد شواهد له كثيرة في الادب والصحافة . كما تجلى ايضا

---

(١) انيس صايغ : الفكرة العربية في مصر ، ص ١٧٤ .
(٢) محمد حسنين هيكل : مذكراتي في السياسة المصرية ، ج ١ ، ص ٥٠ ــ ٥١ .

وبصورة اقوى في التعاطف مع ثورة شعب فلسطين على الاستعمار البريطاني في الثلاثينيات • وقد تعرض هيكل لهذا الموقف الشعبي في مذكراته فوضح من حديثه البون القائم بينه وبين الموقف الرسمي الذي حاول تفسيره وتبريره ، فبعد ان تحدث عن الخطر الصهيوني ومقاومة شعب فلسطين له قال « لكن الحكومات العربية لم تكن تستطيع ان تفعل شيئا ، فقد كان بعضها واقعا تحت النفوذ البريطاني كمصر والعراق وشرق الاردن ، وكان البعض الآخر خاضعا لانتداب فرنسا كسوريا ولبنان ، وكان سائرها مشتغلا بمشاكله الخاصة • لهذه الاسباب لم تكن الحكومات العربية تستطيع ان تمد لعرب فلسطين يدا • فأما الرأي العام العربي والاسلامي فكان يناصر العرب بكل قوته •• وبقيت سياسة مصر الرسمية سياسة عطف على العرب لا اكثر لان اشتغال مصر بمشكلاتها جعل سعد باشا وجعل غيره من الساسة يرون الا تشتت الجهود ، بل توجه كلها الى تحقيق استقلال مصر » (1) •

ان هذا الموقف الشعبي الذي تجلى بين حين وآخر رغم تلك الحرب العنيفة لطمس حقيقة عروبة مصر ، كان تعبيرا عن هذه الحقيقة • ولا يقلل من قوة هذا التعبير التفسيرات التي تطرح للمواقف الشعبية بأنها كانت أحيانا تعبر عن الاخوة في الدين او التضامن في الوقوف ضد الاستعمار أو الترابط في اطار المشرق ، لان جميع هذه الابعاد تقع ضمن حقيقة انتماء مصر العربي • كذلك فان الموقف الرسمي المعادي مهما جرت محاولات تفسيره وتبريره بوجود ظروف فرضته ، فانه ــ مع وعينا لهذه الظروف ــ كان تعبيرا عن عجز من وقفوه عن الامتداد ببصرهم خارج القوقعة التي وضعهم الاستعمار فيها •

ولقد قوى التعبير عن حقيقة عروبة مصر شعبيا في الثلاثينات بحكم

---

(1) محمد حسين هيكل ، المصدر نفسه .

عوامل عدة منها ظهور عجز القيادات وفشل سياستهم الاقليمية ، واحتدام الصراع ضد الاستعمار في اجزاء عربية مجاورة وخاصة فلسطين . وبقي الموقف الرسمي أسير العجز . ولقد شرح عبد الناصر في فلسفة الثورة مشاعر فتى عربي من شعب مصر في الثلاثينيات ازاء قضية عربية هي قضية فلسطين فقال :

« وأنا أذكر فيما يتعلق بنفسي ان طلائع الوعي العربي بدأت تتسلل الى تفكيري وأنا طالب في المدرسة الثانوية أخرج مع زملائي في اضراب عام في الثاني من نوفمبر كل سنة احتجاجا على وعد بلفور الذي منحته بريطانيا لليهود، ومنحتهم به وطنا قوميا في فلسطين اغتصبته ظلما من اصحابه الشرعيين .

وحين كنت اسائل نفسي في ذلك الوقت : لماذا اخرج في حماسة ولماذا اغضب لهذه الارض التي لم أرها ؟ لم أكن أجد في نفسي سوى اصداء العاطفة » [٢] .

والحق أن الشعور الشعبي بهذا الانتماء العربي في مصر كان وقتذاك شعورا عاطفيا يعبر عن نفسه بصور الارتباط الروحي او الجنسي او الشرقي وجميعها نابعة من الارتباط القومي أو متصلة به ـ كما كان هذا الشعور يعاني من ضباب الاقليمية الكثيف الذي اصطنعه تكاتف الاستعمار والرجعية الحاكمة .

وقد تفجر هذا الشعور العاطفي خلال حرب فلسطين عام ١٩٤٨

---

(٢) جمال عبد الناصر : فلسفة الثورة ، ص ٦٣ .

واتنفل عند بعض الطلائع الواعية الى منطقة الوعي العقلي بفعل الدراسة وتأثير الظروف المحيطة • وكان عبد الناصر واحدا من هذه الطلائع • وقد شرح لنا تطور شعوره في تلك المرحلة منذ الثلاثينيات حتى حرب فلسطين؛ فقال في فلسفة الثورة :

« ثم بدأ نوع من الفهم يخالج تفكيري حول هـذا الموضوع ، لما أصبحت طالبا في الكلية الحربية أدرس تاريخ حملات فلسطين خاصة ؛ وأدرس بصفة عامة تاريخ المنطقـة وظروفها التي جعلت منها في القرن الاخير فريسة سهلـة تتخطفها أنياب مجموعة من الوحوش الجائعة » •

« ولما بدأت أزمة فلسطين كنت مقتنعا في اعماقـي بأن القتال في فلسطين ليس قتالا في ارض غريبة ، وهـو ليس انسياقا وراء عاطفة ؛ وانما هو واجب يحتمه الدفاع عن النفس » (١) •

وهكذا أخذ الشعور بانتماء مصر العربي مكانـه الصحيح عنـد عبد الناصر وغيره من الطلائع ؛ فلم يعد انسياقا وراء عاطفة مبهمة ، وانما استقر على أساس من الفهم والوعي والادراك لبعدي الزمان والمكان • ويضرب لنا عبد الناصر اكثر من مثل على هذه الحقيقة في فلسفة الثورة (الصفحات ٦٣ ــ ٦٩) منها اتصال الضباط الاحرار بالحاج امين الحسيني لمساعدة المقاومة في فلسطين وشعور عبد الناصر حين رأى طفلة صغيرة كانت في مثل عمر ابنته أثناء حصار الفالوجة وقوله لنفسه : « قد يحدث هذا لابنتي » ؛ وملاحظته بعد انتهاء المعارك وعودته الى الوطن وحـدة المنطقة ككل •

---

(١) فلسفة الثورة ، ص ٦٣ •

« كانت المنطقة كلها في تصوري قد اصبحت كــلا واحدا وأيدت الحوادث التي جرت بعد ذلك هذا الاعتقاد في نفسي • كنت أتابع تطورات الموقف فيها فأجده أصداء يتجاوب بعضها مع بعض » •

« كان الحادث يقع في القاهرة فيقع مثيل له في دمشق غدا ، وفي بيروت ، وفي عمان ، وفي بغداد ، وغيرها » •

« منطقة واحدة ونفس الظروف ، ونفس العوامل•• بل ونفس القوى المتألبة عليها جميعا » (١) •

وشرح عبد الناصر هذا التطور الذي حدث من خلال تجربته الذاتية، في رده على سؤال الصحفي البريطاني « ديزموند ستيوارت » عن الوقت الذي بدأ فيه يشعر بالعروبة ••• ويهمنا ان نورد هذا الشرح لانه يقدم لنا أنموذجا لشاب عربي مصري في تلك الفترة لا بد أنه يمثل قطاعا مــن الشباب ، فضلا عن أنه يسلط الضوء على قضية سنعرض لها فيما بعــد وهي « متى حدث توجه عبد الناصر العربي » ؟ فعبد الناصر يجيب سائله قائلا :

« بدأت طلائع الوعي العربي تتسلل الى تفكيري وأنا طالب في المدرسة الثانوية، عندما كانت مشاعري واحساساتي تتفاعل مع كل ما يدور في الوطن العربي من أحداث وكــان أهم الأحداث التي ملكت على تفكيري في ذلك الوقت هي ثورة العرب في فلسطين ثم الفظائــع الوحشيــة التي كان يرتكبها الفرنسيون في سوريا •

---

(١) فلسفة الثورة ، ص ٦٩ •

ولقد تبلورت في ذهني فكرة القومية العربية كمذهب سياسي عندما كنا ندرس في كلية أركان الحرب المشكلات الاستراتيجية الخاصة بمنطقة الشرق الاوسط . وكنت قد قرأت تاريخ العرب منذ أقدم العصور وعرفت أنه عندما كان العرب وحدة متماسكة استطاعوا رد المعتدين على أعقابهم وكانت هذه الحقيقة ماثلة أمام عيني طوال فترة المناقشة التي كانت تدور حول وسائل الدفاع عن مصر »[1] .

قلنا أن الشعور العاطفي بالانتماء العربي في مصر تفجر خلال حرب فلسطين عام ١٩٤٨ ؛ ودخول مصر وعدد من الدول العربية هذه الحرب . وقلنا ـ أن هذا الشعور انتقل عند بعض الطلائع الى منطقة الوعي العقلي في تلك الفترة ـ فكان لقضية فلسطين دور في لفت الأنظار الى حقيقة عروبة مصر . ولكن لم تلبث حرب فلسطين نفسها بما أوصلت اليه من نكبة مريرة أن كانت سببا في دفع الرجعية الحاكمة في مصر الى سياسة العزلة ستراً للهزيمة التي شاركت في صنعها . وهكذا عمد حكام مصر وتنذالك الى الانحاء باللائمة على العرب في خسران الحرب ، وساهموا في اصطناع حملات الكراهية ضد العرب وشعب فلسطين العربي على وجه الخصوص واطلقوا مع مثقفي البرجوازية النامية الذين يساندوهم الصيحات الاقليمية . فضرب ذلك كله المشاعر الجماهيرية في الصميم . ونجد أمثلة لما فعلوه في كتاب « حقائق قضية فلسطين » الذي أصدرته الهيئة العربية العليا ونشرته قبل ذلك فصولا في جريدة المصري للرد على تلك الحملات .

وارتفعت أصوات في مصر تعلن هذا الاتجاه الاقليمي الانعزالي

---

(١) حديث مع ديزموند ستيوارت في ١٩٥٥/٤/١ .

وتمادى فيه . وتزعّم صدقي باشا هذا الاتجاه ، فكرر ما سبق أن ردده من وجوب تجاهل القضية الفلسطينية . وكان قد نشر مقـالا في أخبـار اليوم يوم ١٥ مايو ١٩٤٨ يُعبّر فيه عن رأيه هذا . ونشر في ٢٦ مايـو مقالا في الأهرام اعترض فيه على تعزيز تسليح الجيش . وجدد دعوته الى الابتعاد عن قضية فلسطين في حديثه لمجلة المصور يوم ١٥ يوليـو ١٩٤٩ منطلقا من انكار الخطر الصهيوني . ويهمنا أن نورد قوله في هذا المجـال لما له من دلالات نحن بحاجة الى استحضارها في هذه الايام التي يتجه فيها البعض هذه الوجهة الضالة . فقد سأل محرر المصور « ألا زلتم ترون انه لا خطر على مصر من الصهيونية ؟ » . فأجاب صدقي باشا : « نعم لانه لا يعقل ان اسرائيل وتعدادها لا يزيد عن مليون يهودي من أجناس مختلفـة تستطيع أن تجند جيشا وتحارب به مصر ، وهي أكثر منها عـددا وأكبـر ثروة بنسبة لا تقبل المقارنة . هذا فضلا عن ان للدول الكبرى وبخاصـة بريطانيا مصالح مرتبطة بمصالح مصر . وهي لذلك لن تسمح مهما تبدلت الأحوال بهذا الاعتراض » . وقد وصل صدقي باشا الى المطالبة علنا باجراء صلح رسمي مع اسرائيل أوائل عام ١٩٥٢ .

وكان من بين هذه الأصوات صوت أحمد لطفي السيد الذي تحدث للمصور في عدد ٥ مايو ١٩٥٠ أي بعد قرابة أربعين سنـة مـن مقالتـه الليبية وبعد حوالي خمس وعشرين سنة من مشاركته في احتفالات افتتاح الجامعة العربية بالقدس ــ فتعرض لعلاقة مصر بالعرب وذكر انه طالما ردد مصرية المصريين وقال : « نحـن المصريين يجب أ ن تتمسك بمصريتنا ولا نتنسب الى وطن غير مصر ، مهما كانت أصولنا حجازيـة أو سوريـة أو شركسية أو غيرها ... » . ويجدر بالذكر ان لطفي السيد ــ كما يقـول البعض ــ من أصل فلسطيني . وننبه ايضا الى اننا حين نشير الى موقفـه هذا ونختلف معه فيه لا ننسى أنه كانت للرجـل مواقـف كثيرة مشرفـة

استحق التقدير عليها وخاصة في مجال التعليم ، مثلما كانت للزعيم سعد مواقفه المشرفة والبطولية في مواجهة الاستعمار .

كما نشرت مجلة المصور مقالا للدكتور حسين مؤنس في عدد ٤ يناير ١٩٥٠ بعنوان « وحدنا » انتقد فيها اندفاع شعب مصر نحو مساندة أشقائه العرب ، وطالب بالابتعاد عن قضايا العرب « واتباع الطريق الذي فيه مصلحتنا فقط حتى لا تثير الدول الكبرى علينا » (١) .

والحق ان هذه الأصوات الاقليمية وجدت دوما في مصر ومن بين عرب مصر من يرد عليها ويدحضها ويسفه منطقها . وهذا يؤكد ان حقيقة عروبة مصر بقيت رغم كل المحاولات قائمة . ولسنا هنا في مجال عرض الردود التي عبّرت عن هذه الحقيقة . ولكن الملاحظ في تلك الفترة ان حكام مصر آنذاك تبنوا هذا الاتجاه الاقليمي الانعزالي وشجعوا عليه في غالب الأحيان . وكان تحولهم عنه في أحيان قليلة الى الانفتاح العربي مسألة مناورات تكتيكية تحتمها مصالحهم ولا تدل على واقع الشعب أو اتجاهه .

هكذا كانت حقيقة انتماء مصر العربي ــ حقيقة عروبة مصر ــ حقيقة قائمة على مر العهود ، حتى في النصف الاول من هذا القرن حين تألب عليها تحالف الاستعمار والرجعية الحاكمة . ولكنها بفعل هذا التألب حجبت خلال تلك الفترة بغشاوة وجرت محاولة مسخها وانكارها . فكانت بحاجة الى أن تتأكد وتنطلق وتأخذ مداها .

* ★ *

حدث التحول الجذري في موقف السلطة في مصر من حقيقة انتماء

---

(١) انيس صايغ ، ص ٢٥٩ ؛ ومحمد الفحام ، ص ٢٠ .

مصر العربي حين فجّر عبد الناصر الثورة العربية النواة يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وتولى زمام السلطة في مصر .

فلقد عمل عبد الناصر بايمان عميق وبوعي كامل وبصبر لا يعرف الكلل والملل لتأكيد هذه الحقيقة وشرح أبعادها وتبديد الضباب الكثيف الذي يغشاها . وكان هذا دأبه منذ يوم توليه حتى يوم وفاته . وكان ايمان عبد الناصر بهذه الحقيقة قد استقر وتعمق في الاربعينيات كما رأينا من خلال تجربته الذاتية التي استشهدنا بها . وقد انتقل هذا الايمان يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ من موقع ايمان فرد وطلائع تعبر في ايمانها عن ضمير الجماهير وتجابه سلطة تناهض هذا الايمان ، الى موقع ايمان قائدة ثورة وطلائع ثوار تعبر عن ايمانها عن ضمير الجماهير وتحتل موقع السلطة وتسخرها لخدمة هذا الايمان .

بدأ عبد الناصر تأكيد حقيقة انتماء مصر العربي ، وابراز عروبة مصر ، منذ الأيام الأولى للثورة ، وقد حرص أن يبشر بالفكرة ويشرحها لينقل الايمان الجماهيري بها من العاطفية الى الوعي العقلي . وهكذا نجده في فلسفة الثورة الذي كتبه أوائل عهده والذي طالعناه بأفكار القائد الشاب ، نجده وهو يشرح بُعْد المكان يركز على الدائرة العربية أول الدوائر الثلاث وأهمها ــ حتى أن حديثه عنها يستغرق حوالي ربع الكتاب ويؤكد عبد الناصر في حديثه انتماء مصر العربي فيقول :

« أيمكن أن نتجاهل ان هناك دائرة عربية تحيط بنا ... وان هذه الدائرة منا ونحن منها ، امتزج تاريخنا بتاريخها وارتبطت مصالحنا بمصالحها حقيقة وفعلا وليس مجرد كلام . ان الدائرة العربية هي أهم هذه الدوائر وأوثقها ارتباطا بنا فلقد امتزجت معنا بالتاريخ ...

وامتزجت معنا بالدين ثم جمعها الجوار في اطار ربطته كل العوامل التاريخية والمادية والروحية » •

ولا يقف عبد الناصر عند تأكيد حقيقة انتماء مصر العربي ، بل يعلن أن القاهرة هي قلب العروبة ، وأن مصر جزء لا يتجزأ من الوطن العربي • وهكذا تنشىء « مصر الثورة » اذاعة صوت العرب التي قدر لها أن تقوم خلال السنوات التالية بدور كبير في تأكيد حقيقة عروبة مصر وابراز وجه مصر العربي ودعم النضال العربي القومي عامة ••• وينطلق صوت العرب يوم ٤ يوليو ١٩٥٣ ويقول عبد الناصر في افتتاحه :

« أطلقت مصر صوت العرب من قلب القاهرة حربا على المستعمرين وشوكا يدمي ظهور الغادرين • أطلقته مصر يعلن ذاتيتكم وقوتكم أمة واحدة ، لا تفصلها الحدود ، ولا تمزقها الشهوات ، ولا يقف بينها وبين الحرية تآمر الاستعمار » •

ويحدد عبد الناصر دور مصر العربية في المنطقة المحيطة بها ، فيحدث في فلسفة الثورة عن هذا الدور تجاه الدوائر الثلاث التي أهمها ــ كما سبق أن أوضحنا ــ الدائرة العربية •

« ••• ولست أدري لما يخيل الي دائما أن في هذه المنطقة التي نعيش فيها دورا هائما على وجهه يبحث عن البطل الذي يقوم به ، ثم لست أدري لماذا يخيل الي ان هذا الدور الذي أرهقه التجوال في المنطقة الواسعة الممتدة في كل مكان حولنا ، قد استقر به المطاف متعبا منهوك القوى على حدود بلادنا يشير الينا أن تتحرك ، وأن ننهض بالدور

وترتدي ملابسه فان أحدا غيرنا لا يستطيع القيام به •

وأبادر هنا فأقول ان الدور ليس دور زعامة انما هو دور تفاعل وتجاوب مع كل هذه العوامل ، يكون من شأنه تفجير الطاقة الهائلة الكامنة في كل اتجـاه من الاتجاهات المحيطة بها ، ويكون من شأنه تجربة لخلق قـوة كبيرة في هذه المنطقة ترفع من شأن نفسها وتقوم بدور ايجابي في بناء مستقبل البشر » •

ويلقي عبدالناصر بعد تحديد دور مصر العربية في المنطقة على حكومة الثورة التي فجرها مسئولية تحقيق ما يتطلبه انتماء مصر العربي من التحام بين الشعوب العربية ودوما نراه يؤكد مع حقيقة عروبة مصر حقيقة وجود أمة عربية واحدة • وهكذا نجد عبد النـاصر يقـول في العيـد الثانـي للثـورة :

« ان هدف حكومة الثورة ان يكون العـرب أمـة متحدة يتعاون أبناؤها في الخير المشترك • وهي تؤمن بأن الموقع الذي يحتله العرب بين قارات العالم ، وخدماتهـم العظيمة للحضارة ومواردهم الاقتصادية القيمة واتصالاتهم بالمشرق الاسلامي وبالشرق كله يرشحهم لمكانـة كبيرة تتيح لهم التأثير على شئون العالم •••

وتؤمن الثورة أيضا بأن مشاكل العرب هي مشاكـل المصريين • واذا كانت مشكلة الاحتلال استنفذت الى الآن الجزء الأكبر من جهد المصريين فأنها لم تصرفهم أبدا عـن المشاركة في كل جهد عربي يبذل من أجل تحرير العـرب •

ولا شك أن المستقبل سيشهد صورا جديدة من تعاون المصريين والبلاد العربية » •

ولقد حدث تجاوب عظيم في الأوساط العربية لاتجاه الثورة العربي وكانت هذه الأوساط متعطشة لقيام مصر بدورها العربي • ومما رواه السيد أحمد الشقيري في ذكرياته انه بعد سماعه خطاب عبد الناصر في العيد الثاني للثورة ذهب ضمن وفد من العرب للاعراب لعبد الناصر « عن التقدير العظيم لهذا الكلام الواضح الصريح الذي خلع في دقيقة واحدة القناع عن الثورة المصرية ، وأبان وجهها العربي الأصيل » • ووصف الشقيري اللقاء والمشاعر العربية التي سادت فيه ، وأثبت المذكرة التي قدمها عن الوحدة ثم ذكر ان عبد الناصر سأله في لقاء تال ما اذا كان قرأ فلسفة الثورة وأكد له نحن عرب أولا وأخيرا وأشار الى دولاب فيه آلاف الرسائل والبرقيات من كل أنحاء الوطن العربي ، جميعها تطالب بالوحدة (١) •

كان عبد الناصر يتفاعل مع هذا التجاوب الجماهيري ، فيزداد انطلاقا في تأكيد حقيقة عروبة مصر على المستويين الشعبي والرسمي • نراه يخاطب وفدا من عرب لبنان في ٢ فبراير ١٩٥٥ فينطلق في شرح حقيقة الوحدة العربية والدعوة لها •

« ••• ويجب أن نسير الى الأمام بقوة نحمل مشعل القوة من أجل العرب ومن أجل أهداف العروبة ، حتى تتخلص جميعا من الآلام فان آلام مصر من آلام لبنان ، وآلام لبنان من آلام سوريا ••• ان هذه الآلام نشترك فيها جميعا » •

---

(١) احمد الشقيري : حوار واسرار مع الملوك والرؤساء .

ونراه يشرح للعرب حقيقة عروبة مصر ويرد على الدعايات المغرضة التي تحاول طمس هذه الحقيقة فيقول لوفد من شباب عربي سوري في ٢٦ فبراير ١٩٥٥ :

« ان هناك دعايات مغرضة تقول انه لا توجد في مصر روح عربية ولكنها خاطئة وبعيدة عن الحقيقة . ولعلكم لمستم بأنفسكم والدليل على ذلك وأنا شاب كانت تنعكس روحي تجاه العرب وليس تجاه أوروبا بالمرة » .

ونراه في الوقت نفسه يشرح لعرب مصر أبعاد انتماء مصر العربي بما يعمق ايمانهم بهذه الحقيقة ، وقد حفلت خطبه منذ عيد الثورة الثاني بهذا الشرح .

هذا على المستوى الشعبي ، أما على المستوى الرسمي فتتالي تصريحات عبد الناصر معبرة عن عروبة مصر ومحددة دورها في المنطقة ، وخاصة خلال معركة الأحلاف التي خاضها الشعب العربي منذ عام ١٩٥٤ ونشير الى تصريحاته في ٢ فبراير وفي ٢٤ مارس وفي ٣١ مارس من عام ١٩٥٥ (١) . فجميعها تتضمن هذه المعاني .

ويحقق عبد الناصر نقلة كبيرة في تأكيد حقيقة عروبة مصر على المستوى الرسمي ، حين يعلن الدستور المصري الجديد في ١٦ يناير ١٩٥٦ ، وينص في مقدمته :

« نحن الشعب المصري الذي يشعر بوجوده متفاعلا

---

(١) انظر يوميات الثورة ، مجلة الطليعة يوليو ٦٥ .

في الكيان العربي الكبير يقدر مسئولياته والتزماته حيال النضال العربي المشترك لعزة الأمة العربية ومجدها » •

وتنص مادته لأولى على أن :

« مصر دولة عربية ذات سيادة ، وهي جمهورية ديموقراطية ••• والشعب المصري جزء من الأمة العربية ••• » •

ثم لا يمضي سوى عامان على هذا الاعلان حتى يُجسّد عبد الناصر هذا الانتماء بخطوة عملية ضخمة هي تحقيق وحدة مصر وسوريا فيفبراير ١٩٥٨ • ويتابع السير في سياسة عربية ثورية ويقود حركة المد العربي الثوري •

ولم يقتصر تأكيد عبد الناصر حقيقة عروبة مصر أبان المد العربي الثوري بل بدأ وبشكل أقوى خلال النكسات وما مثلته من جزر • فلم يتزحزح عبد الناصر عن هذا التأكيد في أشد الظروف صعوبة ••• في خضم النكسات وبعد أعنف الضربات التي وجهها التحالف الاستعماري الصهيوني الرجعي للثورة العربية ، وما صاحب ذلك من آلام ومرارات •

فأثر نكسة الانفصال يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٦١ حرص عبد الناصر أن يوجه بيانا للأمة العربية جمعاء باعتبارها كلا واحدا، أكد فيه ايمانه بحقيقة انتماء مصر العربي وحتمية الوحدة العربية :

« ••• واني لأثق في حتمية الوحدة بين شعوب الأمة العربية ثقتي بطلوع الفجر بعد الليل مهما طال » •

ووقف عبدالناصر يجابه أشد حملات الحرب النفسية التي استهدفت تشكيك شعب مصر العربي بانتمائه أثر نكسة الانفصال وتشكيك الشعب العربي عامة باتجاه شعب مصر العربي • ووقف عبد الناصر يجابه الاتجاهات الاقليمية والانفصالية بايمان لا يتزعزع وبعلمه وبأسلوبه الفذ في مخاطبة الجماهير • ونورد مثلا من أمثلة كثيرة ما جاء في خطابه في عيد الوحدة يوم ٢٢ فبراير ١٩٦٢ بعد الانفصال بعدة شهور •

« هناك أيها الاخوة من يتساءل : لماذا نحتفل بعيد الوحدة وقد رأينا ما حدث لها في سوريا • سمعت هذا التساؤل وسمعت من يقول لنترك العرب في حالهم ولنذهب في حالنا ، وربما كان هذا التساؤل حافزا من الحوافز التي دفعتني على الاصرار لأن أكون معكم ولأن أتحدث اليكم » •

وأنا أعلم — ايها الاخوة — ان الشعب في الجمهورية العربية المتحدة تأثر عاطفيا من بعض التصرفات التي وجهت ضده من بعض الحكام العرب • لكن علينا أن ندرك عروبتنا وعروبة مصر ليست مسألة ظروف متغيرة ؛ وانما عروبتنا حقيقة ثابتة • وأنا قلت لكم هذا الكلام في يوم الانفصال وأكرره أيضا مرة أخرى بعد مرور ما يقرب من خمسة أشهر على مؤامرة الانقلاب في سوريا •

لا خيار لنا — أيها الاخوة — في أن نكون عربا ••• ستبقى عروبة مصر لأن تلك هي الطبيعة نفسها وليست ارادة فرد أو أفراد •

كذلك ــ أيها الاخوة ــ علينا أن ندرك أن الوحــدة ستظل هدفا . ان وحدة الأمة العربية أيضا طبيعية كطبيعــة وجودنا ذاته » .

وحين أنجز عبد الناصر بعد شهور قليلة انجازه الضخم على الصعيــد الفكري وطرح الميثاق الوطني يوم ٢١ مايو ١٩٦٢ ، تضمن الميثاق تأكيــد حقيقة انتماء مصر العــربي وأدان عجــز القيــادات التي وقعــت أسيرة الاقليمية . وتجاوز ذلك الى تحميل مصر « رسالة العمل من أجل الوحدة الشاملة ... » وهي نقلة كبير في مدى عقدين من السنين .

ونلاحظ أن عبد الناصر جابه حملات الحرب النفسيــة التي شنهــا مدبرو الانفصال على الأمة العربية ، باجراءات عملية جسدت معنى عروبة مصر وحقيقة الوحدة العربية . ولم ينسق الى أي رد فعل غاضب يحمــل معنى اقليميا لمواجهة تحديــات الانفصاليين . بل كانت اجراءاتــه تمثــل الاستجابة الصحيحة لتلك التحديات خاصة على مستوى التعامــل مــع سوريــا الشعب والدولة .

وازداد تأكيد الثورة العربية التي يقودها عبد الناصر لحقيقة عروبــة مصر قولا وعملا مع اشتداد حرب العدو لهذه الحقيقة . لأن عروبة مصر هي الطبيعة نفسها ، ولأن وحدة الامة العربية ايضا طبيعية ، ولان رسالــة مصر في العمل من أجل الوحدة العربية هي الرسالة الضبيعية . ولقد كــان ذلك ما أكده عبد الناصر يوم ٢٢ يوليو ١٩٦٣ أثر احداث أليمة وقعــت في سوريــا .

« لم نكفر ولن نكفر بالقومية العربية ولا بالوحدة العربية » وسنعمل دائما من اجل القومية العربية والوحــدة العربية ، وكل واحد فينا يسلم العلم للثاني .

المسألة ليست شخصية •• وليست خاصة بعبد الناصر ولا بفلان او علان ••الرسالة خاصة بالشعب بكم انتم ، بكل واحد من ابناء هذه الامة لان هذه الرسالة هي الرسالة الطبيعية » •

وهكذا كانت النكسات بمثابة الامتحان الذي محّص وسبر الغور فأثبت بما لا يقبل ادنى شك عِظَم عطاء عبد الناصر في مجال تأكيد حقيقة عروبة مصر •

ولقد توج عبد الناصر جهده في هذا المجال بعد نكسة يونيو (حزيران) ١٩٦٧ بسياسته الواضحة المحددة التي حددت مسئولية مصر العربية ، واعتبرت قضية فلسطين قضية عربية قومية ، وسعت لتحرير جميع الأراضي العربية المحتلة ••• الجولان والضفة الغربية وقطاع غزة والقدس قبل سيناء — على حد تعبير عبد الناصر في أكثر من خطاب — مع الحفاظ على أصل القضية وعلى حقوق شعب فلسطين •

وأوجز عبد الناصر التعبير عن مجمل جهده في سطرين من بيان ٣٠ مارس عام١٩٦٨ حيث اقترح :

« أن ينص الدستور على تحقيق وتأكيد الانتماء الى الأمة العربية تاريخيا ونضاليا ومصيريا ، وحدة عضوية ، فوق أي فرد ، وبعد أي مرحلة » •

من هذا العرض لجهد عبد الناصر قائد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ في مجال تأكيد حقيقة عروبة مصر ، يمكننا أن نلاحظ ثلاث ملاحظات هامة عليه •

أولا ــ أن توجه مصر العربي اصبح في ظل السلطة الثورية سياسة اصيلة لا تخضع للمناورات التكتيكية ــ كما كان الامر قبل الثورة ــ كما أصبحت تعبيرا عن ارادة الشعب وتأكيدا لحقيقة انتمائه . وهكذا أصبحت عروبة مصر في هذه السياسة هي بحق الطبيعةنفسها وكما اوضحعبدالناصر في خطابه في العيد الثالث عشر للثورة .

« ... عروبة مصر ليست مسألة سياسية ، ولامسألة تكتيكية وانما عروبة مصر قدر ووجود وحياة . لا بد أن احنا نعرفه ونحطه في نفسنا » .

ثانيا ــ ان توجه مصر العربي كسياسة أصيلة لا يرتبط بفرد ولا يقف عند مرحلة. تماما كما ان عروبة مصر حقيقية ثابتة « فوق أي فرد وبعد أي مرحلة » ولقد حرص عبدالناصر دوما على تثبيت هذا المعنى وترسيخه . وحرص على التقليل من شأنه هو كفرد في رسم هذا التوجه ، وهو أمر مفهوم منه ومحل تقدير عظيم . فهو يقول ــ كما ذكرنا ــ :

« المسألة ليست شخصية ... وليست خاصة بعبد الناصر أو بفلان أو علان .. الرسالة خاصة بكم أتم بالشعب .. لان هذه الرسالة هي الرسالة الطبيعية » ..

وهو يقول في مناسبة أخرى في فبراير ١٩٦٧ .

« .. عبد الناصر في هذا ليس الا ظاهرة بتأخذ وقتها وبتنتهي لكن الحقيقة اللي يبقى في هذا هو المبادىء اللي بنؤمن بها في كل بلد وفي كل مكان .

العملية ما هياش ابدا عملية شخصية ولاعملية متعلقة بي أنا .. ولكن ده عمل الامة العربية » .

والحق أن هذا المعنى الذي حرص عبد الناصر على تثبيته وترسيخه معنى سليم ويتفق مع النظرة التاريخية للثورة العربية ، وان كان البحث التاريخي يرى للفرد وللمرحلة تأثيرهما فيه . ومن هذه الرؤية يكون التقليل من شأن عبد الناصر كفرد ومن شأن فترته كمرحلة غير وارد الا منه هو . لأن التاريخ يسجل أن دور عبد الناصر القائد والبطل كان كبيرا وان عهده كان خصبا مفعما بتدفق الفكر القومي وبالحركة النضالية العربية .

ثالثا ـ أن توجه مصر العربي كسياسة اصيلة لا ترتبط بفرد ولا تقف عند مرحلة قامت على أسس علمية راسخة نبعت من الرؤية العلمية الثاقبة لماضي مصر وحاضرها ومستقبلها . فلم يقف هذا التوجه عند حد التعبير الساذج عن الارتباط العاطفي أو المشاعر الوطنية « الشوفينية » وانما تجاوز ذلك وأصلّه للتعبير عن الارتباط العقلي والمادي والروحي بما يعينه ذلك كله من الارتباط المصيري .

وعلى هذا الاساس انطلق هذا التوجه من وعي عميق لمكان مصر في المنطقة ودورها فيها ، ليعمل على بناء القاعدة الصلبة وليحقق تشييد القلعة الحصينة في المنطقة .

بناء القاعدة

« ان علينا هنا ان نبني القاعدة .. قاعـدة للتحرر العربي ، قاعدة للمستقبل العربي ، قاعدة للديموقراطيـة السليمة ، قاعدة للاشتراكية العربيـة ، قاعـدة للعدالـة الاجتماعية العربية » .

جمال عبد الناصر

اقترن حرص عبد الناصر على تأكيد حقيقة عروبة مصر بالعمل الدائب من أجل بناء مصر لتكون قاعدة النضال العربي الصلبة وقلعة الثورة العربية الحصينة . وانطلق عبد الناصر في عمله هذا من وعي عميق لموقع مصر في المنطقة ولمكانتها ودورها فيها .

وهكذا اعطى عبدالناصر لمصر اهتماما خاصا ، وبذل لها جهدا كبيرا ، تعبيرا عن هذا الوعي العميق لمكانها ودورها ، ولانه ايضا تحمل بالثورة مسؤولية السلطة فيها فأصبح مطلق الارادة في العمل الثوري يقف وجها لوجه امام التجربة والممارسة العملية .

والحق أن عبد الناصر شغل منذ الايام الاولى لثورة ٢٣ يوليو بالتفكير في بعد المكان بالنسبة لمصر ، وخصص في فلسفة الثورة الجزء الثالث والاخير للحديث عن عنصر المكان . لأن المكان « يفرض علينا حقيقته » . ووصل عبد الناصر في تفكيره الى ان العزلة مستحيلة في عالم اليوم ، وحدد مكان مصر على الخارطة بأنه مركز دائرة عربية وفي قارة افريقيا وفي عالم اسلامي ليتحدد تبعا لذلك الدور ، « وان القدر لا يهزل » .

« فليس عبثا ان بلدنا في جنوب غربي آسيا يلاصق الدول العربية (في المشرق) وتشتبك حياته بحياتها .

« وليس عبثا ان بلدنا يقع في شمال شرق افريقيا ، ويطل من على القارة السوداء التي يدور فيها اليوم اعنف

صراع بين مستعمريها البيض واهلها السود من اجل مواردها التي لا تحد .

« وليس عبثا ان الحضارة الاسلامية والتراث الاسلامي الذي أغار عليه المغول الذين اكتسحوا عواصم الاسلام القديمة ـ تراجع الى مصر وآوى اليها فحمته مصر وأنقذته عندما ردت غزو المغول على اعقابه في عين جالوت » .

وهكذا وصل عبدالناصر الى تصور الدور الهائم في هذه المنطقة الباحث عن البطل الذي يقوم به ، تماما كما في مسرحية بيراندللو « ست شخصيات تبحث عن مؤلف » ووصل الى أن هذا الدور استقر على حدود مصر .

« يشير الينا ان نتحرك . وان ننهض بالدور ونرتدي ملابسه فان احد غيرنا لا يستطيع القيام به » .

وبيّن عبد الناصر طبيعة هذا الدور .

« وابادر هنا فأقول انالدور ليس دور زعامة انما دور تفاعل وتجاوب مع كل هذه العوامل ، بل يكون من شأنه تفجير الطاقة الهائلة الكافية في كلاتجاه منالاتجاهات المحيطة فيها ، ويكون من شأنه تجربة لخلق قوة كبيرة ترفع من شأن نفسها وتقوم بدور ايجابي في بناء مستقبل البشر » .

وانطلق عبدالناصر من هذا الفهم ومن هذا الوعي لمكان مصر

ودورها ؛ للعمل في بناء القاعدة على ارضها • وقبل انستعرض الخطوات والاعمال التي قام بها في هذا المجال ، نستشعر ضرورة تسليط مزيد من الضوء على مصر « المكان والدور » والحديث هنا متصل اتصالا وثيقا بالجغرافية السياسية • وقد تناوله جمال حمدان في كتابه القيم « شخصية مصر » فأبان وأوضح ، كما تناوله باحثون آخرون • وسنقتصر هنا من هذه الدراسات المستفيضة على ما يقتضيه بحثنا •

فبالنسبة للمكان ••• هناك موقع مصر الجغرافي يأتي ليمنحها المزيد من التفرد على الاجزاء العربية الاخرى كما يلاحظ حمدان « وابرز ما في هذا الموقع انه كالقلب من الجسم ، واسطة العقد ، وهمزة الوصل بين آسيا العربية وافريقيا العربية • واذا كان المتفق عليه انمصر جزء من المشرق العربي وانكان البعض رآها تجمع ما بين المشرق والمغرب ، فانها هي التي « قدمت » المغرب العربي الى المشرق تاريخيا وجغرافيا •• ونحن اذا نظرنا الى هيكل النمط العمراني الفعلي في الوطن العربي ، فسنجد مصر فيه كالعقدة البشرية ؛ فعندها وحدها تلتحم دراعا العروبة في افريقيا — المغرب والسودان — بالحلقة السعيدة التي تطوقالمشرقالعربي » وننظر في موقع مصر في العروبة فنجد مع حمدان انه يتميز بصفة هامة •

« فمصر من الدول العربية القليلة التي لا حدود لها مع غير العرب •

فهذا العمق الجغرافي لم يمنحها الأمن والسلامة الاستراتيجية فحسب ؛ بل جعلها طوال التاريخ تتعامل وتتفاعل مع عرب وعروبة ، بعكس اطراف العالم العربي نفسه حيث تعرضت للمؤثرات الاجنبية المتاخمة فثمة مؤثرات التهنيد في كل الجنوب العربي ، ومؤثرات التعجيم في الخليج العربي ؛ والتتريك في تخوم سوريا ، وثمة كانت اخطار الصبغة الاسبانية في هوامش المغرب ؛ وبالمثل المؤثرات الزنجية في السودان •

ولكن من كل هذا ومثله نجت مصر بحكم أنها دائما جزيرة عربية يحيط بها العرب من كل الجهات ومن هنا وسواء عد التاريخ عاملا من عوامل الترشيح اومن عوامل التكثيف ، فان مصر تزداد عروبة وعروبتها تزداد عمقا وكثافة ..

وعدا هذا ، فمن نفس هذه الحقيقة تنبع حقيقة اخرى لا تقل خطرا ودلالة ... فمصر وحدها تقريبا هي التي امتصت وتمثلت واستوعبت عناصر وعينات من كل الشعوب العربية او معظمها » ..

وهناك أيضا الموضع .. وما تتميز به مصر وتنفرد في الوطن العربي موضعا .

« فأول ما تنفرد بهمصر الضخامة ، ضخامة الحجم التي تجعل منها حجرا شامخا ، وهي حقيقة ادركها وأحس بل دائما جيرانها طوال التاريخ قديما وحديثا . فمصر وحدها اليوم ثلث العرب أو انقص منه قليلا ... وهي بهذا تفوق أيا من المغرب العربي الكبير كله او آسيا العربية ...

ولكن مصر لا تستمد ثقلها من الحجم الخام وحده ، بل ومن تجانسها الشديد . فهي ليست حجرا ضخما فقط بل انها حجر وحيد الى ذلك كما قلنا ... فوحدتها الجنسية واللغوية مطلقة ، واقليتها الدينية تعد محدودة ... والكل يؤلف وحدة وطنية .

والنتيجة المنطقية لهذا كله انمصر مركز الثقل الطاغي وقطب القوة في العالم العربي ينتشر ظلها وشبه الظل بل والصدى بعيداً في آفاقه ... من هنا كانت مصر اكثر من عضو ضخم في الجسم العربي ، انها رأس ، ورأس موح مؤثر ، ثم هي جهاز عصبي مركزي فعال .

وهي في الحالة الاولى بمثابة جير وسكوب العالم العربي الذي يرسي سفينته في وجه العواصف الخارجية ويمنحه من وزنه ليمنع تميعه او ضياعه بين الضغوط والاغراءات • وهي في الثانية كبوصلة العالم العربي الذي تتحسس نبضه وترصد تيارات العالم ثم تحدد اتجاه القافلة » (١) •

وبالنسبة للدور •• فبحكم المكان تحدد الدور في المنطقة • وكما يقول حمدان « بحكم هذا الموقع كانت مصر دائما ملتقى العرب ومجمع الاسرة ، وأحيانا ملجأ وملاذا وخط دفاع اخير عن التراث العربي •• وفي كل الحالات كانت تلعب دور المنار للاسلام – ودور المنبر للعروبة •• وتحتمت على مصر باتنظام مسؤولية الحماية والدفاع عن العروبة ، ابتداء من الصليبيات والتتار حتى الاستعمار الاوروبي الحديث والاستعمار الصهيوني الأحدث • ومن حسن الطالع وتمام التوفيق ان نهضت مصر بتلك المسؤوليات وكانت عند حسن ظن العرب ، فحفظت عليها عروبتها واسلامها وكيانها ضد غزاة العصور الوسطى ، وردت لها اعتبارها ورفعت قامتها في وجه غزاة الامس القريب ، وهي الان تتأهب لاستئصال السرطان الصهيوني » •

وهكذا كان دور مصر في الوطن العربي دور قيادة وريادة • ومع أن عبد الناصر حرص على تجنب كلمة زعامة في وصف الدور ، تحسبا مما يثيره اللفظ من حساسيات وقطعا لطريق استغلال القوى المعادية له ، الا ان الباحثين يصلون من دراساتهم الى اثباته •• فهذا ساطع الحصري يقول في دور مصر « لقد زودت الطبيعة مصر بكل الصفات والمزايا التي تحتم عليها ان تقوم بواجب الزعامة والقيادة في انهاض القومية العربية لانها

---

(١) جمال حمدان : شخصية مصر ، ص ٢٣٦ – ٢٤٠ •

تقع في مركز البلاد العربية بين القسمين الافريقي والاسيوي منها، كما انها تكون اكبر كتلة من الكتل التي انقسم اليها العالم العربي بحكم السياسة والظروف ... وكل ذلك من الموقع الجغرافي الى الكثرة والثروة العامة ومستوى الثقافة وتشكيلات الدولة .. مما يجعل مصر الزعيمة الطبيعية للقومية العربية » (١) .

وكان ساطع الحصري قد سجل هذا الرأي منذ عام ١٩٣٦ في مقال نشره . وكانت الكاتبة مي زيادة قد اثبتت هذا الرأي في كتابها « بين الجزر والمد » الذي صدر سنة ١٩٢٤ حين قالت « أصبحت مصر كعبة العالم العربي ، وحاضرته المعنوية فما لاح فيها نور الا استضاءت به الاقطار الاخرى ، ولا مضت في ارجائها صيحة الا اهتزت لها القلوب .. ولئن كان هذا مما يبعث في مصر عاطفة الاغتباط والفخار ، فهو كذلك يلقي عليها مسؤولية كبيرة .. » .

واذا كانت هذه الآراء عن دور مصر قد ظهرت قبل ثورة ٢٣ يوليو تعبيرا عن تأثير مكان مصر جغرافيا وتاريخيا وعلميا في الوطن العربي ، فانها تعززت وقويت بعد بروز القيادة العربية الواحدة في مصر ، وسلطت الضوء على مكان مصر ودورها . ولامجال هنا للاستشهاد التفصيلي ولكنا نكتفي بالاشارة الى بعض ما كتب عن دور مصر وزعامتها (٢) .

ان زعامة مصر في المنطقة اذن حقيقة ثابتة . وجمال حمدان يحدد

---

(١) ساطع الحصري : آراء واحاديث في الوطنية والقومية ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ١١٨ .

(٢) يراجع انيس صايغ في مفهوم الزعامة ، وعبدالله الطريقي في مجلة الطليعة يوليو ٦٦ ، ونديم البيطار ــ الآداب ، فبراير ٧١ .

المقصود بهذه الزعامة « فهي لا تعني طبقية اقليمية داخل العروبة ، وانما تعني اولوية بين اكفاء ، واسبقية لا رياسة في حلبة مفتوحة تظل تترك دار العرب « مائدة مستديرة » • انها انما تعني دور قائد الاوركسترا ، تعني الشقيقة الكبرى اكثر منها حق وراثة الابن الاكبر •• وهذه الزعامة لا يمكن ان تكون تشريفا او تخليدا ، بل هي تكليف وتقليد : تكليف من الجغرافيا وتقليد من التاريخ ••• انمصر لا يمكن الا ان تكون النواة النووية في الوحدة العربية [1] •

واضح ان هذا الحديث عن مكان مصر في المنطقة ودورها فيها انما ينطلق من منطلق قومي ينظر الى المنطقة ككل متكامل • ولذا فان هذا الحديث لا يتناقض بل ينسجم انسجاما كاملا مع حقيقة وحدة الوطن العربي لأن اجزاء الوطنالعربي تشترك فيما بينها في كثير منالسمات والخصائص • وقدفصل حمدان الحديث عن هذا الجانب في دراسته • ولكنها ضمن هذاالاشتراك تتمايز فيما بينها محققة نوعا منالتكامل ، فيتحدد من ثم لكل جزء دوره في اطار المجموع بحكم موقعه وموضعه وثقله •

وواضح من هذا الحديث عن دور مصر انه تحدد بحكمتفاعلعنصري المكان والزمان منذ القديم • أي انه قائم قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وقبل تولي عبد الناصر السلطة في مصر ، وسيبقىهذا الدور قائما بعد عبدالناصر ولقد كان سر عظمة عبدالناصر انه وعى بعمق حقيقة الدور فانطلق ليعبر عنه وعن المرحلة التاريخية التي تمر بالمنطقة • وذلك هو دور البطل في التاريخ • وستظل مسؤولية فهم حقائق المكان والدور ووعيهما بعمق في

---

(١) جمال حمدان ، المصدر نفسه ، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٦ •

الوطن العربي واقعة على كاهل الطلائع العربية التـي قادها عبد الناصر • وسيكون على هذه الطلائع ان تناضل بدأب لتمكـين مصر من القيـام بدورها ، لان محاولات عزل مصر التي سيدأب الاعداء على القيام بها انما تستهدف النيل من مصر والوطن العربي في وقت واحد •

وعى عبد الناصر مكان ودور مصر في منطقة الوطن العربي ، فانطلق أثر تفجير ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ يبني مصر لتكون القاعدة الصلبة والقلعة الحصينة • وكان عليه كي ينجز هذا العمل الكبير ان يبذل الكثير • فقد عانت مصر آنذاك من ادواء عدة تنخر في جسمها ، وتعطـل طاقاتها فتمنعها من القيام بدورها • وعانى شعب مصر العربي من الواقـع الفاسد الـذي استشرى في مصر • ولقد اوجز الميثاق واقع الشعب آنذاك •

« لقد كان الغزاة الاجانب يحتلون على ارضه وبالقرب منه القواعد المدججة بالسلاح ترهب الوطن المصري وتحطم مقاومته •

« وكانت الاسرة المالكة الدخيلة تحكم بالمصلحـة والهوى وتفرض المذلة والخنوع •

وكان الاقطاع يملك حقوله ويحتكر لنفسه خيراتها ولا يترك لملايين الفلاحين العاملين عليها غير الهشيم الجاف المتخلف بعد الحصاد •

وكان رأس المال يمارس ألوانا من الاستغلال للثورة المصرية بعد ما استطاع السيطرة على الحكم وترويضـه لخدمته •

ولقد ضاعف من خطورة المواجهة الثورية لهذه القوى ، المتحالفة مع بعضها وضد الشعب ، انالقيادات السياسية المنظمة لنضال الجماهير قد استسلمت واحدة بعد واحدة ، واجتذبتها الامتيازات الطبقية وامتصت منها كل قدرة على الصمود ، بل واستعملتها بعد ذلك في خداع جماهير الشعب تحت وهم الديموقراطية المزيفة •

وحدث نفس الشيء مع الجيش الذي حاولت القوى المسيطرة على مصالح الشعب ان تضعفه منناحية وانتصرفه من ناحية اخرى عن تأييد النضال الوطني بل وكادت ان تصل الى استخدامه في تهديد النضال وقمعه » •

والحق ان هذا الحديث الموجز يتضمن في طياته تفاصيل طويلة ترسم ملامح الصورة المؤلمة التي كان عليها انواقع الفاسد المستشري في مصر • ولا يتسع مجالنا هنا لشرح التفاصيل ونكتفي بالاشارة الى الدراسات التي عرضت لها (١) •

ولقد جابه عبد الناصر هذا الواقع الفاسد بالثورة ، وطرح في مواجهته المبادىء الستة التي اعلنتها الثورة في ايامها الاولى و « التي نحتتها ارادة الثورة من مطالب النضال الشعبي واحتياجاته » • وكما اوضح الميثاق :

---

(١) تراجع الطليعة عدد يوليو ١٩٦٥ وكرانجيا : كيف نجح عبد الناصر ، واحاديث عبد الناصر في اللجنة التحضيرية للميثاق ، وفي مجلس الامة عام ١٩٦٤ والاعداد الخاصة التي صدرت بمناسبة وفاته في المجلات العربية .

« في مواجهة جيوش الاحتلال البريطاني الرابضة في منطقة قناة السويس كان المبدأ الاول هو : القضاء على الاستعمار واعوانه من الخونة المصريين •

في مواجهة تحكم الاقطاع الذي يستبد بالارض ومن عليها كان المبدأ الثاني هو : القضاء على الاقطاع •

في مواجهة تسخير موارد الثروة لخدمة مصالح مجموعة من الرأسماليين كان المبدأ الثالث هو : القضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم •

في مواجهة الاستغلال والاستبداد الذي كان نتيجة محتمة لهذا كله ، كان المبدأ الرابع هو : اقامة عدالة اجتماعية •

في مواجهة المؤامرات لاضعاف الجيش واستخدام ما تبقى من قوته لتهديد الجبهة الداخلية المتحفزة للثورة ،كان الهدف الخامس هو : اقامة جيش وطني قوي •

في مواجهة التزييف السياسي الذي حاول أن يطمس معالم الحقيقة الوطنية ، كان الهدف السادس هو اقامة حياة ديموقراطية سليمة » •

لم تكن هذه المبادىء الستة ـ كما هو واضح ـ نظرية عمل ثوري كاملة ، ولكنها كانت في تلك الظروف دليلا للعمل •• ويمكننا ان نلاحظ عليها ثلاث ملاحظات •

أولا : انالمبادىء الستة اختصت بقضايا داخلية وطنية ، ولمتتعرض

لاية قضايا قومية او دولية . فهي جميعها موجهة لبناء قاعدة الثورة في مصر وهي في هذا تعبير عن واقعية فرضت البدء بمصر باعتبارها الارض التي تفجرت عليها الثورة من جهة ، ولأنها الارض المؤهلة لأن تكون القاعدة والقلعة .

ثانيا : ان المبادىء الستة عبرت عن التوجه للجمع بين الثورتين السياسية والاجتماعية . هذا التوجه الذي شرحه عبد الناصر في فلسفة الثورة حين تحدث عن الثورتين والعيش فيهما معا .

ثالثا : ان المبادىء الستة حملت في طياتها بذور التطور لبلورة اهداف الثورة والوصول « الى برنامج تفصيلي يفتح طريق الثورة الى اهدافها اللامتناهية » من خلال التجربة والممارسة وبالتفاعل الحي مع التاريخ القومي . فسرعان ما سيؤدي هذا التفاعل وخاصة بالنسبة للمبدأ الاول : مبدأ القضاء على الاستعمار الى رؤية قومية واضحة متبلورة تؤكد وحدة المصير العربي ومن ثم سيؤدي الى رؤية انسانية عالمية محددة .

القضاء على الاستعمار

وننظر فيما عملته ثورة ٢٣ يوليو من اجل بناء القاعدة في مصر ••

فنجدمنذ البدايةايضا نضالا دائبا لتحرير مصر منالوجود الاستعماري فيها ، يرتكز على تصميم لا يلين •• ولقد كان المبدأ الاول من مبادىء الثورة الست هو « القضاء على الاستعمار وأعوانه من الخونةالمصريين »• وقد اعلنته الثورة في مواجهة جيوش الاحتلال البريطاني الرابضة في منطقة قناة السويس • وكانت مصر قد عانت من الاستعمار البريطاني المباشر معاناة شديدة منذ عام ١٨٨٢ وعلى مدى سبعين عاما • وقد جاء احتلال بريطانيا العسكري في ذلك العام ضمانا لمصالح الاحتكارات المالية الاجنبية التي نفذت الى مصر قبل ذلك وركزت نشاطها في استثمارين ضخمين هما زراعة القطن وحفر قناة السويس • وعاشت مصر خلال فترة الاستعمار البريطاني تجربة مروعة استنزفت فيها كل امكانات الثروة الوطنية لصالح القوى الاجنبية ، وبرزت خلالها أبشع أساليب التسلط الاستعماري • ولقد جابه الشعب العربي في مصر بكلقواه المستعمر المحتلفقام بالانتفاضة تلو الانتفاضة ، ولم تعرف روح الشعب الاستسلام • وهكذا سجل تاريخ تلك الفترة في مقابل اعمال التسلط الاستعماري البريطانية اروع صور النضال الشعبي •

وحين قامت الثورة كانت مصر لا تزال تعاني من وجود ثمانين ألف جندي بريطاني مسلح على ضفتي قناة السويس يرهبون ارادتها • وكانت مقاومة الشعب قد تألقت مرة اخرى في منطقة القناة عام ١٩٥١ • وجاء عبد الناصر الى الحكم وقضية الشعب الاولى •• قضية الجلاء تستولي

عليه ، فباشر العمل لها • وكان عبد الناصر قد اختزن في داخله كل كراهية الشعب للاستعمار وبلور في ضميره تطلع الشعب المتحرير ونلاحظ ذلك في جميع خطاباته وأعماله • ففي أول خطاب عام له بعد الثورة حين تحدث الى شباب الجامعة في ذكرى شهداء الجامعة يوم ١٥ نوفمبر ١٩٥٢ أعلن هدف الثورة في القضاء على الاستعمار وشرح كيف رسخ هذا الهدف في نفسه •

« لقد كان شباب الجامعة دائما في مقدمة الذين رفعوا علم النضال والكفاح ضد الظلم والاستعمار • وقد كنت طالبا بالمدارس الثانوية اجعل خطاي تسير مع خطى الجامعة ، فأصابتني في مثل هذا اليوم من سبعة عشر عاما اثناء اشتراكي في المظاهرات ضد الاحتلال ما اصاب الكثيرين من المكافحين في سبيل استقلال البلاد وتحريرها• وقد تركت اصابتي أثرا عزيزا لا يزال يعلو وجهي ، فيذكرني كل يوم بالواجب الوطني الملقى على كاهلي كفرد من أبناء هذا الوطن العزيز •

وفي هذا اليوم وقع صريع الظلم والاحتلال المرحوم محمد عبد المجيد مرسي فأنساني ما أنا مصاب به ، ورسخ في نفسي ان علي واجبا افنى في سبيله أو اكون أحد العاملين على تحقيقه حتى يتحقق ، وهذا الواجب هو تحرير الوطن من الاستعمار وتحقيق سيادة الشعب » ••

وأكد عبد الناصر هذا الهدف فيخطابهيوم ٣٢ ديسمبر ١٩٥٢ مواصلا اياه ومتتبعا جذور ثورة ٢٣ يوليو منذ أن ثار شعب مصر العربي على الاحتلال البريطاني ، وهو المعنى الذي ورد في فلسفة الثورة ثم فصله

الميثاق في حديثه عن جذور النضال المصري . وكم تتجلى كراهية عبد الناصر للاحتلال البريطاني في خطابه هذا الذي يقول فيه :

« قد يحدد الناس تاريخ الثورة المصرية التي قام بها الجيش ممثلا للشعب باليوم الثالث والعشرين من يوليو ١٩٥٢ . والواقع ان هذا التاريخ مجافاة للواقع لانه لم يكن الا آخر مراحل الثورة . أما أولى مراحلها ... فقبل سبعين عاما واثني عشر يوما قبله . ففي ١١ يوليو ١٨٨٢ خرجت الاسكندرية الوادعة بمدافع العدوان البريطاني ، ثم كان الاحتلال البغيض ، واشتعلت مصر ثائرة .. ولكن الثورة لم تحقق أهدافها .. وكان لا بد لها من أن تعبر حتى تنمو مع الايام ، حتى اذا اصبحت مكتملة قادرة على ان تقوم بعمل ما لم تتردد في القيام به لقد حددت الثورة اهدافها منذ اليوم الاول لمولدها « لا بد من تحرير مصر .. لا بد من جلاء قوات الاحتلال ... » .

وبعد ان يستعرض عبدالناصر في خطابه هذا نضال الشعب عبر السنين السبعين ويشرح مختلف ابعاد ثورته يختم حديثه قائلا :

« وبهذا تؤمن الثورة انها تستطيع ان تحقق اهدافها تحرير مصر لمصر ولشعب مصر » .

وتتالت تصريحات عبد الناصر مؤكدة على ضرورة جلاء القوات البريطانية عن منطقة القناة . وتتالت اعمال الثورة في الشهور الستة الاولى مهيئة الجو مع التصريحات لمباشرة الخطوات العملية بلوغا لهدف الجلاء . ففي ٣٠ يناير ١٩٥٣ أعلن عبد الناصر :

« انالجلاء الكامل شرط لتحسين العلاقات مع
بريطانيا • وان سياسة بريطانيا في الاعوام السبعة الاخيرة
أثارت ريبة في نفوس المصريين » •

وخاضت الثورة تجربة اولى في المفاوضات مع بريطانيا حول مستقبل السودان اظهرت فيها اتساع الافق • فتم في ١٢ فبراير ١٩٥٣ توقيع الاتفاق المصري البريطاني بشأن السودان ، والذي يضمن لشعب السودان حق تقرير مصيره • ولكن المفاوضات حول الجلاء كانت تبدو صعبة لأن بريطانيا كانت متمسكة بالتواجد العسكري في القناة وتتصرف بمنطق الاستعمار القديم • ولأن البريطانيين ــ كما اوضح ناتنج ــ « لم يكونوا قد حددوا ماذا يريدون في مصر فضيعوا على أنفسهم فرصة انهاء احتلالهم للقناة » [1] •

واتجهت الثورة الى المفاوضة مع بريطانيا حول الجلاء من موقع الوضوح الكامل في حتمية الجلاء ومن موقع الوعي الكامل من ان الجلاء لن يتم الا بالقوة •

ورفع عبد الناصر شعار الثورة المعبر عن توجهها هذا حين خطب في شبين الكوم يوم ٢٣ فبراير وقال كلمته الشهيرة :

« على الاستعمار ان يحمل عصاه على كاهله ويرحل
أو يقاتل حتى الموت دفاعا عن بقائه » •

كما شرح هذا التوجه بافاضة في حديثه لمراسل جريدة الاوبزرفر البريطانية يوم ١٣ أبريل ١٩٥٣ •

---

(١) ناتنج ــ العرب ، ص ٣٧٥ •

« ان مصر لن تتردد في بدء المحادثات مع بريطانيا في سبيل الوصول الى حل عادل عملي لمسألة قناة السويس ولكن يجب التسليم معها مقدماً بأننا لن نبحث في اتفاق يشمل الشرق الأوسط ، وانما نعني بقولنا « نريد بلوغ حل عادل » الجلاء عن منطقة القناة » .

وبعد أن أدان عبد الناصر في حديثه التسويف البريطاني اوضح صراحة تصميم الثورة :

« .. ان كل ما نقوله هو اننا سنناضل بكل ما أوتينا من قوة حتى وان اقتضى النضال اراقة الدماء .. وستكون تضحياتنا بالغة اذا ما ارغمتمونا على هذا النضال ، ونحن نعرف اننا لن نستطيع ان ندمر الجيش البريطاني ولكننا نعرف ايضا ان في امكاننا ان نجعل مركز بريطانيا في مصر معدوم الفائدة لها ولحلفائها على السواء » .

كما أوضح عبد الناصر بصراحة أيضا رفض الثورة ، ربط مصر بأحلاف الغرب وما يسمونه « الدفاع عن الشرق الاوسط » كشرط لتحقيق الجلاء . ويلاحظ من خلال تحرك عبد الناصر في تلك الفترة بروز ما تميز به في تحركه السياسي من وضوح مبدئي ومرونة في الحركة وكفاءة دبلوماسية .

ودخلت الثورة المباحثات الرسمية مع بريطانيا حول الجلاء في ١٧ أبريل ١٩٥٣ . وسرعان ما اعلن عبد الناصر في ٦ مايو وقف المباحثات من جانب مصر لأن المفاوض البريطاني لجأ الى أساليبه القديمة التي خبرها وعانى منها شعب مصر طويلا ــ وقد شرحها شرحا وافيا شفيق غربال في

كتابه القيم تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ـ وقامت بريطانيا بسحب سفيرها من مصر يوم ٢١ مايو ، فتجسد الموقف لفترة .

وعملت الثورة خلال هذه الفترة على عدة مستويات لتخوض الجولة التالية . فقامت داخليا بعدد من الخطوات الهامة كان منها قرار مجلس الثورة باجراء تعديل وزاري يوم ١٨ يونيو والغاء النظام الملكي واعلان الجمهورية واستهدفت هذه الخطوات بلورة السلطة . وقامت عربيا بالتوقيع على معاهدة الدفاع المشترك بين الدول العربية في ١٧ يونيو . وكانت هذه الخطوة تقطع الطريق على الغرب بالنسبة لدعوى الدفاع عن الشرق الاوسط .

وقامت الثورة بتكوين كتائب الفدائيين وتدريبهم ، وباشرت هذه الكتائب نضالها وذكر سلوين لويد في مجلس العموم البريطاني انه « في ستة شهور بلغت الحوادث في القاعدة ١٥٠٠ حادثة » . ووجد الجيش البريطاني نفسه محاصرا بالعداء . وبدا واضحا ان قوات الاحتلال لن تتمكن من ان تعيش حياة مستقرة . وفي ٢٩ نوفمبر من ذلك العام صدر قرار بحظر التعامل وتداول المواد الغذائية مع القوات البريطانية في مصر ، فأحكم الحصار على قوات الاحتلال . واعلن عبد الناصر في طنطا يوم اول يناير ١٩٥٤ :

« ان الاستعمار لن يخرج بالكلام ولكن بالقوة » ..

وكان قد اعلن في ١٤ يونيو ١٩٥٣ بالاسكندرية :

« اننا نكون جيشا كبيرا يضم ٢٢ مليونا من المصريين
وهو قادر على اخراج المستعمر من البلاد .. واننا نوزع

السلاح في جميع انحاء البلاد .. اننا نعمل على تدريب جميع ابناء مصر ولن يستطيع المستعمر انيبقى في بلادنا الا بعد القضاء علينا .. ولن يستطيع الانجليز ان يقضوا على ٢٢ مليونا » .

وحاولت بريطانيا ان تؤلب الرأي العام الدولي على مصر ، فتحركت في مجلس الأمن لاتخاذ قرار يلزم مصر بالسماح لاسرائيل بالمرور من قناة السويس في ٨ فبراير ١٩٥٤ ، فقابلت الثورة المناورة البريطانية بالرفض الحاسم متمسكة بحق مصر في اعتبار القناة جزءاً من اراضيها تمارس عليه سيادتها الكاملة . كما رفضت يوم ٢١ مارس المشروع النيوزلندي المعروض على مجلس الامن والخاص بمطالبة مصر بوقف تفتيش السفن التي تعبر قناة السويس واحالة مشكلة خليج العقبة الى لجنة الهدنة . ورد عبد الناصر على ايدن في ٢٤ مارس بأن المفاوضات لن تستأنف الا على أساس التسليم بحقوق مصر كاملة .

واضطرت بريطانيا أمام اصرار الثورة ونتيجة سوء الأوضاع التي تحيط بقواتها في القناة الى التسليم بحقوق مصر كاملة . واضطر ايدن — وزير الخارجية البريطانية آنذاك — الى ان يعترف بأن الجلاء عن قاعدة السويس « افضل بكثير من الابقاء على ثمانين الف جندي محاصرين من شعب معاد لهم » . وهكذا حزمت بريطانيا امرها على ان تستعيض عن قواعدها المركزة في القناة بجيوب صغيرة حول البحر المتوسط (١) . واستؤنفت مفاوضات الجلاء يوم ١١ يونيو ١٩٥٤ بين الجانب المصري برئاسة جمال عبد الناصر وبين الجانب البريطاني برئاسة انتوني ناتنج .

---

(١) ناتنج — العرب ، ص ٣٧٦ .

وفي ٢٧ يوليو تم التوقيع بالاحرف الاولى على اتفاقية الجلاء وصدر بلاغ مشترك بذلك . واعلن عبد الناصر يوم ٢٩ يوليو ان الاتفاقية ليس فيها تحالف عسكري ولا دفاع مشترك ، وهي لا تعدو ان تكون مجرد مرحلة من مراحل البناء . وأوجز عبد الناصر ما حققه في هذه المرحلة من خلال الاتفاقية فقال في ٢٦ يوليو ١٩٥٤ :

« اننا كنا نهدف الى هدفين اولهما الجلاء الكامل لجميع القوات الاجنبيةحتى لا تتواجد في هذه البلاد سوى البذلة العسكرية المصرية . والهدف الاخر هو عدم الارتباط بأي حلف أو معاهدة للدفاع المشترك . وأنا أقول اننا نجحنا في تحقيق هذين الهدفين » .

ولقد تم في ٢٨ سبتمبر ١٩٥٤ تعيين اول قائد مصري لقاعدة قناة السويس كما تم توقيع اتفاقية الجلاء في ١٩ اكتوبر من ذلك العام . وقد نصت الاتفاقية على جلاء القوات البريطانية جلاء تاما عن الاراضي المصرية خلال فترة عشرين شهرا من تاريخ التوقيع على الاتفاق ، وعلى انقضاء معاهدة ١٩٣٦ ، وانتقال ملكية جميع المطارات والمنشئات الى مصر ، وان قناة السويس البحرية جزء لا يتجزأ من مصر ، وان الاتفاق يظل نافذ المفعول لمدة ٧ سنوات بعد توقيعه . كما نصت الاتفاقية على انه في حالة وقوع هجوم مسلح من دولة من الخارج على أي بلد يكون طرفا فيمعاهدة الدفاع المشترك بين دول الجامعة العربية او على تركيا ، فان مصر تساعد بريطانيا على تهيئة (القاعدة) الحربية وادارتها ادارة فعالة . وكان هذا النص هو الشرط الذي سرعان ما تحلل عبد الناصر منه وألغى الاتفاقية بكاملها اثر العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ . وسرعان ما استولت مصر على نصف القواعد البريطانية ، وسمحت للنصف الباقي أن يدار من قبلمدنيين بريطانيين حتى يتم الانسحاب كاملا .

وانتهت المرحلة الاولى للجلاء يوم ١٨ فبراير ١٩٥٥ ، وتم خلالها رحيل ٢١ ألف جندي بريطاني من منطقة القناة ورفع عبد الناصر يوم ٢٢ مارس العلم المصري فوق معسكر « الشلوفة » بمنطقة القناة لأول مرة منذ ٧٣ عاما • وفي ١٩ يونيو ١٩٥٥ انتهت المرحلة الثانية من جلاء القوات البريطانية وتم تسليم مصر ١٥ منشأة في منطقة القناة • وفي ١٣ يونيو ١٩٥٦ تم جلاء آخر فوج من القوات البريطانية عن مصر ، فيما عدا (القاعدة) بمنطقة القناة • ورفع عبد الناصر علم مصر في يوم الجلاء ١٨ يونيو ١٩٥٦ على مبنى البحرية ببور سعيد في لحظة وصفها بأنها :

« كانت لحظة العمر • بل كانت العمر كله • وقدر لهذا الجيل ان يشهد بعينيه فلول المحتل الغريب تتسلل خارجة عائدة من حيث أتت » •

وهكذا نجحت الثورة في تحقيق جلاء قوات الاحتلال •• الحلم الذي عاشه الشعب وناضل من اجله • وأصبح يوم ١٨ يونيو يوما خالدا في تاريخ مصر واصبح أسلوب عبد الناصر في مجابهة المستعمر مثلا يحتذى في الوطن العربي والعالم الثالث •• هذا الاسلوب الذي يرفض المساومة على المبدأ وعلى حق الشعوب في حرياتها ولقد قارن عبد الناصر بين منطلقه وأسلوبه في معركة الجلاء التي خاضتها الثورة وبين منطلق الرجعية الحاكمة في مصر قبل الثورة واسلوبها حين فاوضت الانجليز المرة تلو المرة ، فقال في اللجنة التحضيرية نوفمبر ١٩٦١ :

« بدأنا أول معركة من اجل تنفيذ الهدف الاول من اهداف الثورة •• القضاء على الاستعمار وأعوانه • وكان معناه ان ندخل مع الانجليز في معارك مستمرة سواء من الناحية السياسية او في منطقة القناة اذا دعا الأمر الى حرب

العصابات . دخلنا معارك مع الانجليز من أجل الجلاء ، معارك مع الانجليز من أجل الاستقلال . كان أيه موقف الرجعية واحنا نجابه الانجليز سواء من الناحية السياسية او نجابههم في منطقة القنال ؟

الرجعية كانت دايما متخوفة ، والرجعية كانت دايما تعتقد بأن المساومة هي السبيل الوحيد للحصول على اتفاق بأي طريق كان مع الانجليز . والثورة الاصيلة لا يمكن بأي حال ان تعرف المساومة ...

وأنا أذكر اول ايام الاتفاق مع الانجليز .. شفت ناس من اللي كانوا بيتعاونوا مع الانجليز .. عبود كان بيقول لي يعني انت صغير يا جمال بك انت مش عارف الانجليز ابدا . الانجليز دول دوخوا الدنيا ، ازاي احنا نقف قصاد الانجليز اذا كنت بتتفاوض مع الانجليز ما تنساش ان دول الانجليز اللي كسبوا الحرب ودوخوا المانيا .. السياسيين الآخرين بيعتبروا ان منطق المساومة هو المنطق المفروض . كانت الرجعية لغاية دلوقت بتعتقد ان السفير الانجليزي او السفير الاميركي يستطيع ان يؤثر او يكون له دخل في الوزارة » .

ارتبط نضال الثورة لتحقيق الجلاء بنضالها ضد الاحلاف الاجنبية، ليتحقق فعلا ومضمونا مبدأ الثورة الاول .. القضاء على الاستعمار . ولقد لاحظ عبد الناصر منذ بداية تصديه للاستعمار ارتباط معركة الجلاء بمعركة أسقاط الاحلاف الاجنبية فخاض المعركتين في وقت واحد رافضا بحزم ما لجأ اليه الاستعمار في عدد من المستعمرات في الوطن العربي او العالم الثالث من منح استقلال صوري تقيده معاهدات وأحلاف تسلبه

معناه • وهكذا حدد عبد الناصر ضمن مبدأ القضاء على الاستعمار هدفين مترابطين هما « الجلاء الكامل لجميع القوات الاجنبية وعدم الارتباط بأي حلف او معاهدة للدفاع المشترك » •

وكان الغرب يعمل جادا على ربط منطقة الوطن العربي بنظام الاحلاف وكانت وزارة الخارجية الاميركية ــ كما اوضح جون كامبل ــ تريد « ان تنضم مصر الى نظام الاحلاف الغربية التي كان العمل فيها يجري على قدم وساق » (١) وقد أقر جون فوستر دالاس صاحب نظرية هذا الحزام تقديم قرض بأربعين مليون دولار الى مصر على هذا الاساس • وسرعان ما أتبعه بعرض للعون العسكري تطبيقا لما يسمى ببرنامج الأمن المتبادل • وقام دالاس بزيارة مصر وصرح في ١١ مايو ٥٤ انه يؤيد الجلاء على مصر تدريجيا مع تنظيم الاشراف الفني على قاعدة القناة معتقدا ان مصر ستنضم الى « حلف بغداد » الذي بدأ الغرب بتكوينه في عام ١٩٥٤ • وكانت اميركا ــ ودول الغرب عموما ــ تنطلق في الدعوة الى الاحلاف من الحديث عن « خطر شيوعي » يتهدد المنطقة و « والعالم الحر » • ويحدثنا « كامبل » في كتابه عن وجهة النظر الاميركية في الاحلاف فيقول « لا مجال للشك في « اهتمامنا » بالشرق الأوسط من أجل السلام والاستقرار ومن اجل القواعد ومصالحنا البترولية ومقاومة الشيوعية والمهم كيف تترجم هذا الاهتمام الى سياسة ؟ ويقول « ان سيطرة السوفييت على هذه المنطقة الاستراتيجية سوف يخل بشكل قوي بالتوازن العالمي • كما ان سيطرة السوفييت على بترول الشرق يمكن أن يخرب اقتصاد العالم الحر • وانتصار الشيوعية في قلب العالم الاسلامي من الممكن ان يكون سببا في

---

(١) جون كامبل ــ الدفاع عن الشرق الاوسط .
كرانجيا ــ كيف نجح عبد الناصر ...

انتصارها في آسيا وافريقيا واوروبا • ولـذا فانه لأمر أساسي بالنسبـة للولايات المتحدة ان يبقى الشرق الاوسط جزءا من العالم الحر » • ولكي يؤكد كامبل هذا الاهتمام يقول « ولكن حتى لو لم يوجد تهديد سوفييتي بالمرة فانه سيبقى في « هم » الولايات المتحدة ان تجد قواعد للتوفيق بين الحضارات الشرقية والغربية ولمنع صدمات الثورات ولخلق ظروف يمكن لمجتمعنا الحر فيها ان يتطور ويتقدم » • ويشرح كامبل بتفصيل نمـو الاهتمام الاميركي بالمنطقة مع نمو مصالحها فيها • ثم يحكي قصة مشروع « الدفاع المشترك » الذي وضعته بريطانيا واميركا عام ١٩٥١ •• ليجمع بين الدول العربية واسرائيل وايران • ويشرح اسباب فشله التي كان من اهمها رفض مصر له لخلافها مع بريطانيا حول الجلاء • ويبين كامبل ان الغرب عمد بعد ذلك الى طرح حلف بغداد ليكون بديلا عن مشروع الدفاع المشترك [١] •

وعى عبد الناصر بعمق حقيقة الاحلاف واهدافها الاصيلة فقاومها بعنف وطرح وجهة النظر العربية الثورية فيها معبرا عن ارادة الجماهيـر ومدافعا عن مصالحها القومية • فبالنسبة لمشروع الدفـاع المشترك قال عبد الناصر في ١٧ مارس ١٩٥٣ :

« ليفهموا ان الدفاع عن الشرق الاوسط يعني دول المنطقة اكثر من غيرهم ، ولن يستطيع شعب ان يرزح تحت نير الاستعمار ان يدافع عن استمرار هذا الاستعمار في وطنه بحجة تخوينه من اعتـداء آخر قـد يتعرض له هذا الشعب وقد لا يتعرض له •

---

(١) جون كامبل ــ الفصول : الاول والثالث والرابع •

« اننا نريد جلاء ناجزا غير مشروط ، ومتى استأصلنا شأفة الاستعمار من بلادنا ، فليطمئن الغرب الى أننا سنكون أحرص منهم مئات المرات بل آلافها على حريتنا واستقلالنا ؛ فاذا تعرضنا لاعتداء أيا كان مصدره فسنقف جميعا وقفة رجل واحد للذود عن حريتنا ... وفي هذه الحالة لن نتردد في محالفة الشيطان نفسه ــ كما قال زعيمهم تشرشل في الحروب الماضية ــ لرد هذا العدوان » .

وطوال فترة مفاوضات الجلاء وما تخللها من شد وجذب تمسك عبد الناصر برفض فكرة الأحلاف الأجنبية بالنسبة لمصر والدول العربية . واعلن بوضوح ان هذه الاحلاف ليست سوى استعمار مقنع . وقد صرح في ٣١ اغسطس ١٩٥٤ :

« ان الدول العربية لا يمكن ان تشترك مع الدول الغربية الكبرى في أي مشروع للدفاع عن الشرق الاوسط لأن شعوب هذه الدول ترى ان المنظمة ليست سوى استعمار مقنع » .

ووضح لعبد الناصر خلال معركته ضد الاحلاف ضرورة التحرك على المستوى العربي ليتعزز موقف مصر الثورة بموقف عربي عام واحد . ولأن حماية القاعدة يستوجب توفير منطقة دفاع حولها ، وانطلاقا عن الايمان بوحدة المصير العربي . وهكذا انعقد اجتماع عربي ضم رؤساء الدول العربية يوم ٢٢ يناير بالقاهرة لبحث السياسة التي اعلنتها الثورة بمعارضة الاحلاف العسكرية . وأصر نوري السعيد رئيس وزراء العراق وقتذاك على عقد حلف عسكري بين العراق وتركيا وايران وباكستان

وبريطانيا والولايات المتحدة ، ودعا الدول العربية للدخول فيه • ولكن مصر الثورة عارضت بقوة وأوضحت ان فكرة الاحلاف تمحو فكرة الجامعة العربية والضمان الجماعي العربي • واعلن عبد الناصر يوم ٢ فبراير ٥٤ :

« ان مصر ستعمل من اجل العرب ، ومن اجل قوتهم وقوميتهم • وهي ترفض سياسة ربط العرب بأي دولة أجنبية » •

كما وضح لعبد الناصر خلال تلك المعركة ــ ضرورة التحرك على المستوى الدولي ليتعزز الموقف العربي بموقف دول العالم الثالث • وفي هذا النطاق كان اجتماع جواهر لال نهرو زعيم الهند الكبير بعبد الناصر لأول مرة في القاهرة يوم ١٥ فبراير ١٩٥٥ • وقد تضمن البيان المشترك الذي صدر عن الاجتماع اعلان ان « الاحلاف العسكرية لا تكفل السلام في أي دولة ووجوب حل المشاكل الدولية عن طريق المفاوضات السلمية وتأييد الجهود التي تبذل لتحرير الشعوب » وزار نهرو القاهرة مرة ثانية في ١١ يوليو وصدر البيان عن اجتماعه بعبدالناصر يتضمن استنكار عقد حلف ــ تركيا ــ العراق • وفي هذا النطاق ايضا كانت مشاركة عبد الناصر في مؤتمر باندونغ الذي انعقد يوم ٢٤ ابريل ١٩٥٥ •• بأندونيسيا وضم ٢٩ دولة آسيوية وافريقية • ونادى عبد الناصر في المؤتمر بسياسة الحياد الايجابي وعدم الانحياز • وفي هذا النطاق ايضا اتجه عبدالناصر لكسر احتكار السلاح بعد ان اعلن يوم ٣١ مارس « اننا لم نصل الى نتيجة لشراء أسلحة من الغرب لأننا رفضنا أن تملى علينا شروط » • وفي ٢٧ سبتمبر من ذلك العام عقدت مصر صفقة الاسلحة مع تشيكوسلوفاكيا •

ولقد شرح عبد الناصر بافاضة ووضوح موقفه من الاحلاف وروى قصة الاجتماعات واللقاءات التي تمت في تلك الفترة • ومن أشمل خطاباته

في هذا الشأن خطابه في افتتاح الموسم الثقافي للقوات المسلحة يوم ٣١ مارس ١٩٥٥ • ويفيدنا ان نورد مقتطفات طويلة منه لنتعرف على وجهة النظر العربية الثورية • فقد قال عبد الناصر :

« عندما نرجع الى عامي ١٩٥٠ و ١٩٥١ نجد ان الدول الغربية حاولت ان تسد هذه الثغرة (الروح التحررية للشعوب) بايجاد طريقة لتنظيم الدفاع عن الشرق الاوسط • ولكن لم تستطع أية حكومة من الحكومات الموجودة في هذه المنطقة في ذلك الوقت ان تقبل هذا العمل اي اتفاق الدفاع المشترك لسبب واحد هو ان الكراهية التي كانت شديدة بعد فلسطين ونكبة فلسطين كانت تؤثر على العرب •• من اجل ذلك لم يتمكن الغرب من تنظيم الدفاع عن هذه المنطقة •

كانوا يعتبرون ان مصر هي العامل الاساسي في هذا الموضوع ، وان مصر اذا وافقت على الدفاع المشترك الذي وضعوه قد ينظم الدفاع عن هذه المنطقة في صالح الغرب •

أوضحنا لهم وجهة نظرنا اثناء المفاوضات وقلنا اننا لا نستطيع ان نقبل ميثاق الدفاع عن الشرق الاوسط مرة اخرى •

اعتبروا ان الشيوعية خطر ، ولكني لا زلت اعتقد ان الاستعمار او السيطرة علينا من الجانب الآخر يمثل خطرا اكبر •• لقد تخلصنا من الاحتلال البريطاني باتفاقية لاحتلال القاعدة لمدة سبع سنوات ، يعني ان هناك التزام

علينا ، فاذا حدثت حرب فانهم سيأتون لاحتلال القاعدة .
ولكن هذا الالتزام نعتبره التزاما بسيطا ، اما في حالة التحالف او تنظيم الدفاع عن الشرق سنرتبط بالتزامات اخرى . ولست ادري هل موقفي اليوم يمكنني من استبقاء السيادة اذا قبلت القيام بهذا الالتزام أم لا ؟

انني اعتبر ان مصر في وقتها الحالي وهي تبدأ مرحلة من مراحل التحرير يجب ان تتخلص من كل نفوذ اجنبي تخلصا كاملا حتى تستطيع ان تقف على اقدامها . لا تدخل ابدا نتيجة الضغط . لا تدخل وهي شاعرة انها ليست قوية .. فنحن من الناحية الاقتصادية لسنا اقوياء .

هناك اناس يقولون انه من الناحية الاقتصادية علينا ان نعتمد على نواح خارجية . وأنا أرد على هذا قائلا اننا اذا اردنا ان نبني اقتصادنا القومي على اساس سليم ، يجب ان يعتمد علينا اعتمادا كليا .. واذا لم نوجه التوجيه السليم فلن نستطيع تحقيق هدف الثورة الخاص بالوصول الى مجتمع اشتراكي يرتفع فيه مستوى المعيشة ويقوى فيه الوطن اقتصاديا وانتاجيا .

قلنا في حديثنا اثناء المفاوضات اننا مستعدون للدفاع عن الشرق الاوسط . ولكن على أي اساس ؟ قلنا لهم انه يجب ان ينبثق الدفاع عن المنطقة ، ويجب ان يكون بسواعد ابنائها .. بدون أي تدخل اجنبي .

بهذا المنطق تكلم عبد الناصر مع جون فوستر دالاس :

« في ابريل سنة ١٩٥٣ ، جاء الى هنا وزير خارجية امريكا وتكلمنا معه في هذا الشأن . وقلنا اننا مستعدون للسير خلف قيادة مشتركة منا وجيش موحد منا ، لانني عندما ادخل في قيادة مشتركة مع انجلترا واميركا فسأكون بينهما في صورة اناس يتقاضون مرتبات في القيادة ... سيكون لهم كل النفوذ : انهم يأتون بالمال ويأتون بالسلاح ويضعون الخطة وسيقول الباقون حاضر يا فندم وبهذه الطريقة سنفقد شخصيتنا فقدانا كاملا . من اجل ذلك رفضنا الدفاع المشترك » .

وبهذا المنطق تكلم عبد الناصر مع ايدن حين زار القاهرة في مطلع عام ١٩٥٥ . فقد سأله هل تنوي بريطانيا في يوم من الايام ان تقوم بهجوم عسكري ضدنا ، فلما اجاب ايدن بالنفي الشديد قال عبدالناصر :

« اذن فلماذا ترفضون رأينا في الدفاع عن الشرق الاوسط ؟ اننا نريد ان يدافع الشرق الاوسط عن نفسه ضد أي اعتداء .. وانتم ــ وقد أكدت هذا بنفسك ــ ليس في نيتكم ان تعتمدوا واذا جاء علينا الاعتداء من غيركم فسوف نكون نحن الذين نطلب منكم العون ... فما هو اصراركم اذن على ان يكون الدفاع عن الشرق الاوسط بأحلاف عسكرية تشتركون فيهامعنا ؟ انالناس ينظرون الى هذه الاحلاف على أنها استعمار جديد ...

أين هي روسيا ؟

لو قلت للناس الان تعالوا نوقع حلفا عسكريا مع بريطانيا ضد روسيا ، لنظر الي الناس بذهول وقالوا :

أين هي روسيا ، ان روسيا على بعد ثلاثة آلاف ميل من هنا ! وسوف يقول لي الناس ايضا :

ان بريطانيا هي التي استعمرتنا ، وبريطانيا هي التي احتلت مصر وما زالت تحتل الاردن والعراق وليبيا ، فهل تريد منا ان ننسى الخطر القائم على ارضنا فعلا وتتطلع الى خطرمحتمل على بعد ثلاثة آلاف ميل منا ...

وسوف يكون الناس على حق ان هم قالوا لي ذلك ولن اجد ردا اتمكن به من اقناعهم . ولكني سأتمكن من اقناعهم اذا قلت لهم ان بريطانيا خرجت من بلادكم ونحن الان احرار ... وهذا الاستقلالالانأمانة في رقابنا ويجب ان نحميه ضد اي اعتداء من اي معتد » .

وبهذا المنطق تكلم عبد الناصر مع نوري السعيد حين جاء الى مصر في مطلع عام ١٩٥٥ بعد أن زار صلاح سالم العراق للبحث في تقوية ميثاق الضمان الجماعي العربي الذي يعبر عن الدفاع الذاتي عن المنطقة :

« وجاء نوري السعيد الى مصر ، وبدأنا تتكلم معه في تقوية ميثاق الضمان الجماعي . فقال نعم هذه خطوة عظيمة ولا بد ان نخطوها معا .

قلنا له : وكيف يقوى ميثاق الضمان الجماعي ؟

قال أرى ان نستدعي سفيري امريكا وبريطانياونقول لهما اننا نريد تقوية ميثاق الضمان . فما هي الوسائل وما هي اقتراحاتكم ؟

قلت له انا اعرف وسائلهم ومقترحاتهم فقد مضى علي عامان وأنا أتكلم معهم في هذا الموضوع ، واذا سألتهم اليوم فان ذلك يعتبر بداية للمفاوضات والمباحثات الجديدة الخاصة به ، وكل الذي اريده الان هو معرفة وجهة نظرك.

وبعد حيرة ومراوغة قال تقوية الميثاق بتوسيعه بضم الباكستان وتركيا ونعمل تحالف مع اميركا وانجلترا وبهذا نضمن التسليح ونكون عمليين .. فقلت له ان هذا الطريق لا نستطيع السير فيه ، واننا نعتبر ان اشتراك اية دولة من الدول الكبرى في هذا الدفاع قد يحد من موجة التحرر التي نسير فيها اننا نريد ان نأخذ وضعنا ، نريد تقوية شخصيتنا ، نريد دفاعا ينبثق من المنطقة » .

وهكذا صمد عبد الناصر أمام ضغوط الدولتين اميركا وبريطانيا وجابه مخططاتهما لعزله عن الدول العربية والعالم الثالث ، ولتهديده بالخطر والعدوان الاسرائيلي . ورد بالتحرك الواعي الشجاع على المستويات الداخلي والعربي والدولي . وتجاوب معه الشعب العربي على مدى مساحة الوطن العربي فكان الانتصار في المعركة العربية التي قادها عبد الناصر ضد الاحلاف .

وكان مقدرا لعام ١٩٥٦ ان يكون العام الفاصل في تحقيق المبدأ الاول للثورة .. مبدأ القضاء على الاستعمار . ففي ذلك العام قام عبد الناصر يوم ٢٦ يوليو بتأميم قناة السويس . ثم جابه منذ يوم ٢٩ أكتوبر العدوان الثلاثي على مصر . وقد تتالت الاحداث منذ بداية ١٩٥٦ لتبلغ ذروتها في نهايته ، وليحقق عبد الناصر فيها اعظم انتصارات الامة العربية على الاستعمار العالمي .

فبعد ان خاض عبد الناصر معركة جلاء قوات الاحتـلال بنجاح ، وأصبح الجلاء قريبا . وبعد ان خاض عبد الناصر معركة الاحلاف الاجنبية بنجاح ، وانتصر فيها . وبعد ان تحرك عبد الناصر داخليا لبناء القاعـدة وعربيا لتحقيق التضامن العربي ودوليا لكسر احتكار السلاح وللقاء دول العالم الثالث من اجل التحرر والتقدم ، جاء الصدام الحاد المسلح بالاستعمار العالمي .

وكان عبد الناصر تعبيرا عن حرية بلده في اتخاذ قرارها واستجابـة لبعض المتطلبات قد اعلن يوم ١٦ مايو ١٩٥٦ اعتراف مصر بجمهوريـة الصين الشعبية . وكانت مصر بهذا الاعتراف أول دولة عربية وافريقية في هذا المجال وسابقة لكثير من الدول الغربية . وكان القرار يمثل تحديا قويا لسياسة الولايات المتحدة الرامية الى عزل الصين الشعبية دوليا ، كما عبر القرار ايضا عن المبدأ الذي اعلنه عبد الناصر يوم ١٩ مايو ٥٦ « نسالم من يسالمنا ونعادي من يعادينا » . وقد خطب عبد الناصر يوم ١٩ يونيـو شارحا سياسة مصر الوطنية المستقلة فقال :

« اننا لا نقبل مطلقا ان نأخذ اوامر من الخارج . كل سياستنا تنبعث من مصلحتنا ، من ضميرنا ، من نفوسنـا من ارضنا ، من مصر وليس من اية دولة اجنبية . ونحن في سبيل المحافظة على استقلالنا ، وفي سبيل تأمين حدودنا ، وفي سبيل بناء وطننا .. في سبيل هذه الأسس والمبـادىء الثلاثة نبني علاقتنا الخارجية بكل وضوح وصراحة ...

نحن نسالم من يسالمنا ونعادي من يعادينا . هـذا مبدؤنا . فنحن نريد السلام ونريد ان نعيش في سـلام بعيدا عن المؤامرات الدولية » .

وغضبت اميركا من القرار العربي فأعلن دالاس يوم ٢٣ مايو أسف بلاده لاعتراف مصر بالصين الشعبية . وتهيأت بلاده للرد على خطوة عبدالناصر بسحب العروض التي سبق ان تقدمت بها مع بريطانيا للمساهمة في تمويل مشروع السد العالي .

وكان التفكير في مشروع السدالعالي قدبدأ مع الايامالاولىللثورة. وانتهت الدراسات الخاصة به في اواخر عام ١٩٥٤ . ثم قام البنك الدولي بدراسته فوجده ناجحا . وبدأت المفاوضات مع البنك الدولي لتمويله ، واستوجبت التفاوض مع انجلترا والولايات المتحدة ... وحاولت الدولتان الاستعماريتان ان تمليا شروطهما وطالت مماظلتهما . ورفض عبدالناصر الشروط واوضح ذلك لمدير البنك الدوليالذي زار مصر في فبراير١٩٥٦ . وكان المفروض ان يتم البدء في المشروع في يونيو ٥٦ .

وجاء الرد الاستعماري على سياسة عبد الناصر الوطنية المستقلة واعتراف مصر بالصين الشعبية . فأصدرت لجنة الاعتمادات في مجلس الشيوخ الاميركي قرارا بمنع تقديم اية معونة مالية لبناء السد العالي . واعلنت اميركا وبريطانيا يوم ١٩ يوليو تخليهما عن المساهمة في المشروع. وتلاهما البنك الدولي فسحب عرض تمويله . وحرص دالاس ان يكون الاعلان في آخر يوم في مؤتمر بريوني الذي جمع بين عبد الناصر وتيتو والذي صدر عنه بيا ن مشترك أيد قرارات مؤتمر باندونج وكان هدف دالاس اذ يؤدي قرار الرفض « الى تقليص حجم هؤلاء الذين يتشدقون بالكلام عن عدم الانحياز » (١) . وتلقى عبد الناصر اول اشارة عن تصريحات دالاس وهو في الطائرة مع نهرو في طريقهما الى القاهرة ، وبدأ ينضج قراره الخطير ويعد ما يلزم لتنفيذه .

---

(١) محمد حسنين هيكل ـ خبايا السويس ، ص ١٢٨ عن كتاب دالاس في السويس لتايمز .

وفي يوم ٢٣ يوليو خطب عبد الناصر في احتفال أقيم بمصر بمناسبة افتتاح خط انابيب البترول بين القاهرة والسويس ، واكتفى بالقول ان مصر سترد وانها ستبني السد • وجاء الرد يوم ٢٦ يوليو في الاسكندرية في نهاية احتفالات مصر بالعيد الخامس للثورة حين اعلن عبدالناصر امام جموع الشعب •

« في نفس هذا اليوم تقرر تأميم قناة السويس •
ونشر هذا القرار فعلا في الجريدة الرسمية واصبح هذا القرار أمرا واقعا » •

وكان موضوع قناة السويس يشغل تفكير عبد الناصر منذ بداية عام ١٩٥٦ على الخصوص • وقد كثر الحديث عنها خلال معركة الأحلاف وتركز على اهميتها الاستراتيجية الحيوية وعلى مكانها من نظام البترول العربي الشامل • كما كثر الحديث عنها بعد اتفاقية الجلاء والاتجاه الى التنمية ، حيث كان مما يلفت النظر ان الشركة ودخلها الصافي يقدر بأربعين مليون جنيه استرليني لم تكن تعطي الحكومة المصرية اكثر من مليون واحد • وقد مارست حكومة الثورة ضغطا على شركة قناة السويس في اوائل عام ١٩٥٦ • ومع ان سياسة عبد الناصر الوطنية قد فرضت على الشركة ان تقبل استثمار مبلغ عشرين مليون جنيه على مدى سنوات في مشروعات للتنمية في مصر فان ذلك لم يكن كافيا في نظر عبد الناصر الذي كان يطلب لمصر كخطوة أولى نصيبا اكبر من دخل القناة يصل الى خمسين في المائة اسوة بما تدفعه شركات البترول للحكومات المنتجة ما دامت القناة جزءا من نظام البترول • وكانت فكرة التأميم لاسترداد الحق كاملا مستقرة في فكر عبد الناصر كخطوة لا بد منها • وهكذا فان قرار التأميم لم يكن ردا انفعاليا ولا جوابا تلقائيا وقد اتخذه عبد الناصر بعد

ان قدر الموقف تقديرا دقيقا وخاصة على المستوى الدولي . [1] وحرص ان يضع هذا التقدير على الورق في وثيقتين تحدث عنهما هيكل اولاهما بعنوان « تقدير موقف من وجهة النظر المصرية في حالة تأميم قناةالسويس» والاخرى بعنوان « تقدير موقف من وجهة النظر الغربية في حالة تأميم قناة السويس » . وناقش في الوثيقة الثانية ردود افعال بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة المتوقعة ، ورد الفعل الاسرائيلي . ووضع عبد الناصر في الاعتبار ان الاتحاد السوفييتي قد تقدم بعرض يوم ١٧ يونيو لتقديم قرض لمصر لتمويل السد العالي . وكان قد لمح لهذا العرض منذ ديسمبر ١٩٥٥ . وكانت علاقات مصر بالاتحاد السوفييتي في تحسن مستمر منذ ان اعلنت الثورة مواقفها الوطنية ومن خلال مؤتمر باندونج وابرام صفقة الاسلحة التشيكية . ولقد عبرت المذكرة الايضاحية لقانون التأميم الذي وقعه عبد الناصر عن التصميم الذي بنى عليه القرار بقولها « انالامر لم يعدو مجرد اختيار الوقت المناسب لهذه الخطوات الحاسمة نحو التحرير الاقتصادي » .

وكانت بريطانيا وفرنسا تملكان غالبية اسهم شركة قناة السويس . وقد بلغت حصة بريطانيا ٤٥ ٪ من الاسهم بفضل صفقة دزرائيليالشهيرة عام ١٨٧٥ . وكانت اهمية القناة التي ظلت سنوات طويلة ممرا مائيا هاما الى الهند والشرق الاقصى قد تضاعفت منذ عام ١٩٤٥ عندما اصبحت معبرا للبترول . وكان ثلاثة ارباع البترول البريطاني يمر بها . كما كان ثلث مجموع السفن التي تمر في القناة البريطانية . [2] ولذا فقد جاء رد الفعل البريطاني الفرنسي على التأميم سريعا وعنيفا واتخذت الولايات

---

(١) يراجع المصدر نفسه ، ص ١٢٣ وما بعدها .
(٢) دراسة هيوتوماس عن السويس ، خبايا السويس ، ص ١٢ .

المتحدة موقفا مبدئيا مساندا لحليفتها • وبالمقابل تحرك عبد الناصر بوعي وتصميم وسرعة مجابها التحرك الاستعماري •

تقدمت بريطانيا يوم ٢٧ يوليو باحتجاج على قرار التأميم ، فرفضت مصر تسلم الاحتجاج • وهددت بريطانيا وفرنسا يوم ٢٨ يوليو باحتلال مصر فأنذر عبد الناصر دول الاستعمار بأنمصر ستقابل القوة بالقوة والعدوان بالعدوان ، واعلنت حكومة الثورة التعبئة العامة في مصر « لحماية المكاسب التي حققتها الثورة » •

وقامت بريطانيا يوم ٢٩ يوليو ومعها فرنسا بتجميد الارصدة والاموال المصرية ، وتجميد ممتلكات شركة قناة السويس في كل من الدولتين • وأعلنت وزارة المالية الاميركية يوم ٣٠ يوليو انها وضعتتحت الرقابة المؤقتة جميع أموال حكومة مصر وأموال شركة القناة المؤممة في مصارفها • وصدرت الاوامر يوم ٣١ يوليو الى الجيش البريطاني بالاستعداد • كما صدرت الاوامر الى الاسطول البريطاني بأن يكون قريبا من قناة السويس • فأعلن الاتحاد السوفييتي ومعه عدد كبير من دول العالم يوم ٣٠ يوليو تأييدها مصر في موقفها وحقها في التأميم ••• وكرر الاتحاد السوفييتي يوم اول اغسطس تقديم عرضه لتمويل مشروع السد العالي • وأنذر عبد الناصر في ذلك اليوم دول الغرب « اننا نعرف كيف ندافع عن وطننا وكيف نرد المعتدين » •

وكان عبدالناصر في تحركه حريصا على أن تبقى قناة السويس تحت الادارة المصرية مفتوحة وبكفاءة ، وعلى ان يبقى باب المفاوضات مفتوحا لتكسب مصر مع كل يوم ارضاء في الرأي العام العالمي ، وعلى ان تبدو الجبهة الداخلية قوية مترابطة مصممة على الدفاع عن الوطن ورد أي اعتداء •

واضطرت بريطانيا وفرنسا امام الرأي العام العالمي الى التعهد يوم ١ أغسطس بأنهما لن يستخدما القوة ضد مصر ، ولكنهما باشرتا في الوقت نفسه وبتصميم تدبير العدوان على مصر لاسقاط عبد الناصر • وقد اوضحت برقية ايدن السرية الى ايزنهاور يوم ٢٨ يوليو خط سير ايدن رئيس وزراء بريطاني في الازمة ونصها « اننا ينبغي ان نفرض على الفور اقصى ما يمكن من الضغط السياسي ضد مصر •• ولكن زملائي وأنا مقتنعون بأننا لا بد ان نكون مستعدين في النهاية لأن نستخدم القوة لاعادة ناصر الى صوابه ، ونحن من ناحيتنا مستعدون للقيام بذلك • وقد أمرت هذا الصباح رؤساء أركاننا باعداد خطة عسكرية تنفيذا لذلك » (١) • وأصدرت بريطانيا يوم ٢ أغسطس أوامرها الى رعاياها بمغادرة مصر وتبعتها فرنسا يوم ٤ أغسطس • وحرضت بريطانيا وفرنسا المرشدين البحريين الاجانب يوم ٨ أغسطس على الاضراب لكي تتعطل الملاحة في القناة •

وتتالت الاحداث بسرعة خلال الايام التالية وحتى يوم ٢٩ اكتوبر ١٩٥٦ • فقد اصدرت الدول الغربية الثلاث بيانا حول التأميم طالبت فيه بانشاء نوع من الادارة الدولية بحجة تأمين العمل في القناة • ودعت الى مؤتمر دولي في لندن عقد يوم ١٦ اغسطس لبحث المشكلة • ورفضت مصر اقتراح الادارة الدولية ووضعته في بيان بأنه « تعبير مهذب كما ينبغي تسميته بالاستعمار الدولي » • ورفضت مصر حضور مؤتمر لندن واكتفت بارسال مراقب لسير مباحثاته • وأكدت يوم ١٨ أغسطس رفضها لفكرة التدويل التي نادى بها المؤتمر معلنة « ان التدويل محاولة لفرض السيطرة الاستعمارية العالمية على الشعب العربي » • وانبثقت عن مؤتمر لندن يوم ٢٥ أغسطس لجنة خماسية برئاسة منزيس رئيس وزراء استراليا

---

(١) دراسة هيوتوماس عن السويس ، خبايا السويس ، ص ١٣ •

للتفاوض مع مصر . ولم يكن هدف البعثة التفاوض بقدر ما كان هدفها باتفاق ايدن ومنزيس انذار عبد الناصر وتخويفه . ورفض عبد الناصر منطق الانذار والتخويف وفرض على منزيس التراجع . واعلنت مصر يوم ٦ سبتمبر رفضها لمقترحات اللجنة بشأن تدويل القناة . ولجأت بريطانيا وفرنسا وبعض الدول الغربية يوم ٨ سبتمبر الى سحب المرشدين الاجانب من القناة بقصد تعطيل الملاحة فيها . وكان تقدير جورج بيكو مدير الشركة الذي قاله لبينو وزير خارجية فرنسا انه اذا ترك المرشدون الاجانب الـ ١٦٥ القناة فان مصر لن تقدر على ادارتها . وجابه عبد الناصر التحدي بمرشديه العرب المصريين القدامى والجدد ، واستطاعوا ان يمرروا ٤٠ سفينة يوم ١٦ سبتمبر وهو رقم يزيد على المعدل و٢٥٤ سفينة في خلال اسبوع ، الأمر الذي اضطر شركة « لويدز » للتأمين التخلي عن اقساط الطوارىء على السفن التي تمر في القناة وأعلنت مصر يوم ١٥ سبتمبر فشل مؤامرة سحب المرشدين الاجانب وانتظام الملاحة في القناة . ثم طلبت مصر يوم ١٧ سبتمبر عقد مجلس الامن للنظر في التهديدات البريطانية الفرنسية باستخدام القوة . وعقدت بريطانيا يوم ٢٠ سبتمبر مؤتمرا دوليا ثانيا في لندن طرح دالاس فيه اقتراحه بتشكيل « جمعية المنتفعين بالقناة » وان ترسل هذه الجمعية سفن اختبار مزودة بالمرشدين وتطلب المرور في القناة دون دفع اية رسوم الى هيئة القناة المصرية . وفشل هذا المشروع بسبب اصرار مصر على مقاومته وبسبب رفض كثير من الدول فكرته . وفي ٢٨ سبتمبر قررت شركات الملاحة العالمية عدم مقاطعة قناة السويس كطلب بريطانيا وفرنسا . واعلنت مصر في ٧ أكتوبر في مجلس الامن تصميمها على المحافظة على سيادتها الكاملة على القناة . وتلقت يوم ٢٧ اكتوبر رسالة من داج هامرشولد السكرتير العام للامم المتحدة يقترح فيها عقد اجتماع في جنيف يوم ٢٩ اكتوبر .

وفي هذا اليوم بدأ العدوان الثلاثي المسلح على مصر ، على الرغم من نجاح الادارة المصرية في ضمان استمرار الملاحة في قناة السويس بعد انسحاب المرشدين الاجانب واحترام مصر لحرية الملاحة وفقا لاتفاقية القسطنطينية عام ١٨٨٨ . وعلى الرغم من انالسكرتير العام للامم المتحدة اوشك ان يبلور اتفاقا من خلال اجتماعات وزير الخارجية المصري بوزيري خارجية بريطانيا وفرنسا حول طريقة جمع مستحقات القناة . وكان من الممكن لمثل هذا الاتفاق ان يكون افضل بكثير لبريطانيا مما تم تحقيقه من العدوان ــ كما سجل هيوتوماس .

بدأ العدوان ليعبر عن حقد السياسة الاستعمارية على ثورة ٢٣يوليو العربية ، وليكشف عن تصميم الدولتين المتواطئتين بريطانيا وفرنسا على « اغراق ثورة عبد الناصر بالدماء بعد ان تعذر عليهما الحاق الهزيمة بها بوسائل التخريب الدبلوماسية » (١) . وكان ايدن منذ اوائل أغسطس قد اعلن في خطاب له « ان نزاعنا ليس مع مصر ، ولكن مع عبد الناصر ». وبدا لمن حوله انه قرر ان العالم اصغر من ان يتسع له ولعبد الناصر »(٢). وكان قد تسلط عليه منذ مارس ١٩٥٥ شبح عبد الناصر « فرأى يده في كل المشاكل التي كانت منها بريطانيا في الشرق الاوسط » (٣) . كذلك كان موليه رئيس الوزراء الفرنسي وحكومته يحملون عبد الناصر مسؤولية متاعبهم في شمال افريقيا وخاصة في الجزائر ، ويتصورون « ان اسقاطه سوف يؤدي الى هدوء الجزائر وقبولها الحكم الفرنسي » (٤) . وكانت اسرائيل تضع دوما هدف ضرب الثورة العربية نصب عينيها .

---

(١) كرانجيا ، ص ١٧٦ .
(٢) دراسة هيوتوماس ، ص ٣١ ، خبايا السويس .
(٣) ناتنج ، ص ٣٧٨ .
(٤) ناتنج ، ص ٣٧٩ .

وبدأ العدوان بعد ان جرت التهيئة له سرا ، وتحددت من خلال المؤامرة الادوار . وقد كشفت الكتب التي صدرت عن السويس جوانب كثيرة من قصة التآمر . وهكذا هاجم الجيش الاسرائيلي يوم ٢٩ أكتوبر صحراء سيناء . ووجهت بريطانيا وفرنسا في اليوم التالي انذارا الى مصر تطلبان فيه « انسحاب القوات المصرية الى مسافة ١٠ أميال من قناة السويس » وان تقبل مصر احتلال اراضيها بواسطة القوات البريطانية الفرنسية ... وألا تتدخل الدولتان بالقوة بالقدر الذي تريانه ضروريا لضمان تحقيق مطالبهما . وكان الانذار جزءا من خطة العدوان استهدف وضع الدولتين في موضع الحكم وليس في موضع الخصم . وبدأت القوات البريطانية والفرنسية مهاجمة مصر يوم ٣١ اكتوبر .

واعلنت مصر في اليوم نفسه رفض الانذار البريطاني الفرنسي ، وقطعت علاقاتها مع بريطانيا وفرنسا . وأعلن عبد الناصر في اول نوفمبر ان مصر ستقاتل حتى النصر ، وقام بقيادة المعركة على مختلف المستويات.

قاد عبد الناصر الشعب العربي في مصر لمجابهة العدوان بروح مناضلة وثابة . فتفجرت في الشعب قواه الكامنة وطاقاته الكبيرة . وخطب عبد الناصر في الازهر يوم ٢ نوفمبر فقال من على منبر الجامع العتيد ومنارة العلم الخالدة ورمز اصالة الامة العربية .

« ان مصر كانت دائما مقبرة الغزاة .. وان الشعب سيحارب من بلد الى بلد ومن بيت الى بيت .. سنقاتل ، سنقاتل ولن نسلم » .

وردد الشعب وراء القائد « سنقاتل .. » فأصبح هذا القول شعارا تاريخيا . وخطب عبد الناصر في الازهر مرة اخرى يوم ٩ نوفمبر فرد على ايدن وابرز روح الشعب .

« أنا هنا أمثل شعب مصر ، لا امثل ارادة ايدن
او تجار الحروب ولا المستعمرين .. ان الاستعماريين
فرضوا علينا القتال ولكنهم لن يفرضوا علينا الاستسلام ».

وتركزت المعركة في منطقة القناة بعد ان تم انسحاب الجيش المصري من سيناء حتى لا يقع في المصيدة الثلاثية التي نصبتها خطة التواطؤ . وقد اتخذ عبد الناصر قرار الانسحاب بعد وقت قصير من الغارة البريطانية يوم ٢ نوفمبر حين تكشفت له ابعاد العدوان ورأي ان تتجمع كل القوات المصرية شرقي القناة لمواجهة المعركة الاساسية امام فرنسا وبريطانيا . وقاد الشعب في بورسعيد ببسالة واستماتة وأنزل خسائر بين الغزاة البريطانيين يوم ٥ نوفمبر . وكانت بورسعيد كما يقول هيوتوماس في دراسته « ابعد ما تكون عن الاستسلام وقد استثيرت حماستها الى ابعد مدى » (١) . وكاد قادة الغزو ان يقضوا برصاص المقاومة بينما كانوا يستقلون قاربا الى مبنى شركة القناة . ووزعت حكومة الثورة السلاح على جميع افراد الشعب يوم ٤ نوفمبر .

وتحرك الشعب العربي على مدى الساحة العربية في مواجهة العدوان تلهب حماسه كلمات عبد الناصر وتستثير همته . فيستجيب لها معبرا عن وحدة المصير العربي . وهكذا نسف العمال العرب يوم ٣ نوفمبر انابيب البترول في سوريا وليبيا والبحرين والسعودية لمنع البترول عن الدول الغربية . ووقف الشعب في ليبيا موقف العداء من القواعد الاجنبية وراقب اي تحرك يجري فيها .

وتحرك العالم مستنكرا العدوان فقدم هامرشولد السكرتير العام

---

(١) خبايا السويس ، ص ٧١ .

للامم المتحدة استقالته يوم ٣١ اكتوبر احتجاجا على العدوان • وطلبت مصر منه سحب استقالته من اجل السلام • ووجهت مصر يوم ٥ نوفمبر نداء الى جميع شعوب العالم بطلب عونها المادي والادبي ضد العدوان•• فاستجابت دول العالم الثالث التي شاركت في مؤتمر باندونج • وأدانت الامم المتحدة هذا العدوان الثلاثي • ووجه الاتحاد السوفياتي انذارا يوم ٥ نوفمبر بضرب بريطانيا وفرنسا بالصواريخ اذا لم يتوقف العدوان • وكان بولجانين قد انذر ايدن منذ يوم ١١ سبتمبر « ان الاتحاد السوفياتي لا يمكن ان ينتظر منه ان يقف جانبا اذا هوجمت مصر » (١) •

وفي يوم ٦ نوفمبر اصدر مجلس الامن والجمعية العامة للامم المتحدة قرارا بوقف اطلاق النار واضطرت بريطانيا وفرنسا الى ان توافقا عليه امام ضغط الرأي العام العالمي • ووافقت الامم المتحدة يوم ٧ نوفمبر على ارسال قوات طوارىء دولية حتى يتم انسحاب الانجليز والفرنسيين والاسرائيليين • وبدأ انسحاب القوات الانجليزية والفرنسية يوم ٤ ديسمبر من بورسعيد • وانتهى انسحابها يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٥٦ بعد ان عاشت بورسعيد معركتها ستة واربعين يوما • ثم بدأ انسحاب اسرائيل من سيناء مضطرة يوم ٢٦ ديسمبر وفي ١٤ يناير تسلمت القوات المصرية العريش • وتلكأت اسرائيل في الانسحاب من شرم الشيخ وقطاع غزةحتى يوم ٦ مارس وبعد ان استماتت في محاولة التمسك باحتلالهما • وتولت مصر ادارة القطاع الذي استبسل وصمد وعانى الكثير خلال الاحتلال الاسرائيلي على مدى شهور اربعة • وارسلت الامم المتحدةقوات الطوارىء الدولية ووزعت على خطوط الهدنة يوم ١٨ مارس وفقا لقرارات مجلس الامن والجمعية العامة • وفي يوم ٩ ابريل تم تطهير القناة واستؤنفت

---

(١) خبايا السويس • ص ٤١ •

الملاحة فيها تحت ادارة الهيئة المصرية واستجابت جميع الدول لطلب مصر دفع رسوم المرور بالقناة مقدما لها .

وهكذا انتهى العدوان الثلاثي بالفشل . وحقق شعب مصر العربي والامة العربية جمعاء بقيادة عبد الناصر انتصارا عظيما كانت له آثار بعيدة المدى ليس في مصر والوطن العربي فحسب بل وفي العالم اجمع .

ففي مصر ألغت حكومة الثورة في اول يناير ١٩٥٧ اتفاقية الجلاء « الاتفاقية المصرية البريطانية » واعتبرتها منتهية منذ ٣١ اكتوبر ١٩٥٦ ، فخلص عبد الناصر مصر من آخر خيط كان يربطها ببريطانيا ، ومن النص الذي تضمنته الاتفاقية عن التزام مصر في حالة وقوع عدوان على دول الجامعة العربية أو تركيا . واوضحت المذكرة الايضاحية لقرار الالغاء ان بريطانيا بتدبيرها الاعتداء وباعتدائها فعلا تكون قد ضربت جميع العلاقات السياسية والودية بين الدول المتحاربة ولذلك فانه يترتب عليه الغاء هذا الاتفاق في الوقت الذي وقع فيه الاعتداء . واضطرت بريطانيا ان تعلن يوم ١٢ فبراير انها تعتبر الاتفاقية مع مصر منتهية .

وباشر عبد الناصر اثر العدوان عملية التمصير . فبدأها غداة العدوان بفرض الحراسة على اموال البريطانيين والفرنسيين . ثم اصدر في ١٥ يناير قانونا لتمصير الشركات والبنوك الانجليزية والفرنسية في مصر . وأدى ذلك الى ايجاد نواة القطاع العام وانشئت المؤسسة الاقتصادية التي اشترت حصص الاعداء في الشركات .

ولعل من أهم آثار الانتصار في مصر ، ان الثورة خرجت من المعركة راسية وطيدة الاركان . وسيطرت على الشعب العربي في مصر روح وثابة مكنته من الانطلاق في تجربته الثورية . واصبح الالتحام بين الشعب وثورته وقائده كأقوى ما يكون الالتحام .

••• وفي الوضن العربي كان للانتصار أثر حاسم هو التحام جماهير الامة العربية على مدى ساحات الوطن العربي بثورة ٢٣ يوليو العربية وبقائدها عبد الناصر • وهكذا « ما بين التأميم وحرب السادس والخمسين وجلاء الجيوش الثلاثية عن القناة وسيناء ، وجدت الثورة الناصرية نفسها على درب جديد لا رجوع فيه • لقد برزت مرة واحدة وكأنها قائدة الثورة العربية الجديدة ضد الاستعمار مباشرة » [١] • وأصبح عبد الناصر في نظر الوضن العربي كله — كما يقول ناتنج — « قديسا وبطلا تزين صوره المقاهي والاسواق من مسقط الى مراكش ، ويقترن اسمه بالنصر على الاستعمار » [٢] • وهكذا ولدت الزعامة القومية في الامة العربية لأول مرة منذ قرون طويلة • وسيطرت على الشعب العربي عامة تلك الروح الوثابة وذلك التصميم على الانطلاق في التجربة العربية الثورية •

•• وفي العالم اصبحت السويس رمزا لانتصار الشعوب على قوى الاستعمار •ويكفي ان انتصار مصر على العدوان الثلاثي فرض في بريطانيا استقالة ايدن رئيس الوزراء الذي قرر اعتزال السياسة ، وسجل في استقالته « فشله في السياسة الخارجية واضراره بالاقتصاد البريطاني من جراء العدوان على مصر » • وهكذا اصبحت حرب السويس « نقطة تحول عظمى في التحرير لا في العالم العربي ولكن في افريقيا وخارجها كذلك » [٣] • وتطلعت شعوب كثيرة للثورة على السيطرة الاستعمارية محتذية بمثل السويس ولقد سجل عبد الناصر في الميثاق ابعاد معركة السويس ••

---

(١) مطاع صفدي — ناصر الناصرية ، ص ١٢٠ •
(٢) ناتنج — العرب ، ص ٣٨٠ •
(٣) حمدان • ص ٢٧٨ •

« ان معركة السويس ، التي كانت احدى الادوار البارزة في التجربة الثورية المصرية لم تكن لحظة اكتشف فيها الشعب المصري نفسه ، أو اكتشفت فيها الامة العربية امكانياتها فقط ، وانما كانت هذه اللحظة عالمية الاثر ، رأت فيها كل الشعوب المغلوبة على امرها ان في نفسها طاقات كامنة لا حدود لها ، وانها تقدر على الثورة •• بل ان الثورة هي طريقها الوحيد » •

كانت « حرب السويس » ـ كما يبدو واضحا مما سبق ـ أنتصارا سياسيا ضخما لثورة ٢٣ يوليو العربية وللقومية العربية • وكانت لها آثارها الايجابية التي ذكرناها على مختلف المستويات • ولا بد ان نشير في هذا المجال ونحن نكتب عن حرب السويس بعد عام ١٩٦٧ الى ان هذا الانتصار السياسي غطى في مصر والوطن العربي على مناقشة الجانب العسكري في الحرب الخاص بتقويم الهجوم الاسرائيلي على سيناء ونتائج العدوان على واقع الصراع العربي الاسرائيلي في الجبهة الجنوبية ••• الامر الذي سيبرز كسلبية كبيرة فيما بعد ، حيث ستكون له آثاره البعيدة السلبية بعد عشرة اعوام في سنة ١٩٦٧ • ولا يمكن الفراغ من الحديث عن حرب السويس قبل تناول هذه النقطة التي نرجو ان نعطيها حقها في مكان آخر • ونكتفي هنا بحديث موجز عنها •

حقيقة كانت « السويس » نقطة تحول ضخمة في تاريخ مصر والوطن العربي الحديث •• بل وفي السياسة الدولية • وبدت « حرب السويس » وكأنها رسمت حدا فاصلا بين الاستعمار القديم بأساليبه المباشرة واعتماده على التدخل العسكري ، وبين الاستعمار الجديد بأساليبه غير المباشرة وتجنبه أثارة الضمير العالمي بالتدخل العسكري • وكان مطلوبا بالحاح

ان نستخلص لانفسنا من الحدث الخطير معانيه ودروسه ولا يسكرنا الانتصار السياسي فنغفل عن ذلك . ولكن الذي حدث وعلى الخصوص فيما يتعلق بالجانب العسكري من الحرب في سيناء ونتائج العدوان انه لا القيادات العسكرية العربية ولا القيادات السياسية وأهل الفكر تعمقوا في دراسة هذا الجانب . وهكذا كما قال حسين ذو الفقار صبري في دراسته عن ٥ يونيو « لم تحاول قيادتنا العسكرية التعمق في دراسة حرب السويس، وانما علق بذهنها ان بن جوريون رفض باصرار التورط فيها الا ان يحصل على وثيقة تضمن له اشتراك قوات بريطانيا وفرنسا الى جانبه ، وقواتهما الجوية بالذات ، حماية لأجواء اسرائيل » . وقد شدد المعلقون السياسيون وضغطوا على هذه النقطة بالذات حين انكشفت تدريجيا أسرار التواطؤ الثلاثي . ونذكر ابرز الامثلة على ذلك الفصل الخامس من تعليق الاستاذ محمد حسنين هيكل على دراسة هيوتوماس عن حرب السويس . فقد خصص ذلك الفصل لمناقشة « القيمة الحقيقية للنصر العسكري الذي تدعي اسرائيل انها حققته ضد الجيش المصري في سيناء » . وانتهى في ذلك الفصل الى « اسدال الستار على حكاية النصر الاسرائيلي المدعى في سيناء . ينزل الستار وتطفأ الانوار الى الابد » (١) . وكان هذا التركيز في التعليق على هزيمة العدوان والتقليل من شأن العدو الاسرائيلي . وخاصة من غير المختصين والمطلعين ، « بل كان هذا الافراط الذي جاوز حدود الموضوعية رسمها لنا حقيقة قائمة بذاتها ولذاتها .. فتسدر بعقول قادتنا العسكرية الى طمأنينة خادعة ، ويهملون التعمق في دراسة مرتكزات الخطة الاسرائيلية كما كانت ، سعيا الى استكناه اتجاهاتها المحتملة في المستقبل » (٢) .

---

(١) هيكل ــ خبايا السويس ، ص ١٥٨ .

(٢) حسين ذو الفقار صبري ــ اضواء على ٥ يونيو ، ص ٢٠ .

ونقطة اخرى حدث التركيز عليها في التعليق هـي صـواب قرار الانسحاب من سيناء عام ١٩٥٦ الذي صدر بعد تلقي عبد الناصر الانذار البريطاني الفرنسي ، وصواب فكرة اغلاق مجرى القناة • فكان انرسخت الفكرتان في عقول الكثيرين من السياسيين والعسكريين على أساس كونهما مبدأين ثابتين •• الامر الذي أدى عام ١٩٦٧ الى كارثة حين تصرفت القيادة العسكرية في مصر بوحيهما • وغاب عنها ان تقارن بين الظروف المتغيـرة في الحالين وغاب عنها « انالمبدأ الثابت للاستراتيجية المصرية القويمة هي ان تدافع مصر عن القناة فيكتب لكلتيهما السلامة ، وليس العكس فتضيع هذه وتلك » • واذا كانت التضحية بهذا المبدأ عام ١٩٥٦ أثمرت انتصارا بسبب ملابسات دولية معينة فانها عام ١٩٦٧ اثمرت هزيمة منكرة •

ولقد كان من جراء سلبية عدم مناقشة هذا الجانب العسكري ان عدونا استخدم عام ١٩٦٧ نفس الخطة التي استخدمها عام ١٩٥٦ • ولذا جاء تعبير ديان عن هذه السلبية مرا ومهينا • فقد شاع كثيرا رده علـى سؤال عن سر لجوئه للخطة نفسها دون ان يخشى ان يحتاط العرب للامر فقال « استعملت الاسلوب نفسه الذي تحدثت عنه في كتابي عن حربسيناء ١٩٥٦ لأني ادركت ان العرب لا يقرأون »•فاذا وضعنا جانبا جانب العداء في قوله نجد القول مجسدا لتلك السلبية فيما يتعلق بعدم مناقشة الجانب العسكري •

وضحت هذه السلبية ايضا فيعدم مناقشة نتائج العدوان على واقع الصراع العربي الاسرائيلي وبالذات فيما يتعلق بتوقف المقاومة المسلحـة ضد العدو التي ارهقته في قطاع غزة خلال العامين السابقـين وبتواجـد القوات الدولية على خطوط الهدنة وفي شرم الشيخ وعلى امتداد خليـج العقبة ••• الأمر الذي جعل هذا الموضوع الهام زادا لحروب الكـلام والمزايدات ضد الثورة العربية • وبقيت الجماهير العربية تواقة متعطشة

للتقويم الموضوعي ومتميزة من كلام الهمس المشكك وكان لذلك كله أثره السلبي الخطير على احداث مايو (ايار) ١٩٦٧ .

لم تظهر هذه السلبية لانتصارنا العظيم في السويس الا بعد عشرة اعوام . وواضح ان هذه السلبية مهما حملت لنا من مرارة فانها تتضاءل اما ايجابيات الانتصار العظيم . وما عرضنا لها ومناقشتنا مضمونها الا لتزداد قيمة الانتصار لتخليصه من السلبيات ولوضعه في حجمه الحقيقي. وليس هناك اقيم من الحقيقة . وليس هناك اضمن من مصارحة الشعب بهـا .

وبعد هذا الاستطراد الذي لم يكن هناك مفر منه نعود الى عـام ١٩٥٧ لنجد ان حرب السويس كانت قمة انتصـار عبدالناصر والثـورة العربية على الاستعمار . وقد تحقق بها نجاح الثورة في المبدأ الاول .. مبدأ القضاء على الاستعمار . وبهذا النجاح تحررت قاعدة الثورة من أي وجود اجنبي على ارضها ومن أي ارتباط يقيد من حريتها.واصبح بمقدور عبد الناصر ان يتحرك من على ارض القاعدة لتنفيذ اهداف الثورة العربية في مصر والوطن العربي ، وهو مطمئن الى رسوخ قدميه .

ولقد خرج عبد الناصر من خلال نضاله المرير ضد الاستعمار بـين عامي ٥٢ و ٥٧ بقناعات رسخت في اعماقه وحكمت مسيرته في الاعوام التالية .

أولها موقف قوى الرجعية المتخاذل من معارك الثورة ، وارتبـاط هذه القوى بقوى الاستعمار العالمي . وقد تكونت هذه القناعة نتيجـة تجارب ومواقف خاضتها ووقفتها الرجعية ضد عبد الناصر وثورته ، سواء في داخل مصر او في الوطن العربي . ونذكر كيف عانى عبدالناصر من نظرة

الرجعية الى الانجليز « الذين دوخوا الدنيا » عند ابرامه اتفاقية الجلاء ٠ ثم كيف عانى من موقف الرجعية العربية من الاحلاف وحين حدث العدوان هال عبد الناصر تحرك بعض الفئات الرجعية في مصر لتدعو الى التفاوض وانقاذ ما يمكن انقاذه انطلاقا من ان هزيمة الثورة محققة ، وقد استعرض عبد الناصر مواقف الرجعية هذه موقفا موقفا في خطابه في اللجنةالتحضيرية للمؤتمر الوطني يوم ٢٥ نوفمبر ١٩٦١ ٠

ثانيها وحدة القوى الاستعمارية الغربية وترابطها ومكان الصهيونية بينها ٠ وكون اسرائيل قاعدة الاستعمار العالمي في قلب الوطن العربي ٠ فمنذ بدايات التجربة وضح لعبد الناصر هذا الترابط ولذا نجده يتحدث بوضوح للجماهير في منيا القمح في ٣٠ نوفمبر ١٩٥٣ قائلا :

« انامیرکا مرتبطة تمام الارتباط بحليفتها انجلترا٠٠
وان اميركا ايها المواطنون لن ترضينا لتغضب فلا تصدقوا
ابدا ان اميركا ستساعدنا » ٠

ولقد جاء العدوان الثلاثي ليعمق هذه القناعة ٠ولم تخف عبدالناصر حقيقة الموقف الاميركي من العدوان على الرغم من الاختلاف الذي بدا بين الولايات المتحدة وحليفتيها فرنسا وبريطانيا في أزمة السويس ٠ أما اسرائيل وصلتها بالاستعمار فمرارا أكد عبدالناصر هذهالحقيقة وفي حديث له لجريدة اوبزرفر يوم ٥ يوليو ١٩٦٤ نراه يقول :

« ان اسرائيل بالنسبة لنا مسألتين : الاولى العدوان
الذي تم على حقوق شعب فلسطين وأرضه ، والثانية هي
تهديدها المباشر وخطرها التوسعي ولسنا في حاجة الى
اثبات ذلك فان احداث ١٩٥٦ تتولى عنا كل الاثبات ٠

ان صلة الاستعمار باسرائيل لا تحتـاج الى اجتهاد او استنتاج ... اميركا وانجلترا .. اقاما اسرائيل ، وحميا اسرائيل » .

ثالثها وحدة المصير العربي تاريخيا ونضاليـا في مواجهة القـوى الاستعمارية . ولقد اوضحت معركة الاحلاف هذه الحقيقة بجلاء كمـا أكدها الموقف العربي الشعبي ابان العدوان الثلاثي. وهكذا تحدد الترابط الوثيق بين تحرر مصر وتحرر الوطن العربي وبين الدفاع عن مصر والدفاع عن الوطن العربي .

رابعها ضرورة تعاون جميع القوى المعادية للاستعمار في مواجهـة قوى الاستعمار العالمي .

« بلورة فكرة القومية العربية
وتحديد أهداف النضال العربي »

كان من أهم ما حققته الثورة العربية التي قادها عبدالناصر، بلورةفكرة القومية العربية وتحديد اهداف النضال العربي المنطلق منها والمعبر عنها. ففي ظل هذه الثورة وبجهد من عبدالناصر استقرت فكرة القومية العربية على اسس علمية واقعية موضوعية ، وتبلورت بصورتها الصحيحة .

وكانت الدعوة الى القومية العربية بمفهومها الحديث قدبدأت مع تفتح حركة اليقظة العربية اواخر القرن الماضي واوائل هذا القرن . ولو نظرنا في هذه الدعوة آنذاك لرأينا فكرة القومية العربية فيها لم تتبلور ، فكانت الفكرة أقرب الى العاطفة وتعاني من أبهام وتناقضات فيها . ولرأينا الدعوة ايضا محصورة في اجزاء عربية دون بقية الاجزاء .

ففي مصر كانت الفكرة تعاني .. فعلى الرغم من ان مصر لعبت دورا كبيرا في تفتح حركة اليقظة العربية الا انها كانت منذ عام ١٨٨٢ تعاني من تسلط الاستعمار البريطاني عليها ومحاولته اغلاقها سياسيا عن الدائرتين العربية والاسلامية . ومن هنا ووجهت مصر كما يقول جمال حمدان « بفترة متميعة مليئة بالتناقضات ومن ثم بالحيرة . فقد كان ثمة اربعة ابعاد متصارعة ، منها ما هو اصيل أو دخيل ، قهري أو انتهازي ، تعرض عليها بالحاح .

أولها الوطنية المصرية الضيقة كما فرضها عليها الاستعمار كأمر واقع ، وكما ارادتها الرجعية الحاكمة كمصلحة ذاتية انفصالية .

ثم على النقيض من هذه المحلية المفرطة كانت العالمية الاوروبية التي جلبتها معها قوة اغراء الحضارة الجديدة الكاسحة .

يلي هذان بعدان احدهما خارجي قريب العهد هو الاسلامية التي كانت تمثلها تركيا لعدة قرون ، والثاني قديم قدم مصر الاسلامية وهو العروبة » [١] .

ولقد تعددت الاتجاهات الحزبية التي عبرت عن هذه الابعاد المتصارعة وارتفع صوت الاقليمية منهابفعل تكاتف الاستعمار والرجعية الحاكمة . وكان مطلوبا ان تبلور مصر أيديولوجيتها المعبرة عن انتمائها ودورها .

أما في سوريا فقد أخذ الكفاح ضد الحكم العثماني الذي تحدى الشعب العربي آنذاك بسياسة التتريك ، شكلا عربيا مباشرا . فبدا الهدف العربي لهذا الكفاح أساسيا . وبرزت بدايات الدعوة الى القومية العربية. وكانت ظروف سوريا تختلف عن ظروف مصر التي تحداها الاستعمار الاوروبي منذ اواخر القرن الماضي ، فاتخذ كفاح مصر خلال تلك الفترة صورة استقلال وطني تأجل فيها مؤقتا الهدف العربي النهائي . ونلاحظ ان سوريا بدورها اضطرت حين دهمها الاستعمار الاوروبي الى تأجيل الهدف العربي النهائي . ووقع قادتها الى حد ما فيما وقع فيه قادة مصر من عجز عن الامتداد بأبصارهم عبر الحدود المصطنعةالتيفرضها الاستعمار مع التجزئة ، او استسلام لواقع التجزئة المفروض .

وكانت الاجزاء العربية الاخرى تعيش ظروفا مختلفة بعض الشيء عن تلك التي عاشتها مصر وسوريا ، وخاصة أجزاء المغرب العربي ... الأمر الذي جعل الكفاح فيها يتخذ اشكالا تناسب تلك الظروف .

لم تكن فكرة القومية العربية اذن على مستوى الوطن العربي ككل

---

(١) جمال حمدان : شخصية مصر ، ص ٢٤٧ .

قد تبلورت في تلك المرحلة خلال النصف الاول من هذا القرن . بل انها كما قلنا عانت من ابهام وتناقضات فيها . وكانت الدعوة القومية آنذاك في المرحلة العاطفية . وكان من ابرز سماتها ان فكرة القومية العربية فيها افتقرت الى التحديد في بداية ظهورها ، وتعرضت للوقوع في الغيبيات والتهويمات والتعصب العرقي أو الوطني (الشوفينية) . وقد بقيت هذه المهمة ظاهرة في طرح الاحزاب القومية التي ظهرت في سوريا بين الحربين لهذه الفكرة [1] . وعلى العموم كانت الفكرة تقوم على اساس من الاثارة العاطفية . وهذا امر مفهوم ومتوقع بالنسبة للبداية وقد حدث مع الطرح المستمر لها تقدم في تحديدها لكنه بقي قاصرا عن الوصول الى التحديد المطلوب .

وبسبب هذا الافتقار الى التحديد برزت التناقضات التي زاد من حدتها ان الدعوة كانت تتخذ شكل ردود افعال في كثير من الاحيان لضغوط وتحديات محيطة .

وكان من ابرز هذه التناقضات تناقض تاريخي تمثل في الصدام بين الفكرة والتاريخ البعيد للمنطقة . ونتج عنه موقف عدائي متشنج من تاريخ المنطقة القديم وحضاراتها فيه مصرية كانت أو سورية أو عراقية الخ ... وعجز هذا الموقف عن تحديد الصلة بين الأمة العربية وتاريخها وهي مرحلة التكون . كما نتج عن هذا التناقض التاريخي تصادم بين الوطنية والقومية . وكان في جوهره رد فعل حملة الدعوة القومية على دعاة الوطنية الضيقة ممن قفزوا الى التاريخ البعيد لينكروا الفكرة العربية . ويمكن ان يتبادر

---

(١) تراجع دساتير ومنشورات تلك الاحزاب وكتابات مؤسسيها وزعمائها .

الى الذهن أمثلة كثيرة على هذا التناقض من خلال استعراض حساسية الاحزاب والتنظيمات القومية للفرعونية والفينيقية والبابلية الخ •• كما يتبادر الى الذهن البروز المتكرر لقضية الوطنية والقومية والتصادم بينهما على مختلف المستويات الذي من أمثلته طرح السؤال المصطنع حول أيهما قبل الآخر الانتماء الوطني أم الانتماء القومي •

وكان من أبرز هذه التناقضات ايضا تناقض روحي تمثل في الصدام بين الفكرة وعقائد الامة • ونتج عنه بعض حملة الدعوة القومية موقف عدائي متشنج من الدين اسلاما كان او نصرانية ومن القيم الروحية عموما • وعجز هذا الموقف عن اكتشاف او تحديد موقع البعد الروحي في الفكرة القومية نفسها ، وعن فهم دور الاسلام ثورة العرب الاولى في اكمال تكون الامة العربية وفي بناء الحضارة العربية الاسلامية • وكان هذا الموقف في جوهره رد فعل دعاة القومية هؤلاء على دعاة الجامعة الاسلامية او التآخي الاسلامي الذين دار بعضهم في فلك الدولة العثمانية والخلافة • وهنا ايضا تتبادر الى الذهن امثلة كثيرة على هذا التناقض في مواقف بعض التنظيمات القومية من الدين • وفي طرح السؤال المصطنع الذي يضع الانتماء القومي في موضع التعارض والتناقض مع العقيدة الدينية •

وكان من ابرز هذه التناقضات ايضا تناقض طبقي تمثل في الصدام بين الفكرة ومفهوم الثورة الاجتماعية • ونتج عنه اغفال كامل ممن وقعوا فيه من حملة الدعوة القومية للبعد الاجتماعي في الثورة ، وأحيانا تصادم بين الثورتين السياسية والاجتماعية • وقدعجز هؤلاء عن وعي أثر البعد الاجتماعي في انتصار الثورة ووعي الصلة العضوية الوثيقة بينه وبين بعد التحرر السياسي فيها • وهكذا أغفلوا هذا البعد واكتفوا بطرح شعارات غائمة غير محددة للتعبير عنه•وكان موقف هؤلاء : لا يخلو من رد

فعل على دعاة الأممية الذين ناصبوا الفكرة القومية العداء وركزوا على الثورة الاجتماعية • وهنا ايضا تتبادر الى الذهن امثلة على هذا التناقض في مواقف بعض التنظيمات القومية من الاشتراكية ، وفي طرح السؤال المصطنع الذي يضع القومية في موضع العداء للاشتراكية •

وبسبب الافتقار الى التحديد ايضا الذي هو من طبيعة البداية لم يتحدد بعد المكان في فكرة القومية العربية في تلك المرحلة • فكان البعض ينادي بالدولة العربية التي تمتد من جبال طوروس شمال سوريا الى رفح جنوب فلسطين تعبيرا عن الوحدة العربية (سوريا الكبرى) • وأدخل البعض من ناحية الشرق العراق ايضا لتكون أرض الوحدة العربية الهلال الخصيب • واقتصرت الرقعة عند هؤلاء على المشرق العربي في آسيا • وأدخل آخرون مصر في الاعتبار • وربط البعض بين مصر وطرابلس الغرب في ليبيا • واقتصر آخرون على المغرب العربي في الشمال الافريقي •

كان هذا بايجاز حال فكرة القومية العربية والدعوة اليها في تلك المرحلة •• مرحلة ما قبل تفجر ثورة ٢٣ يوليو العربية النواة • ونلاحظ ان الدعوات الاخرى الروحية الدينية او الطبقية الاشتراكية عانت في تلك المرحلة من الظاهرة نفسها ظاهرة العاطفية وعدم النضج • وهكذا ظهر انفصال حاد بين ابعاد النضال العربي الثلاثة • وبرز هذا الانفصال في الاتجاهات الفكرية التي سادت آنذاك •

•• فكانت هناك الوطنية الاقليمية تسعى للتحرر من الاستعمار وتتصادم مع البعد الطبقي الاجتماعي وأحيانا مع البعد الوحدوي القومي•

•• وكانت هناك الدينية تسعى للتحرر من الاستعمار والتآخي الديني وتتصادم مع البعد الوحدوي القومي ومع البعد الطبقي الاجتماعي •

•• وكانت هناك الأممية الطبقية تسعى للتحرر من الاستعمار ولانتصار الثورة العالمية البروليتارية وتتصادم مع البعد الوحدوي القومي ومع البعد الروحي الديني •

•• وكانت هناك اخيرا الدعوة الى القومية العربية تسعى للتحرر من الاستعمار وتغفل او تتصادم مع البعدين الطبقي والروحي•

وقد عبرت عن هذه الاتجاهات تنظيمات سياسية كانت كثيرا ما تتصارع فيما بينها وتؤكد على تناقضاتها الثانوية بدل ان تخضعها للتناقض الأساسي بينها مجتمعة وبين الاستعمار والتخلف •

وجاءت الثورة العربية التي فجرها وقادها عبدالناصر واعية بعمق أبعاد النضال العربي ، فأنهت الانفصال الحاد بين تلك الأبعاد ، وحددت على أساسها اهداف النضال العربي ، وبلورت فكرة القومية العربية وخلصتها من التناقضات وأرستها على أسس علمية • فدخلت الدعوة القومية مرحلة النضج •

في (فلسفة الثورة) تحدث عبدالناصر عن الدائرة العربية التي اعتبرها من « اهم الدوائر الثلاث وأوثقها ارتباطا بنا ووصفها » بأن هذه الدائرة منا ونحن منها » • فقال موضحا الاسس التي يقوم عليها هذا الاعتبار •

« فلقد امتزجت معنا بالتاريخ وعانينا معها نفس المحن، وعشنا نفس الأزمات ، وحين وقعنا تحت سنابك خيل الغزاة كانوا معنا تحت نفس السنابك •

وامتزجت هذه الدائرة معنا ايضا بالدين ، فنقلت مراكز الاشعاع الديني في حدود عواصمها ، من مكة ، الى

الكوفة ، ثم الى القاهرة • ثم جمعها الجوار في اطار ربطته كل هذه العوامل التاريخية والمادية والروحية » •

وأعلن عبد الناصر حقيقة وحدة الامة العربية ، وحدة بعلمية مقومات وحدتها • وشرح في خطب كثيرة ذلك كله •• وقد انطلق صوته من على منبر الأمم المتحدة يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٦٠ مخاطبا الأسرة الدولية وقائلا :

« اننا لنعلن اننا نؤمن بأمة عربية واحدة • لقد كانت للأمة العربية دائما وحدة اللغة •• ووحدة اللغة هي وحدة الفكر • وكانت للأمة العربية وحدة التاريخ •• ووحدة التاريخ هي وحدة الضمير • ولسنا نرى أساسا قوميا أمتن من هذا الاساس » •

وحرص عبد الناصر أن يتضمن الميثاق الوطني الذي قدمه للشعب في مايو ١٩٦٢ اثبات مقومات القومية العربية •

« ان الأمة العربية لم تعد في حاجة الى انتثبت حقيقة الوحدة بين شعوبها •

لقد تجاوزت الوحدة هذه المرحلة واصبحت حقيقة الوجود العربي ذاته يكفي أن الامة العربية تمتلك وحدة اللغة التي تصنع وحدة الفكر والعقل •

ويكفي ان الامة العربية تملك وحدة التاريخ التي تصنع وحدة الضمير والوجدان •

ويكفي ان الامة العربية تملك وحدة الامل التي تصنع وحدة المستقبل والمصير » •

وحددت الثورة العربية التي قادها عبد الناصر بعد المكان فيالقومية

العربية . وحققت شمول الدعوة اليها . فكان نداء اذاعة صوت العرب الذي انطلق لأول مرة في صيف ١٩٥٣ يردد جملة من احدى خطب عبد الناصر تقول :

« كلنا سنعمل ، كلنا سندافع عن عروبتنا ، حتى يمتد الوطن العربي من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي »

وقد أكد عبدالناصر هذا التحديد الشامل في خطابه في الاحتفال باعلان الدستور عام ١٩٥٦ حين قال :

« ان الكيان العربي يمتد منا لمحيط الاطلسي الى الخليج العربي . كلنا شعب واحد . شعب عربي واحد ، نكافح جميعا متحدين متكاتفين من اجل حقنا في الحرية ، ومن اجل حقنا في الحياة . نكافح جميعا ضد الاستعمار ، وضد أعوان الاستعمار ، ولن تنقطع اوصالنا مرة اخرى ، كما قطعت بعد الحرب العالمية الاولى .

وأوضحت الثورة العربية بجلاء البعد التاريخي لفكرة القومية العربية ، وذلك من خلال النظرة العلمية لتاريخ المنطقة الذي يؤكد بأن مراحل نضال الامة العربية فيه متصلة متتالية . ومن ثم فان جذور هذا النضال تمتد عبر الزمان الى الماضي البعيد . واذا كانت الامة العربية قد اكتمل تكونها كأمة في القرن الهجري الاول بعد الانطلاق العربي بالاسلام فان اصولها تمتد في المنطقة عبر آلاف السنين السابقة .

من هذه النظرة انطلق الميثاق الوطني في حديثه عن جذور النضال المصري وأوضح الصلة بين حاضر الامة العربية وماضيها البعيد والقريب. وحسم في مسألة الموقف من تاريخ المنطقة القديم وحضاراتها فيه . فلم يعد

موقف تعارض او تناقض يعبر عنه بالعداء المتشنج ، أو موقفا اقليميا اتهازيا يقفز الى الماضي البعيد لينكر الانتماء العربي • وانما اصبح موقف الوعي بترابط مراحل تاريخ المنطقة، والاعتزاز بما قدمته المنطقة للعالم من تراث حضاري ، والاستفادة من عبرة هذا الماضي لفهم الحاضر وبناء المستقبل • وهكذا سجل الميثاق :

« منذ زمان بعيد في الماضي ، لم تكن هناك سدود بين بلاد المنطقة التي تعيش فيها الأمة العربية الان •

وكانت تيارات التاريخ التي تهب عليها واحدة ، كما كانت مساهمتها الايجابية في التأثير على هذا التاريخ مشتركة • ومصر بالذات لم تعش حياتها في عزلة عن المنطقة المحيطة بها ، بل كانت دائما ــ بالوعي وباللاوعي في بعض الاحيان ــ تؤثر فيما حولها وتتأثر به ، كما يتفاعل الجزء مع الكل • وتلك حقيقة ثابتة تظهرها دراسة التاريخ الفرعوني صانع الحضارة المصرية والانسانية الاولى » •

ومن هذه العملية التي انطلق منها الميثاق في حديثه عن المنطقة ومصر يمكن الحديث عن كل جزء عربي ، فيشدد الموقف الايجابي من حضارات المنطقة جميعها وتاريخها القديم عموما •

ويلاحظ المتتبع لأقوال عبد الناصر انه لم يستشعر علميا وجود هذا التناقض التاريخي المصطنع ، بل انه على العكس استفاد من البعد التاريخي ليؤكد مفهوم القومية العربية •

« •• ايمان العرب بالقومية سابق لثورة مصر بكثير • ولقد حاول العرب قبل الثورة عدة محاولات ولم ولم تكن ثورتنا الا قوة دافعة جديدة لنفس الفكرة القديمة » •

(حديث نشر في ٢٨ ـ ١ ـ ٥٩ مع الصحفي البريطاني ودرو ويات) ..

وكان عبد الناصر كثيرا ما يشير في هذا المجال الى امتداد جذور الامة العربية في المنطقة آلاف السنين . كما أنه حرص عمليا في مصر على العناية بآثار الحضارة المصرية القديمة ، ولم يلتفت للأصوات التي عانت من ذلك التناقض حين وجهت النقد لمظاهر اعتزاز الثورة العربية بماضي مصر البعيد . وكان هذا الموقف العلمي من التاريخ الذي وقفه عبدالناصر تأكيدا لما ذكره الميثاق كواحدة من ضمانات تمكن النضال الشعبي من توفيرها وهي :

« وعي عميق بالتاريخ وأثره على الانسان المعاصر من ناحية ؛ ومن ناحية اخرى لقدرة هذا الانسان بدوره على التأثير في التاريخ » .

وبسبب هذا الوعي العميق بالتاريخ ، وبحقائق الواقع في منطقة الوطن العربي حل عبدالناصر مشكلة التصادم بين الوطنية والقومية التي برزت تعبيرا عن التطرف الحاد للاقليميين والقوميين . واتخذ موقفا يقوم على الاعتراف بوجود المشاعر الوطنية والمشاعر القومية على السواء ، ولا يرى تناقضا بينهما . وقد عنى هذا الموقف رفض تضخيم المشاعر الوطنية لتطغى ولتنكر الانتماء القومي ، وتجلى هذا الرفض بقوة عقب نكسة الانفصال عام ٦١ ونكسة الهزيمة عام ٦٧ حين تحرك الاقليميون ونشطت الحرب النفسية ضد الانتماء القومي . كما عني هذا الموقف رفض انكار المشاعر الوطنية من اجل تأكيد الانمتاء القومي ، وهو ما فعله بعض غلاة القوميين . فكان موقف عبد الناصر تعبيرا عن تحقيق التوازن بين الوطنية والقومية ... التوازن الذي يرجع مردوده لصالح تثبيت الفكرة القومية. ولقد شرح عبد الناصر رأيه هذا في مناسبات كثيرة، كما جسده عمليا في

سياسته • وأوضحه على الخصوص بعد عام ٦٧ حين ركز الغرب على تتبع نمو المشاعر الاقليمية في المنطقة • وحين سأله جيمس رستون رئيس تحرير نيويورك تايمز في ١٥ ــ ٢ ــ ٧٠ « هل هناك ازدياد في الشعور بالوطنية المصرية » أجاب عبد الناصر :

« قبل سنة ٦٧ كان الشعور الاكثر ظهورا هو الشعور بالقومية العربية ، وبعد سنة ٦٧ ظهر ايضا الشعور بالوطنية المصرية الى جانب الشعور بالقومية العربية ، وأظنك تعرف انهم عرضوا علينا صيغا تنص على الانسحاب من سيناء وحدها ، ولم يوافق احد على ذلك • وهذا هو الشعور بالقومية العربية • والحقيقة انه ليس هناك تناقض بين الشعور بالقومية المصرية والقومية العربية » •

كما اعترف عبدالناصر بوجود اختلاف في الواقع الحالي لأجزاء الوطن العربي في اجابته على سؤال لرئيس مجلة لوك الاميركية في ٤ ــ ٣ ــ ١٩٦٨ ولكنه أكد توجه الأمة نحو الوحدة وأكد الروابط التي تجمع بينها •

« •• الاختلاف أمر طبيعي ، وعلى سبيل المثال فاننا لم نستطع ان نطبق القوانين المصرية في اليمن • ومن العسير ان تكون هناك وحدة كاملة في الأسرة الواحدة • ويوم كنت أتحدث عن الوحدة العربية فيما بين سنوات ٥٢ ــ ٥٨ فانني لم أكن اتحدث عن الوحدة الدستورية لكن العالم العربي كان متحدا في يوم من الايام • الوحدة لا تزال هدفنا ،و الأشياء التي توحد بيننا اكثر من التي تفرق بيننا • ومن الطبيعي ان الامر يحتاج الى وقت • فقد

يتفق شعبان على الاندماج في شعب واحد ثم ينضم اليهما ثالث وهكذا » •

ولم يخف عبدالناصر كعربي من مصر اعتزازه باسم مصر تعبيرا عن المشاعر الوطنية ، ولكنه في الوقت نفسه أعلن بفخر اسم الجمهورية العربية المتحدة الذي يشمل مصر وسوريا تعبيرا عن الهدف القومي ؛ وتمسك بهذا الاسم بعد الانفصال ليؤكد هذا المعنى •

كذلك أوضحت الثورة العربية البعد الروحي في فكرة القومية العربية ؛ فخلصت الفكرة من تناقض بارز عانى منه بعض دعاة القومية في المرحلة العاطفية • وانطلقت الثورة العربية في توضيحها من الوعي بأهمية البعد الروحي في صياغة فكرة القومية العربية •

تناول عبد الناصر هذا البعد الروحي بالحديث في فلسفة الثورة في معرض حديثه عن منطقة الوطن العربي وعناصر قوتها • فرأى لشعوب المنطقة

« خصائص ومقومات وحضارة انبعثت في جوها الاديان السماوية المقدسة الثلاث ؛ ولا يمكن قط اغفالها في محاولة بناء عالم مستقر يسوده السلام »•

وتجلى البعد الروحي في تحديد الدائرة العربية التي من مقوماتها الدين ••

« امتزجت هذه الدائرة معنا بالدين فنقلت مراكز الاشعاع الديني في حدود عواصمها من مكة الى الكوفة ثم الى القاهرة » •

وكان البعد الروحي احد منطلقات الميثاق الوطني الذي سجل اهمية هذا البعد في الفكرة القومية العربية •

« ان شعبنا يعتقد في رسالة الاديان ، وهو يعيش في المنطقة التي هبطت عليها رسالات السماء » .

كما أورد الميثاق القيم الروحية كاحدى الضمانات التي تمكن النضال الشعبي من توفيرها لتتحقق الثورة وهي :

« ايمان لا يتزعزع بالله ، وبرسله ورسالاته القدسية التي بعثها بالحق والهدي الى الانسانية في كل زمان ومكان » .

وأكد الميثاق أهمية القيم الروحية في اسعاد الانسان وصنع التقدم حين قال :

« ان القيم الروحية الخالدة النابعة من الأديان قادرة على هداية الانسان ، وعلى اضاءة حياته بنور الايمان ، وعلى منحه طاقات لا حدود لها من اجل الخير والحق والمحبة » .

ونظر الى رسالات السماء في جوهرها فكشف عن حقيقتها الثورية :

« ان رسالات السماء كلها في جوهرها كانت ثورات انسانية استهدفت شرف الانسان وسعادته » .

وخلص الميثاق القيم الروحية مما تراكم عليها ، وحسم في مسألة التفريق بين الدين في جوهره وبين استغلال الرجعية للدين . فاتخذ موقفا علميا وتجاوز رافضا موقف رد الفعل الذي وقفه بعض دعاة القومية أو دعاة الأممية الطبقية من الدين في المرحلة العاطفية .

« ان جوهر الرسالات الدينية لا يتصادم مع حقائق الحياة ، وانما تنتج التصادم في بعض الظروف من محاولة

الرجعية ان تستغل الدين ضد طبيعته وروحه لعرقلة التقدم، وذلك بافتعال تفسيرات له تتصادم مع حكمته الالهية السامية » .

وحدد الميثاق الصلة بين الدين والعلم .

« ان الدين الحق ، والعلم الحق هما تصوير متكامل لجوانب الوجود . ان جوهر الأديان يؤكد حق الانسان في الحرية وفي الحياة » .

وفرق الميثاق بين التمسك بالدين وبين التعصب

« ان الاقناع الحر هو القاعدة الصلبة للايمان . والايمان بغير الحرية هو التعصب . والتعصب هو الحاجز الذي يصد كل فكر جديد ، ويترك اصحابه بنأى عن التطور المتلاحم الذي تدفعه جهود البشر في كل مكان » .

وأخيرا فقد اوضح الميثاق دور الاسلام في تكون الامة العربية وتحقيق انطلاقاتها .

« وكان الفتح الاسلامي ضوءا ابرز هذه الحقيقة وأنار معالمها وصنع لها ثوبا جديدا من الفكر والوجدان الروحي.

وفي اطار التاريخ الاسلامي ... وعلى هدى رسالة محمد (ص) قام الشعب المصري بأعظم الادوار دفاعا عن الحضارة والانسانية » .

وعبّر عبد الناصر في أقواله وأعماله ومسلكيته عن جميع هذه المعاني مؤكداً البعد الروحي في فكرة القومية العربية ومستلهما الارادة الجماهيرية للأمة العربية . وكان ذلك عاملا رئيسيا في صنع العروة الوثقى

بين القائد والجماهير ، وذا فعالية كبيرة في تأثيره القيادي . فهـذا عبـد الناصر يطلـق صيحـة الثـورة في أغسطس ١٩٥٣ فيضمنهـا المعنـى الروحـي .

« أيها الأحـرار في كل مكان ... اصبروا وصابروا وجاهدوا في الله حق جهاده ، واحرصوا على الموت توهب لكم الحياة » .

وحين يدهم مصر العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ يتجـه عبد الناصر الى الجامع الأزهر ليطلق صيحة الثورة من على منبره معلنا :

« سنقـاتـل ..... » .

وينقل عبد الناصر في شرحه لمفهومه للدين في مناسبات عدة . فيقول في حفل تكريم الاسقف مكاريوس يوم ٣ يونيو ١٩٦١ مبينـا الترابط بين البعد الروحي والبعد الوطني .

« الارتباط بين الدين والوطنية وثيق ومتين ، فكـل دعوة منهما دعوة دين ، وكل انتفاضة منهما انتفاضةوطنية. وهي في الحقيقة نداء الحرية ، أحدهما من نور الله والثاني من انعكاس هذا النور على ضمائر البشر » .

ويقول في عيد الوحدة يوم ٢٢ فبراير ١٩٦٢ عن الدين :

« هو دين العدالة ، وديـن المساواة بكل معانيـه . الدين الاسلامي ضد الظلم الاجتماعي ، وضد الاستعمـار بكل معانيه . ان الدين الاسلامي كان أول ثـورة وضعت المبادىء الاشتراكية الخاصة بالعدالة والمساواة » .

ويرد عبد الناصر على الذين هاجمـوا تمسكـه بالديـن من بعض

الأحزاب القومية في المشرق فيقول يوم ٢٨ يوليو ١٩٦٣ من جامعة اسكندرية :

« ... شعبنا شعب دين تمسك بالدين وبهذا نشعر انه شعب طيب ... الدين هو الذي يجمع بين فئاته ... الدين هو المرشد الصحيح لكل انسان ... ثورتنا كانت دائما تفرق بين الحلال وبين الحرام ... والثورة من الشعب . احنا نفتخر ان احنا تتمسك بالدين . كل واحد منا وفقا لدينه المسلم يتمسك بدينه والمسيحي يتمسك بدينه ؛ لأن الدين في هذا يمثل الطريق الصحيح ، الطريق السليم .

اذا كان « البعض » يعتقدون أن الأفكار الدينية هي أفكار عفنة ؛ فنحن نقول ان الأفكار الملحدة هي الأفكار العفنة ... والأفكار المبنية على الدين هي الأفكار التي تعبر عن ارادة الشعب وهي الأفكار التي تنمو وتترعرع » .

هذا الموقف الايجابي العلمي الذي وقفه عبد الناصر من الدين استقطب تأييد الجماهير العربية ، وفي الوقت نفسه كان محل هجوم قوى اليمين واليسار ... اليمين الانكماشي يراه بدعا وتجديدا وادعاء . واليسار الانغماسي يراه رجعية وتأخرا [1] . ولذا فقد عجزت هذه القوى عن فهم ايديولوجية الثورة العربية وبعدها الروحي وبالتالي عن الالتحام بجماهير الأمة العربية وبعبد الناصر . كما عجزت قوى اليسار على

---

(١) انظر عن الانكماشيين والانغماسيين النكبة والبناء للدكتور وليد قمحاوي .

الخصوص عن ادراك القوى الايجابية التي تفجرها القيم الروحية في الجماهير ... وهو ما أدركه عبد الناصر بعمق وأحسن الاستفادة منه . وكما أوضح مطاع صفدي في معرض مناقشته لعلاقة الثورة الناصرية بالايدلوجية الدينية « فليس رصيد الانفعال الجماهيري بالغيبيات التقليدية ، مجرد قوة سلبية تخلفية دائما . بل ان هذا الرصيد تتوقف نتائجه على الارادة السياسية القادرة على استخدامه باتجاه أهداف ايجابية وتقدمية . فان مفاهيم العدالة والاخلاص ، والتحابب والتعاضد والنضال لحماية الثورة والوطن والزعامة الثورية في اللحظات الفاصلة ، هي أهداف ايجابية خطيرة ، يمكن تحويل رصيدها من الانفعال الجماهيري .. الى خدمة قضايا تقدمية واقعية وسحبها من تحت سلطة الاستثمار السياسي الرجعي »[1] . هذا علما بأن عبد الناصر لم يستسلم للمفهوم التقليدي للدين وانما طرح المفهوم الصافي له . ولذا فان موقفه هذا لم يكن تكتيكا مرحليا وانما كان استراتيجية ثابتة .

وانطلاقا من هذا الموقف الثابت ووعيا لدور القيم الروحية في الصمود أمام النكسات أعلن عبد الناصر يوم ٢٣ يوليو ١٩٦٧ بعد النكسة مباشرة في معرض مطالبته مع الشعب بالنقاء الثوري والطهارة الثورية .

« لا بد من التمسك بقيم الدين والاعتصام بها » .

وعبّر عبد الناصر عن ايمانه بتأثير القيم الروحية في متابعة النضال الثوري وبترابطها مع المشاعر القومية . ونضرب مثلا بخاتمة حديثه بمناسبة مرور عام على النكسة .

« فلنفتح صدورنا اليوم لشعاع الأمل ، ولتكن ثقتنا

---

(١) مطاع صفدي : ناصر الناصرية ، ص ١٨٦ .

بالنفس غير مترددة ، فان الثقة بالنفس على الحق هي الثقة بالله صاحب كل حق وناصره ، وليكن رضا الله رحمة تحيط بكل شهدائنا . ولتكن روحه القدسية عزما يشد أزر أبطالنا ولتكن لدينا من لدنه شجاعة العقل وشجاعة القلب ، لنقرر ما لا بد أن نقرره وتتحمل ما لا بد أن تتحمله ونحقق ما لا بديل على الاطلاق لتحقيقه ، نصرا كريما عزيزا واضحا » .

وكما عبر عبد الناصر عن الايمان بالقيم الروحية وقودا للثورة ، رأى الترابط بين البعدين الروحي الديني والطبقي الاجتماعي فطرحه على الجماهير ليكون الدين دافعا للثورة الاجتماعية وليكون التغيير الاجتماعي تعزيزا للدين وقيمه . ومن أقواله الكثيرة في هذا المجال قوله في يوليو ٦٢ .

« الاشتراكية هي الكفاية والعدل ، هي العدالة الاجتماعية .. التخلص من الاستغلال .. الاشتراكية بهذا المعنى هي شريعة العدل .. شريعة الله .. شريعة الله تأبى أن يكون الغنى ارثا والفقر ارثا » .

وقوله في مارس ٦٨ لأعضاء المكاتب التنفيذية بالقاهرة والجيزة .

« ديننا دين اشتراكي وكما قلنا مرارا ان الاسلام في القرون الوسطى حقق أول تجربة اشتراكية في العالم » .

وهكذا حقق عبد الناصر توازنا عقائديا كفيل لو حرص عليه أن يكون ابرازا لجوهر الدين وتجديدا لتعاليمه بما يلائم متطلبات العصر .

● ●

وأخيرا أوضحت الثورة العربية بجلاء البعد الطبقي لفكرة القومية العربية فخلصتها من تناقض بارز عانت منه في مرحلة الدعوة العاطفية . وانطلقت في هذا المجال من وعي أصيل بعبر النضال العربي في مراحله المتعاقبة على مدى قرون ، ووعي أصيل بحركة التاريخ في المنطقة وفي العالم عموما .

وهكذا برزت الثورة العربية ثورة اجتماعية فضلا عن كونها ثورة سياسية وحدوية . واستقرت القومية العربية كفكرة اجتماعية في أحد أبعادها . ولقد أوضح عبد الناصر هذا المعنى في فبراير ١٩٥٩ حين قال :

« ان القومية العربية ليست فقط حركة سياسية ، انما هي فلسفة اجتماعية . انها نداء عاطفي ، وهي مصلحة مشتركة ، وهي ضرورة استراتيجية ، ولكنها قبل هذا كله فلسفة اجتماعية . وكما هي شعارات ؛ لا بد أن تكون أيضا تخطيطا اجتماعيا . وكما هي جموع وحشود لا بد أن تكون قضية اقتصادية كاملة . وكما هي طاقة حماس ؛ لا بد أن تكون جهدا وعرقا . وكما هي حلم لا بد أن تترجم الى شمول لائق لجميع العرب . تلك هي الغاية للقومية العربية ، وذلك انه لا كرامة لجائع ولا قوة لمريض ولا طمأنينة لمن لا بيت له ولا مقاومة ولا صمود لمن لا يطمئن الى غده ، ولمن لا يشعر بأن حوله مجتمعا يكفله ويرعاه لا يسلبه حقه ولا يستغله ومن ثم لا يهدد حريته » .

وكان هذا البعد قد اتضح في ثورة ٢٣ يوليو منذ أيامها الأولى . وقد تحدث عبد الناصر في فلسفة الثورة عن الثورتين السياسيةوالاجتماعية للشعوب وأوضح :

« ان الثورة الاجتماعية تتصارع فيها طبقات الشعب، ثم يستقر الأمر فيها على ما يحقق العدالـة لأبناء الوطـن الواحد • •

وان التجربة الهائلة التي امتحن بها شعبنا هي ان تعيش الثورتان معا في وقت واحد » •

وهكذا اتجهت ثورة ٢٣ يوليو منذ أيامها الاولى وجهـة الثورة الاجتماعية • وبان ذلك من خلال المبادىء الستة التي أعلنتها • وسارت في هذا الطريق وهي تخوض تجربة عربية أصيلة متطورة حتى بلورت هدف الاشتراكية باعتبار أن الاشتراكية هي وحدها القادرة على تحقيق مجتمع الكفاية والعدل ؛ وعلى التعبير عن البعد الطبقي في فكرة القومية العربية• وكان هذا الهدف انعكاس أمين للتاريخ العربي بما استقر فيه من مبادىء وما تفاعل فيه من قيم •

وحين صدر النظام الأساسي للاتحاد القومي في أول نوفمبر ١٩٥٧ تضمن بوضوح •

« انه يهدف لاقامة مجتمع اشتراكي ديموقراطي تعاوني متحرر من الاستغلال السياسي والاجتماعي والاقتصادي»•

وهكذا تحددت الاشتراكية كهدف • وحين صدر الميثاق عام ١٩٦٢ تضمن شرحا علميا محددا لهذا الهدف تجاوز به مجرد طرحـه كشعار • وفصل في تبين منطلقاته ومضمونه ودعاماته وحتميته • كما قرنه بهدف الديموقراطية السليمة • وقد استغرق هذا الجانب من الميثاق حوالي ثلثي عدد صفحاته • ولا يتسع المجال لاستشهادات طويلة منه ولذا نكتفـي برؤوس أقلام من تحديداته وأنموذج لنصوصه ••

« الحرية الاجتماعية طريقها الاشتراكية ...
الاشتراكية دعامتها الكفاية والعدل ..
الحل الاشتراكي حتمية تاريخية ..

الاشتراكية العلمية هي الصيغة الملائمة لايجاد المنهج الصحيح للتقدم .. » .

« انالديموقراطية هيتوكيد السيادة للشعب ، ووضع السلطة كلها في يده ، وتكريسها لتحقيق أهدافه ..

ان الاشتراكية هي اقامة مجتمع الكفاية والعدل . مجتمع العمل وتكافؤ الفرص . مجتمع الانتاج ومجتمع الخدمات ..

ان الديموقراطية هي الحرية السياسية ، والاشتراكية هي الحرية الاجتماعية ، ولا يمكن الفصل بين الاثنين ، انهما جناحا الحرية الحقيقية » .

وحدد الميثاق السبل اللازمة لتطبيق الحل الاشتراكي . واستقر هذا التطبيق على أسس ثابتة من خلال التجربة العربية الثورية ، فأصبح التطبيق العربي للاشتراكية معبرا عن مبادىء الثورة العربية بأسلوب الاشتراكية العلمية .

ولقد قام عبد الناصر بأعظم دور في الدعوة الى الاشتراكية والتبشير بها ، وحقق في هذا المجال كقائد تلتحم به الجماهير ما لم تستطع تحقيقه تنظيمات كثيرة على مدى سنين . وتميز أسلوبه في الدعوة والتبشير

بالبساطة والعلمية والسهولة بحيث تنفذ الى ضمير الشعب • ونضرب مثلا على ذلك خطابه في مؤتمر المبعوثين يوم ١٦ مايو ١٩٧٠ حين يقول :

« بنأخذ الأمور بمنتهى البساطة ونبسط للناس ، بنتكلم ما هي الاشتراكية احنا عاوزين ايه ، يعني انا نوبة قعدت مع ناس وبأقول لهم أنا عايز ايه اسألوني ؟ أنا عاوز أشغل الأولاد وأجوز البنات زي أي عائلة ••

طيب كيف نستطيع أن نحقق هذا نبسطها كده ••• يبقى لازم نعمل تنمية ، لازم نعمل زراعة ، ولازم نعمل صناعة ولازم نعمل كذا • وبكده نبقى فعلا بنحقق الهدف أو بنقول عاوزين نمنع استغلال الانسان للانسان » •

ويقول في مؤتمر الانتاج :

« ان الاشتراكية ليست متاهات فلسفية ، وليست شعارات ذات طنين •• انها في النهاية بيت سعيد لكل أسرة ، يقوم على عمل القادرين او المهيئين للعمل رجالا ونساء •• بيت مفتوح للصحة والعلم وللثقافة مظللا بالأمان الاجتماعي ضد المفاجآت متفاعلا مع غيره من البيوت السعيدة ، مشتركا معها في أمر الاهتمام العام بأمر وطنه وبأمور العالم الذي يعيش فيه » •

وانطلق عبد الناصر في ايمانه بالاشتراكية من اعترافه بالصراع الطبقي ووعيه أن البعد الطبقي بعد أساسي في فكرة القومية العربية يتفاعل مع أبعادها الأخرى ونراه يقول في ١٩ أبريل ١٩٥٤ :

« من أجل لقمة العيش كانت هناك معركة دائمة
بين الفلاح وصاحب الأرض التي اغتصبها بغير حق .

لا نستطيع ان نقول اننا كنا نعيش في مجتمع بدون
طبقات . كان فيه طبقة مستغلة وطبقة مسيطرة .. كان فيه
طبقة متحكمة ، وكان فيه طبقة تعمل وتبذل كل جهدها ..
لتستفيد تلك الطبقة التي تمثل أقلية هذا الشعب » ..

ويقول في مؤتمر المبعوثين بالاسكندرية يوم ١٥ أغسطس ١٩٦٥ :

« فيه عندنا طبقات كثيرة وفيه صراع طبقي . فيه اللي
لا يملك أرض وفيه اللي بيملك أرض » .

ورأى عبد الناصر أن حل الصراع الطبقي يكون بحل التناقضات في المجتمع بالوسائل السلمية وتذويب الفوارق بين الطبقات والانتقال من ديكتاتورية الرجعية الى ديموقراطية الشعب ، متجنبا ما أمكن العنف. وان لم يستبعد العنف في حالة دفاع الثورة عن نفسها . وقد سجل الميثاق .

« الصراع الحتمي والطبيعي بين الطبقات لا يمكن
تجاهله أو انكاره ، وانما ينبغي أن يكون حله سلميا في اطار
الوحدة الوطنية وعن طريق تذويب الفوارق بين الطبقات» .

ويقول عبد الناصر في اللجنة التحضيرية :

« احنا بنقول عايزين نحل التناقضات بالوسائل
السلمية . ولم نستبعد في الميثاق العنف . وقلنا اذا الرجعية

لم تسر معنا واذا أخذت فترة لتهاجمنا بندخل معها في العنف الى أقصى حد ممكن » .

وطرح عبد الناصر صيغة تحالف قوى الشعب العامل لتحقيق الحل السلمي رافضا صيغة الحزب البروليتاري بعد أن رفض دموية الصراع . وقد عنى ذلك عدم تسليمه بما قالته الماركسية في المادية الجدلية . وهو يقول في اللجنة التحضيرية :

« لن ننقل الديكتاتورية من طبقة الى طبقة ولا بندخل في حرب أهلية . فقط ننقل من ديكتاتورية الرجعية الى ديموقراطية الشعب بأجمعه .. ونحن نقول بنحل مشاكلنا بدون اراقة الدماء » .

وقد شرح عبد الناصر باسهاب اختلاف نظرة الثورة العربية في حل الصراع الطبقي على كل من الحلين الرأسمالي والماركسي ، وأكد أن الحل المناسب لنا .

« هو أن نقيم حكما لتحالف قوى الشعب العاملة .. اللي هي العمال والفلاحين والجنود والمثقفين والحرفيين أو الرأسمالية الوطنية .

اذن هذا يختلف كلية عن النظريتين .. » .

وبشر عبد الناصر بالديموقراطية الاشتراكية التي ترى ان الديموقراطية تبدأ من الانتاج وهي ديمقراطية المنتجين . والديموقراطية الاشتراكية عنت البحث عن الاشكال والمؤسسات الجديدة التي تؤدي الى توسع لم يسبق له مثيل في ممارسة الشعب للديموقراطية . وكما شرحها عبدالناصر في العيد العاشر للثورة .

« ديموقراطية الاشتراكية تختلف عن ديموقراطية الرجعية التي جربناها في الماضي •• والتي كانت تعني أن تتحكم فئة من الاقطاعيين وقلة من الرأسماليين وقلة من الانتهازيين السياسيين اللي يبيعوا أنفسهم للاقطاعيين والرأسماليين ويستولوا على السلطة وعلى الدولة من أجل مصالحهم •

أما الديموقراطية الاشتراكية فهي ديموقراطية الشعب العامل الذي له الحق في ناتج عمله وله الحق في بلده • ديموقراطية الاشتراكية هي الديموقراطية الاجتماعية مع الديموقراطية السياسية ••• هي القضاء على الاقطاع والاحتكار وسيطرة رأس المال وايجاد الفرص المتكافئة للجميع •• » •

كما قال عنها في افتتاح مجلس الأمة يوم ٢٥ ـ ٣ ـ ٦٤ مبينا دور التنظيم فيها :

« انالديموقراطية عملة واحدة ذات وجهين سياسي واجتماعي • وبغير الوجهين معا تصبح عملة زائفة لا سعر لها ولا قوة •

ان الديموقراطية لا تتحقق في كمالها الا بقيام التنظيم السياسي شامخا واقفا لها • والا بقيام المجالس الشعبية المنتخبة توقع بارادة الجماهير الحرة كل قرار • وتؤكد بالفعل لا بمجرد القول انصوت الشعب منصوت الله » •

وأوضح عبد الناصر أن هذه الاشتراكية علمية بمعنى أنها قائمة على

العلم . وهذا لا يعني أنها مادية أو ماركسية . وأكد أنها لا تنكر الدين بل تؤمن به وترى فيه سندا لها . كما رأى أن تطبيقها في الوطن العربي هو التطبيق العربي للاشتراكية . فنراه يقول أمام مجلس الأمة في ١٢ نوفمبر ١٩٦٤ :

« احنا اشتراكيتنا هي اشتراكية علمية ، قائمة على العلم وليست قائمة على الفوضى . مقلناش انها اشتراكية مادية .. مقلناش ان احنا اشتراكيتنا ماركسية . ومقلناش احنا خرجنا على الدين . بل قلنا ان ديننا هو دين اشتراكي » .

وهكذا يكون عبد الناصر قد قدم اضافات الى الفكر الاشتراكي من خلال تصوره لهذه الاشتراكية العربية . وينبغي أن نلاحظ أن سلطة الدولة هي التي أحدثت التغيير نحو الاشتراكية ، وهي التي قادت التحول الاجتماعي ، وذلك في غياب التنظيم الثوري . ولقد كان لهذه الحقيقة سلبياتها التي تستحق مناقشة خاصة عند تقويم التجربة ككل ولكن التجربة حققت نجاحا على الرغم من السلبيات . كما أن التجربة أثبتت أنه يمكن أن تقوم ثورة اشتراكية في دول العالم الثالث عموما دون أن تعتمد في قيادتها على ديكتاتورية البروليتاريا . وأثبتت ايضا ان الدين في جوهره هو دافع للتقدم البشري وليس معوقا للتقدم أو « أفيونا » للشعوب . واعترفت التجربة بالملكية الفردية غير المستغلة . وأخيرا أوضحت على لسان عبد الناصر في حديثه للشباب في حلوان :

« ليست هناك بابوية في الاشتراكية ومفيش نصوص جامدة ولا نصوص ناشفة » .

وهكذا أوضح عبد الناصر بجلاء البعد الطبقي في فكرة القومية العربية وبيّن تلاحمه بأبعادها الأخرى .

بهذا التحديد الواضح لأبعاد فكرة القومية العربية خلص عبدالناصر الفكرة من تناقضاتها ونقلها من مرحلة العاطفية الى مرحلة النضج.فنضجت فكرة الثورة العربية الواحدة الشاملة المعبرة عنها والقادرة على تحقيق الآمال العربية .. ولقد عرّف عبد الناصر هذه الثورة بقوله في نوفمبر ١٩٦٥ :

« ان الثورة العربية الشاملة لا يمكن ان تكون مجموعة من المغامرات او الانقلابات ، وانما هي الحركة التاريخية لجماهير الأمة العربية للقفز عبر التخلف .. الى التقدم السياسي والاجتماعي والثقافي مستندة على القيم الحضارية للأمة العربية محققة بالنضال الثوري أهدافها » .

وأكد عبد الناصر في الميثاق :

« ان الثورة هي الطريق الوحيد الذي يستطيع النضال العربي أن يعبر عليه من الماضي الى المستقبل .

والثورة هي الوسيلة الوحيدة التي تستطيع بها الأمة العربية أن تخلص نفسها من الاغلال التي كبلتها ومن الرواسب التي أثقلت كاهلها . .

والثورة هي الوسيلة الوحيدة لمغالبة التخلف الذي أرغمت عليه الأمة العربية كنتيجة طبيعية للقهر والاستغلال.

والثورة بعد ذلك هي الوسيلة الوحيدة لمقابلة التحدي

الكبير الذي ينتظر الأمة العربية وغيرها من الأمم التي لم تستكمل نموها » .

وحدد عبد الناصر أهداف النضال العربي التي تبلورت من خلال مراحله المتعاقبة معبرة عن فكرة القومية العربية . وأعلن في الميثاق أن الثورة مطالبة بأن تشق طريقا جديدا أمام هذه الأهداف :

« ان عهودا طويلة من العذاب والأمل بلورت في نهاية المطاف أهداف النضال العربي ظاهرة واضحة ، صادقة في تعبيرها عن الضمير الوطني للأمة وهي الحرية والاشتراكية والوحدة .

« لقد أصبحت الحرية الآن تعني حرية الوطن ، وحرية المواطن . وأصبحت الاشتراكية وسيلة وغاية ، هي الكفاية والعدل . وأصبح طريق الوحدة هو الدعوة الجماهيرية لعودة الأمر الطبيعي لأمة واحدة مزقها اعداؤها ضد ارادتها وضد مصالحها ، والعمل السلمي من أجل تقريب يوم هذه الوحدة . ثم الاجماع على قبولها ، تتويجا للدعوة والعمل معا .

لقد كانت هذه الأهداف نداءات مستمرة للنضال العربي ، ولكن الثورة العربية الآن تواجه مسؤولية شق طريق جديد أمام هذه الأهداف » .

ذلك ما حققته الثورة العربية التي قادها عبدالناصر في مجال بلورة فكرة القومية العربية وتحديد أهداف النضال العربي المنطلق منها والمعبر عنها . وقد عنى هذا الذي تحقق على مستوى الوطن العربي استقرار

الفكرة على أسس علمية واقعية موضوعية تمكن الثورة من الانطلاق ، وتحقق التحام الجماهير العربية بها .

كما عنى على مستوى مصر خروجها من صراع الايديولوجيات بوضوح الرؤية الكامل لكيانها وجوهرها . وعلى حد قول جمال حمدان « فاذا الاسلامية وحدة عقيدة وتعاون لا وحدة قومية ومصير . واذا وحدة وادي النيل جزء من كل فقط . واذا الوطنية المحلية جزء قاصر من نفس الكل . أما الكل فهو العروبة وحدها ، وقدرنا هو القومية العربية ، ومصير مصر هو الوحدة العربية . وهذا ما عبرت عنه بصورة نهائية وحاسمة مصر الثورة » (١) .

وعنى أخيرا على مستوى العالم الثالث ظهور ثورة التحرير معبرة عن القوة الثالثة ، وطارحة انموذج ثورة العالم الثالث ... ثورة قومية لا طبقية في مقابل ثورات العالم الرأسمالي القومية الطبقية ، وثورات العالم الشيوعي اللاقومية واللاطبقية .

ويوصلنا هذا الحديث عن انجاز عبد الناصر في هذا المجال الى « الناصرية » فلقد خلف عبد الناصر وراءه تراثا من الأقوال والأعمال تضمنتها التجربة العربية الثورية ، تمثل بمجموعها فكر عبد الناصر الذي هو فكر الثورة العربية . وعلى هذا فاننا نرى « الناصرية » كثورة هي مرادف للثورة العربية القومية الشاملة .

ومع أن فكر عبد الناصر انطلق من نظرات ومبادىء لم يكن واضحا في البداية انها تمثل نظرية ، الا أن مسيرة « الناصرية » بلورت هذا

---

(١) شخصية مصر .

الفكر حتى أصبح من الممكن بجهد تبذله الطلائع العربية أن يطرح نظرية متكاملة .. هي النظرية القومية اللاطبقية . ولقد وصف بعض الماركسيين الناصرية بأنها « نظرية للبرجوازية الصغيرة عن الثورة الوطنيةالديموقراطية في عصر الانتقال على النطاق العالمي منالرأسمالية الى الاشتراكية . وانها نظرية للثورة الوطنية المستمرة التي تكتسب مضمونا اجتماعيا صريحا ، ومن ثم تقطع مراحل ثلاثا واضحة هي كسب الاستقلال ثم مرحلة التنمية الاقتصادية ثم مرحلة التحول الاجتماعي . وانها نظرية للثورة الوطنية . وللقضاء على التخلف .. وللتحرر الوطني والتقدم الاجتماعي والوحدة القومية » . ووجهوا اليها النقد بأنها « لم تتخلص بعد من أصولها البرجوازية الصغيرة . ومن ثم تنطوي على تناقضاتها ... التي أخطرها قيامها منهجيا على التجريب والانتقاء » [1] .

والحق أن منهج التجربة والخطأ مثّل مرحلة أولية في التجربة العربية الثورية لم تلبث الثورة أن تخطتها لتصل الى منهج النظرية الذي تضمنه الميثاق . وهكذا فان هذه المرحلة الأولية التي حكمها منهج التجربة والخطأ تنتهي عند صدور الميثاق . وقد سبق أن تعرضنا في المدخل لتفسيرها . ونلاحظ أن عبد الناصر كان واضحا في الحديث عنها حين شرح مسيرة التجربة ، وفي معرض رده على ما رددته بعض الأحزاب العربية القومية من نقد لمنهجه . ومما قاله في جلسات مباحثات الوحدة :

« احنا كان عندنا الشجاعة في أول الثورة نقول ما فيش نظرية .. فيه مبادىء محددة .. ونمشي بالتجربة والخطأ حتى نعمل النظرية .. وحتى نقيم هذه النظرية .

---

(١) فؤاد مرسي ـ الناصرية والنظرية الثورية ، الآداب فبراير ٧١ .

مشينا بالكلام ده عشر سنين •

ومشينا فيالتجربة والخطأ •• وبقينا نقول ان احنـا بنغلط ٤٠ ٪ وبنغلط ٥٠ ٪ •• وبقينا نقول ما عندناش نظرية ••

وبعد كده قدرنا نعمل •• قدرنا نعمل تطبيق ••• وبعدين عندنا تجربة تطبيق ١١ سنة مستمرة أدت أساس للنظرية بالنسبة للحرية وبالنسبة للاشتراكيـة وبالنسبـة للوحدة • كل شيء مبين في الميثاق » •

أما منهج الانتقاء الذي رآه ناقدو الناصرية تناقضا فيها ودللوا عليه بتمييز عبد الناصر اشتراكيته العلمية عن الاشتراكية الماركسية اللينينية مع قوله بالعلمية وبحتمية الحل الاشتراكي ، فان عبد الناصر طرح بوضوح ــ كما سبق أن مر معنا ــ أن صفة العلمية في الاشتراكية ليست حكرا على الماركسية ولا مرادفا لها ، وحدد معنى العلمية •

« احنا اشتراكيتنا هي اشتراكية علمية ، قائمة علـى العلم • اشتراكيتنا علمية وليست قائمة على الفوضى •• مقلناش اناحنا اشتراكيتنا اشتراكية مادية •• ومقلنـاش ان احنا اشتراكيتنا ماركسية » ••

ولقد قصد عبد الناصر من وصفه اشتراكيته بالعلمية التأكيد على استخدام الاسلوب والمنهج العلمي في دراسة حركة المجتمـع ، وبهـذا الاسلوب يكون التفريق بين الاشتراكية العلمية والاشتراكية الخيالية • واذا كانت الماركسية ايضا في القرن الماضي اعتمدت على استخدام الاسلوب والمنهج العلمي فان هذا لا يعني أبدا الوصول الى النتائج التي توصلـت

اليها . لأن الاختلاف بين النتائج كما يقول الدكتور ابراهيم سعد الدين « قد يعود الى أسباب متعددة . فبافتراض وحدة المنهج وأسلوب البحث العلمي فقد ينتج الاختلاف عن بروز عوامل جديدة لم يكن أخذها في الحسبان بواسطة باحثين سابقين ، أو قد ينتج من أن البحث المتعمق في ظاهرة ما قد يوضح أن التعميم السابق للوصول اليه والذي صيغ في قانون علمي هو حالة فقط من ضمن حالات متعددة مما يطرح ضرورة اعادة صياغة القانون السابق ليكون اكثر دقة في التعبير عن الظواهر المتنوعة والمتعددة والمتشابكة .وكما يأتي الخلاف نتيجة لمثل هذه العوامل الموضوعية فقد يعبر ايضا عن مدى دقة هذا الباحث أو ذلك ومدى مهارته في التحليل والملاحظة والتعمق في معرفة اسباب الظواهر ...» (١) .

وانطلاقا من العلمية لم يخطىء عبد الناصر جميع النظريات السابقة على التجربة الثورية التي قادها ولم يعلن الرفض المسبق لهذه النظريات . ولكنه في الوقت نفسه أوضح أن عدم الرفض المسبق لا يعني بالضرورة التسليم الكامل بالنتائج التي وصلت اليها التجارب السابقة والاستغناء بها عن التجربة الوطنية . وحين حمل الميثاق التجربة الثورية العربية مسؤولية شق طريق جديد أمام اهدافها اوضح ان الحاجة الى ذلك « لا تصدر عن رغبة في التجديد لذاته ولا تصدر عن الكرامة الوطنية ، وانما لأن الثورة العربية تواجه ظروفا جديدة . ولا بد في مواجهة هذه الظروف أن تجد الحلول الملائمة لها » . وقد أخذ عبد الناصر في الاعتبار فضلا عن ظروف المنطقة العربية ـ مهد هذه الثورة ـ الظروف العالمية خلال النصف الأول من القرن العشرين وما أتت به من تغييرات شاملة وعميقة على الجو الذي

---

(١) ابراهيم سعد الدين مقال عبد الناصر والاشتراكية العلمية ـ مجلة الفكر المعاصر ، نوفمبر ١٩٧٠ .

يجري فيه النضال الوطني لكل الأمم • ولذا فقد رأى الميثاق أن العمل الاشتراكي « لم يعد حتما عليه ان يلتزم التزاما حرفيا بقوانين جرت صياغتها في القرن التاسع عشر ، وأن النضال الوطني للشعوب والأمم وأن كان غير مطالب بأن يخترع مفاهيم جديدة لأهدافه الكبرى الا انه « مطالب بأن يجد الأساليب المسايرة لاتجاه التطور العام والمتفقة مع طبيعة العالم المتغيرة » •

ان هذه الاشتراكية العلمية التي تبناها عبد الناصر أوصلت الى التطبيق العربي للاشتراكية الذي يلتقي مع التطبيقات الاخرى في نقاط عدة ويختلف معها في نقاط عدة • وعلى هذا فليس منهج الانتقاء هو الذي أدى الى اختلاف الاشتراكية العلمية الناصرية عن الماركسية في النظرة الى الدين وفي أسلوب حل الصراع الطبقي وفي ديكتاتورية الطبقة وفي الملكية الفردية ، وانما تنج الاختلاف عن تطبيق المنهج والاسلوب العلمي على الواقع العربي المتميز قوميا عن الواقع الأوروبي الذي نشأت فيه الماركسية ، والذي يعيش في النصف الثاني من القرن العشرين • وهذا الاختلاف ينسجم مع ما أعلنه عبد الناصر من أنه لا بابوية في الاشتراكية انطلاقا من طبيعة كل تجربة والواقع المحيط بها •

كذلك فان الناصرية كما اتضح من عرض فكرها هي ليست نظرية البرجوازية الصغيرة وانما الأدق انها نظرية تحالف قوى الشعب العاملة ضمن قومياتها • والناصرية بالمنظار القومي تتجاوز رقعة محدودة من أرض مصر لتشمل الوطن العربي كله • ولقد أوضح عبد الناصر بجلاء :

« ان الاشتراكية لا تبنى من مواقع التجزئة » ••••

كما أن الناصرية بمنظار عالمي كوكبي وفي كلياتها الفكرية نظرية

لثورات العالم الثالث التي هي المرحلة الثالثة من مراحل الثـورة في العـالم على مدى قرنين . فلقد كانت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ التي مثلت بداية المرحلة الاولى ـ تعبيرا عن نظرية البرجوازية وثورة العالم الرأسمالي.. وهي ثورة قومية طبقية . وجاءت الثورة الروسية عام ١٩١٧ التي مثلـت بداية المرحلة الثانية تعبيرا عن النظرية الماركسية وثورة البروليتاريا من اجل الشيوعية ... وهي ثورة أممية لا قومية ولا طبقية . واخيرا تفجرت ثورة ٢٣ يوليو الثورة العربية النواة عام ١٩٥٢ لتكون بداية المرحلة الثالثـة وتعبيرا عن النظرية الناصرية ، نظرية تحالف قوى الشعب العـاملة ضمن قومياتها .. وهي ثورة قومية طبقية .وهكذا كما يقول جمال حمدان بالمنطق الجدلي « اذا كانت الثورة الفرنسية هي التقرير اليميني المتطرف ، فان الثورة السوفيتية هي النقيض اليساري المطلق ، بينما تأتي الثـورة المصرية (العربية) كالتركيب المعتدل الأوسط » [1] .

وبعد ..

فالحق أن النظرة الشاملة لتراث عبد الناصر ترينا ـ كما سبق أن ذكرنا ـ أنه اذا كانت الناصرية ـ التجربة العربية الثورية ـ قد بدأت بنظرات ومبادىء محددة حول امور عدة ، فانها من خلال الممارسة ـ وبكل ما في الممارسة من فكر وتجربة ـ سارت سيرا حثيثا نحو بلورة النظرية العربية الثورية . وهي نظرية لها موقفها من الانسان والمجتمع وحركـة التاريخ ، تستهدف سعادة الانسان وكرامته وتنطلق من الايمان بالقيـم الروحية وبالانسان كأثمن وأغلى موجود خلقه الله وكرمـه . وتؤمـن بمبادىء القومية والاشتراكية والديموقراطية والعقلانية العلميـة ، وما

---

(١) جمال حمدان ـ استراتيجية الاستعمار والتحرير ، ص ٣٤٤ .

يتصل بهذه المبادىء من سنن الفروع القومي والصراع الطبقي والكفاح من اجل المساواة واكتشاف آفاق العقل والعلم •

ولقد فارق عبد الناصر بعد ان وضع أساس النظرية المكين وخلف تراثا غنيا من الفكر والتطبيق • وفارق عبد الناصر قبل ان يبلور نهائيا هذه النظرية تاركا مسؤولية بلورتها النهائية وحمل رسالتها على كاهل الطلائع العربية • ونلاحظ ان محاولات جادة على هذا الطريق بدأت منذ سنوات خلال حياة عبد الناصر ونالت نصيبها من الاهتمام الفكري والمناقشة الجادة • وبقي ان يتابع هذا الجهد وتنهض الطلائع العربية بمسؤوليتها في بلورة النظرية وبناء التنظيم العربي الواحد المنطلق منها والمناضل على اساسها تعبيرا عن الثورة العربية الواحدة الشاملة لتحقيق اهداف النضال العربي وحمل رسالة العرب الحضارية الى العالم •

المشاركة في بلورة
فكرة العالم الثالث

كان للثورة العربية بقيادة عبد الناصر دورها الكبير في صياغة وبلورة العالم الثالث ورسم الطريق الثالث ــ طريق الحياد الايجابي وعدم الانحياز ، وفي النضال من أجل السلام القائم على العدل ، وفي الدعوة الى التعاون الدولي من اجل الرخاء •

ففي هذا المجال فهمت الثورة العربية الى حد كبير طبيعة الظروف التاريخية المحيطة بها ، وعاشت أبعاد عالمها وعصرها وحددت مكان الامة العربية في هذا العالم ، وتطلعت لقيام العرب بحمل رسالتهم الحضارية الى الانسانية جمعاء •

وهنا يبرز الدور العالمي للثورة العربية ولعبد الناصر • وهو الدور الذي مكن الثورة العربية من التأثير على الاحداث في المنطقة ، ومن دفع عجلة تحرير الشعوب في آسيا وافريقيا ودعم ثورة التحرير ، والمشاركة في رسم السياسات الدولية • وقدم هذا الدور عبد الناصر كواحد من قادة العالم في عصره ، فكان اول عربي يحتل هذه المكانة في العالم المعاصر •

● ●

اننا لكي نتعرف على هذا الانجاز الذي حققته الثورة العربية بقيادة عبد الناصر ، ونحيط بدورها العالمي يجدر بنا أن نتفحص وضع العالم

الذي عاشه عبد الناصر • فقد واجه « كما يقول هيكل » عالماتعتريه عمليات التطورات التاريخية التي كانت تتلاحق بسرعة محمومة بعد الحرب العالمية الثانية • كانت الامبراطوريات القديمة تتقوض وتتهاوى وكان الفرنسيون والبريطانيون الذين اقتسموا فيما بينهم ــ طويلا ــ آسياوالشرق الاوسط ، ينسحبون من كل مكـان ، ولم يعد في وسع السلطات الاستعمارية القديمة ان تحكم كما كانت تفعل من قبل • فقد اجتاحت موجة القومية والايديولوجيات الجديدة الشعوب التي عانت طويلا من الاستعباد • فكانت هذه الحقبة التي عاشها عبد الناصر فترة صراع وغليان » [1] •

ان هذا العالم هو عالمنا المعاصر •• عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية• وكانت هذه الحرب مع ما انطوت عليه من مآس وفواجع تنطوي في تضاعيفها على ثورة ضخمة ، هي عند البعض اكبر ثورة عرفها الانسان منذ فجر تاريخه • « فكأضخم الظواهر الطبيعية التي تدك الجبال وتطمر البحار وتطمس الحضارات ، كذلك كانت فترة السنوات الخمس التي امتدت من ١٩٣٩ الى ١٩٤٥ •• تبدل في الروح والفكر والطموح اكثر منه في المادة والمظاهر • فعل في العمق حمل الى العالم تغييرات اساسية اشتركت فيها قوى مختلفة وارتفعت حولها اصوات مجلجلة • فكان ميثاق الاطلسي ، وكانت تطلعات البلدان المستعمرة الى التحرر ، والاقطار المتخلفة الى العمران والازدهار • كانت اذن ارادة التحول والتغيير التي جعلت من العالم ما هو عليه اليوم من غليان لن يستقر الا عندما تبلغ تلك الارادة

---

(١) محمد حسنين هيكل ــ عبد الناصر والعالم ، ص ٣٢ •

ما نشدته في سبيل سعادة الانسان في كل مكان » [١] .

كانت ابرز سمات هذا العالم هو ما شهده من تفجرات . حتى وصف هذا العصر الذي بدأ بتفجير القنبلتين الذريتين الاميركيتين في اغسطس ١٩٤٥ على هيروشيما ونجازاكي المدينتين اليابانيتين ، بأنه عصر متفجر . فقد شهد تفجير العلم والمعرفة بصورة لم يعرفها الانسان قبلا . وشهد تفجر السكان الذي جاء في أكثره نتيجة لسابقه . وشهد تفجر الحاجات والآمال والمطامح والنقمة المتصاعدة على الظلم والعوز والمرض والجهل وشتى صنوف العبودية والشقاء [٢] .

وحين ننظر بمنظار السياسة والجغرافية السياسية نجد أنه اجتمع في هذا العالم انقلابان حافلان مذهلان هما ثورة التحرير والانقلاب النووي . ثوّر الاول ــ كما يقول جمال حمدان ــ المناخ السياسي في العالم برمته ، وقلب الثاني قوانين الاستراتيجية الكوكبية رأسا على عقب [٣] .

وتصدرت عالمنا المعاصر دولتان كبيرتان هما الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفيتي بعد أن أنهكت الحرب بريطانيا وفرنسا وبقية دول أوروبا الاستعمارية . وبرزت هاتان الدولتان كقوى جديدة . وكان العالم قد شهد قبلها منذ بدايات الاستعمار الغربي في عصر الكشوف الجغرافية ثلاث قوى استعمارية ــ حسب تصنيف جمال حمدان ــ توضح منحنى

---

(١) مجلة القضايا المعاصرة المجلد الاول» / ج ع تموز ١٩٧٠ . ملف عدم الانحياز من باندوج الى دار السلام ، ص ٢٣٥ .

(٢) قسطنطين زريق ــ هذا العصر المتفجر ، ص ١٩ ؛ دار العلم للملايين .

(٣) جمال حمدان ــ استراتيجية الاستعمار والتحرير ، ص ٢٧٠ ، كتاب الهلال .

التطور الاستعماري . فثمة أولا جاءت « القوى العتيقة » في أوائل عصر الكشوف وتمثلت بالبرتغال واسبانيا والى حد ما هولندا . ثم تلت ذلك « القوى العتيدة » التي كانت اكبر قوى استعمارية ظهرت في التاريخ الحديث ومثلت انموذج الاستعمار بكل ما فيه من استغلال ورجعية واحتكارات ، وقد شملت هذه القوى بريطانيا وفرنسا . ثم ظهرت في « القوى الوليدة » التي تأخر توحيدها وتأخر فيها بدء الانقلاب الصناعي ومن ثم تأخر خروجها الى ميدان الاستعمار ، ويندرج ضمنها المانيا وايطاليا والى حد ما بلجيكا وفي معنى خاص اليابان . واخيرا برزت « القوى الجديدة » بعد الحرب الثانية متمثلة بالولايات المتحدة والاتحادالسوفيتي « ولم تكن قد مارست الاستعمار بشكله التقليدي بل هي تنكر صلتها بالاستعمار وتستنكره . ومع ذلك فهي متهمة من غيرها بأشكال خاصة من الاستعمار اما الاقتصادي واما الايديولوجي » [1] .

وضحت ثورة التحرير خلال الحرب العالمية الثانية . وكان الاستعمار المباشر يغطي آنذاك ٣٥ ٪ من مساحة العالم فهوت رقعة الاستعمار بين عامي ١٩٤٥ — ١٩٦٥ الى ٤ ٪ . وهكذا مثلت ثورة التحرير عصر ذوبان الاستعمار ونهاية أوروبة العالم . وتتالت في هذه الثورة التي ظهرت بدايتها في لبنان وسوريا عام ١٩٤٣ ، ثلاث موجات زمنية هي الموجة الاسيوية والموجة العربية والموجة الافريقية . وأصبح التحرير هو ايديولوجية الشعوب التي طال كبتها وروح العصر . وكان وراء هذه الروح عاملان رئيسيان هما آلية نمو المستعمرات حيث أن الاستعمار سلاح ذو حدين ، يفرض التحضير من أجل الاستغلال ، وانتهاء احتكار القوة العالمية في يد قوى أوروبا الاستعمارية ، فرغم ان الاستعمار كان يمثل نظاما واحدا في

---

(١) جمال حمدان ، ص ٢٧٢ .

النهاية فقد كان يجيش بالصراعات الداخلية والتوترات الكامنة التي لم تزل تصدعه وتمزقه [1] .

وكان طبيعيا أن يحتدم الصراع في عالمنا المعاصر بين ثورة التحرير والدول التي تحررت من جهة وبين قوى الاستعمار القديم والجديد من جهة اخرى . كما كان متوقعا أن يحتدم الصراع بين القوى الجديدة نفسها بعد انتهاء الحرب التي فرضت عليها أن تتحالف . وهكذا شهد عالمنا المعاصر هذين النوعين من الصراع . وكان على الدول المستقلة حديثا وهي تبحث لها عن مكان في العالم ان تشق لنفسها وسط هذين النوعين من الصراع طريقا خاصا يصل بها الى مكانها .

● ●

وحين تفجرت الثورة العربية النواة يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كان الصراع بنوعيه على أشده في العالم . وكانت احداث الثورة في الصين والحرب في كوريا والهند الصينية والحرب الباردة في برلين تجسيدا له . كما كان الصراع بنوعيه على أشده في منطقة الوطن العربي التي حلت بها نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ واستجابت للنكبة بتزايد التحرك الجماهيري فيها والتي تضاعفت اهميتها بعد اكتشاف النفط بكميات كبيرة فيها ازداد بالتالي تكالب المصالح الاستعمارية عليها .

ولقد كان طبيعيا أن تنشغل ثورة ٢٣ يوليو العربية أول ما تنشغل بمصر ثم بالوطن العربي ، قبل أن تنطلق كثورة عربية للقيام بدورها العالمي . وهكذا سرعان ما دخلت خضم هذا الصراع على أرضها من اجل استكمال

---

(١) جمال حمدان ، ص ٢٧٣ و ٢٩٣ .

تحرير الوطن وطرد قوى الاستعمار القديم ؛ ثم من اجل الحفاظ على الاستقلال وتثبيته وعدم الوقوع في براثن سيطرة قوى الاستعمار الجديد.

وأعلنت الثورة مبادئها الستة وباشرت نضالها لتحقيق المبدأ الاول وهو « القضاء على الاستعمار » واجلاء القوات البريطانية عن مصر . وقادها هذا النضال على أرض مصر الى خوض معركتها ضد الاحلاف والى تزعمها لهذه المعركة في الوطن العربي ، كما سبق أن شرحنا . وسرعان ما أشعرها ذلك بضرورة التحرك على المستوى الدولي . وهكذا فاذا كانت معركة الجلاء قد أكدت لعبد الناصر أهمية التحرك على المستوى العربي ، فان معركة الاحلاف أوضحت له أهمية التحرك على المستوى الدولي .

وبدأت تباشير الدور العالمي للثورة في الظهور بعد قرابة ثلاث سنوات من تفجرها حين جاءت مشاركة عبد الناصر في مؤتمر باندونج ـ ابريل ١٩٥٥ ؛ فكانت أول مشاركة فعالة للثورة على المستوى الدولي . ويبدو وكأنه كان لا بد من هذه الفترة كي تتضح لعبد الناصر من خلال التجربة والممارسة بعض ابعاد هذا الدور ، والى حد ما طبيعته . كما كان لا بد منها كي تتهيأ لها الظروف المناسبة للتحرك .

ففي تلك الفترة وبينما كانت الثورة تركز اوضاعها داخليا وتتصدى لقضية الجلاء تعرضت من خلال هذا التصدي لمحاولة فرض دخول مصر الاحلاف الغربية تحقيقا لسياسة الغرب التي تحمل اسم « الدفاع عن الشرق الاوسط » وازدادت وعيا لطبيعة الخطر الاسرائيلي ودور اسرائيل في المنطقة كما تحدده السياسة الاستعمارية . واصطدمت بشكل حاد بقضية التسليح واحتكارات الغرب للسلاح وتحكمه من خلاله في سياسة دول المنطقة . وخاضت تجربة التعامل على الخصوص مع الولايات المتحدة الاميركية ، وخرجت منها بمعرفة انضج لطبيعة السياسة الاميركية في

المنطقة وبرفض محاولات هذه السياسة لاستيعاب الثورة والهيمنة عليها.
ونشير بايجاز في هذا المجال الى ما فصلناه في فصل سابق عن مفاوضات الجلاء والخلاف الشديد فيها حول ارتباط مصر بحلف أو معاهدة للدفاع المشترك والوصول الى نص في الاتفاقية انه في حالة وقوع هجوم مسلح من دولة اجنبية على تركيا او اي من الدول العربية فان مصر تساعد بريطانيا على تهيئة القاعدة الحربية وادارتها . كما نشير الى تحديد عبد الناصر لهدف عدم الارتباط بأي حلف أو معاهدة للدفاع المشترك.
ولقد كشفت المفاوضات وزيارة دالاس وزير خارجية الولايات المتحدة لمصر ومباحثاته معبد الناصر وزيارة ايدن في فبراير ١٩٥٥ لمصر ومباحثاته وهو آنذاك وزير خارجية بريطانيا ، كشفت جميعا نظرة الغرب الى دور اسرائيل في المنطقة وكشفت محاولات الغرب وخاصة الولايات المتحدة ترتيب صلح بين العرب والاسرائيليين ينسجم مع هذا الدور . كذلك أوضحت سياسة اسرائيل خلال تلك الفترة طبيعتها العدوانية وأطماعها التوسعية في المنطقة وتطلعها الى التسلط بمنطق القوة . وحين بحثت الثورة عن السلاح لمجابهة خطر اسرائيل وطرحت على الغرب قضية تسليح مصر اصطدمت بالخداع الاميركي وبسياسة الغرب في احتكار السلاح ، وعادت بعثة السلاح المصرية برئاسة علي صبري من الولايات المتحدة بمرارات وبخفي حنين دون أن تصل لشيء . وغيرت تجربة التعامل مع الولايات المتحدة من نظرة الثورة اليها ، فبعد أن كانت في بادىء الأمر نظرة قائمة على الآمال وعلى الصورة المزوقة التي كانت مرسومة للولايات المتحدة في المنطقة اصبحت نظرة قائمة على حقائق الواقع وعلى فهم طبيعة السياسة الاميركية (١) .

---

(١) تكشف خطابات عبد الناصر في تلك الفترة بالتفصيل هذه النقاط وتشرحها شرحا ضافيا كما يوضح كتاب هيكل عبد الناصر والعالم في فصل « عبد الناصر ودالاس » تجربة الثورة مع أميركا وفي فصل عبد الناصر وايدن تجربة الثورة مع بريطانيا .

كذلك فان تلك الفترة بما حفلت من مواقف للثـورة في مواجهـة السياسة الاستعمارية خلال خوضها معركتي الجلاء والاحلاف مكنت دول المعسكـر الاشتراكـي والـدول المستقلـة حديثـا من تكريـن فكرة أقـرب الـى الصحـة عـن حقيقتهـا . وكـانت دول المعسكـر الاشتراكي عند بداية الثورة شديدة الارتياب في زعمـاء الثـورة وفي طبيعتها . وقد حمل عليهم الاتحاد السوفيتي ناعتا اياهم بالفاشية . كذلك اتسم موقف بعض الدول المستقلة حديثا من الثورة بالتحفظ في بـادىء الامر بل وبرزت في الوطن العربي بين القوى السياسية خلال العامين الاولين للثورة تساؤلات واتهامات غذتها الاحداث الداخلية التي شهدتها مصر آنذاك . ولكن الموقف تغير على كل هذه المستويات بعد خوض الثورة لمعركتي الجلاء والاحلاف . وحين التقى شواين لاي بعبد الناصر مرة في رانجون قبل انعقاد مؤتمر باندونج قال له شواين لاي « انه يعرف ان عند الروس فكرة حسنة عن الحكومة المصرية »[1] .

قلنا ان مشاركة عبد الناصر في مؤتمر باندونج كانت أول مشاركة فعالة للثورة العربية على المستوى الدولي . والحق انمؤتمر باندونجنفسه كان أول مشاركة للدول المستقلة حديثا في رسم السياسة الدولية ، وأول خروج على تحكم الغرب وانفراده بالهيمنة على العالم منذ بدأت المؤتمرات الدولية في العصر الحديث . فلأول مرة يتولى مسؤولـون افريقيـون وآسيويون مناقشة مواضيع تهم شعوبهم والعالم بوجه عام ــ كمـا علق آنذاك الكاتب الهندي بانيكار في صحيفتي فرانس اوبزرفاتور ونيشن ــ « بعد أن جرى العرف في الدبلوماسية الدولية حتى عام ١٩٤٦ أن تبحث

---

(١) انظر محمد حسنين هيكل ، ص ٧٧ .

شؤون آسيا في مؤتمر للدول الغربية • ويبدو ان الدول الغربية لم تتخل عن هذا التقليد ففي مؤتمر جينيف عن الهند الصينية حضرت فرنساوانجلترا واميركا ، بينما لم تحضر بورما والهند واندونيسيا » [1] •

وكانت الدعوة الى مؤتمر باندونج قد تبلورت بعد سنوات من محاولات الدول المستقلة حديثا ايجاد مكان لها على مائدة السياسة الدولية ، والتصدي للاخطار الناجمة عن الصراع بنوعيه والتي تتهددها بصورة خاصة • ففي عام ١٩٤٩ جاءت دعوة نهرو لسفراء حكومات آسيا الى الاجتماع في نيودلهي لوضع حد لأعمال القوى البوليسية الهولندية في آسيا ، وأوضحت الدعوة المدى التاريخي لهذا الحشد الفريد لأمم آسيا الحرة واصدقائها • وتألف في هيئة الامم المتحدة فريق عربي آسيوي ضم اثنتي عشرة دولة تمرس خلال الحرب الكورية بالعمل الديبلوماسي وتطور مع الزمن الى فريق آسيوي ـ افريقي ساهم بتشكيل هيئات للتخطيط والتنفيذ • وفي عام ١٩٥٠ عقدت دول آسيا الحرة مؤتمرا في باغيو ركزوا فيه الانظار على مكافحة الاستعمار بصورة منظمة والسعي الى اقرار سلام دولي دائم يقوم على سياسة « عدم الانحياز » من شأنها اقامة منطقة سلام في آسيا الجنوبية ، وهما الموضوعان اللذان بحثهما مؤتمر باندونج • وقويت هذه المحاولات في مواجهة سياسة الاحلاف الاميركية التي استهدفت تطويق الصين الشعبية بعد سيطرة ماو على الحكم عام ١٩٤٩ ، وأبرمت من أجل ذلك ميثاق جنوب شرق آسيا عام ١٩٥٤ •

---

(١) عدم الانحياز من باندونج الى دار السلام ، مجلة القضايا المعاصرة . وقد حفلت تعليقات الصحف الغربية نفسها على المؤتمر بمشاعر الحنق وهي تتحدث عن استعباد الغرب .

وكان الصراع بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي على أشده . وقد دخل المرحلة الثانية من مراحل توازن القوى التي تقوم على استراتيجية الغدر والردع الشامل بما تورثه من عواقب وخيمة على العالم أجمع . ذلك ان الانقلاب النووي قلب مفاهيم الاستراتيجية الدولية . وفي مرحلة التوازن الاولى والتي اعقبت الحرب واستمرت حتى الخمسينيات كانت الولايات المتحدة تنفرد وحدها بالسلاح الذري ولا يملك الاتحاد السوفيتي الا جهازا ضخما من الاسلحة التقليدية ، فسادت في هذه المرحلة سياسة حافة الحرب والهاوية التي اشتهر بها دالاس . حتى اذا ما توصل الاتحاد السوفيتي للسلاح النووي وتحقق التوازن الذري الرهيب بين قطبي القوى الجديدة ساد مفهوم الهجوم المفاجىء واستراتيجية الغدر والردع الشامل وعاش العالم وعلى الخصوص الدول المستقلة حديثا في ظل شبح الحرب النووية التي لا تبقي ولا تذر .

وسط هذه الظروف وجه رجال كولومبو (١) الدعوة الى ثلاثين دولة آسيوية وأفريقية من بينها الصين الشعبية للمشاركة في مؤتمر باندونج بهدف اقامة تعاون صادق بين أمم آسيا وافريقيا ، وبحث المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعلاقات بين الدول المشاركة ، ودراسة المشاكل التي تمس سيادة شعوب القارتين وبحث مركز آسيا وافريقيا من عالم اليوم ودورهما في خدمة السلام والتعاون .

واستجابت مصر للدعوة ، وأعلن عبد الناصر باسم الثورة عزمه على المشاركة في باندونج على الرغم من محاولة دالاس اقناعه بعدم الذهاب ـ على حد ما أورده هيكل ـ الأمر الذي أغضب دالاس « حيث رأى فيه

---

(١) وهم رؤساء حكومات اندونيسيا والهند وباكستان وسيلان وبورما آنذاك . أميد جوجو ونهرو ومحمد علي وكوتيلادالا ويونو .

خذلانا وخيانة لحملته الصليبية ضد الشيوعية » [1] • ورأى فيه أيضا خروجا من ثورة ٢٣ يوليو عن الدائرة التي حاولت اميركا حصرها فيها • وكان عبد الناصر مستشعرا اهمية الصلة بين ثورة ٢٣ يوليو وشعوب آسيا وافريقيا • وقد شرح افكاره حول هذه الصلة في فلسفة الثورة وهو يناقش عنصر المكان ويتساءل « ما هو دورنا الايجابي في هذا العالم المضطرب ، وأين هو المكان الذي يجب ان نقوم فيه بهذا الدور » • فخصص الدائرة الثانية لافريقيا « التي يحرس العرب بابها الشمالي والتي هي مسرح لفوران عجيب مثير » • كما خصص الدائرة الثالثة للعالم الاسلامي « الذي يمتد عبر قارات ومحيطات والذي يضم اخوان العقيدة » في دول آسيوية عدة مع الوطن العربي وافريقيا [2] • ونلاحظ انها كانت أفكارا أولية تعبر عن التوجه • وكان عبد الناصر أيضا قد استشرف بعد ذلك آفاق هدف باندونج وأبعاده العالمية من خلال حواره مع نهرو خلال لقائهما الاول بالقاهرة في فبراير ١٩٥٥ وقد هيأته معركة الاحلاف التي كان يخوضها لذلك • كما التقى في الشهر نفسه بتيتو لقاءهما الاول وتحدثا في الشؤون العالمية • ثم تلقى يوم ٢٨ فبراير صدمة عنيفة حين أغار الاسرائيليون على غزة وقتلوا ٣٨ جنديا مصريا وافتقد عبد الناصر بقوة توافر السلاح اللازم للرد واستشعر بمرارة خذلان أميركا له في تسليح مصر وتطلع يبحث عن مصدر آخر يكسر به احتكار الغرب للسلاح في المنطقة •

وفي طريقه الى باندونغ التقى عبد الناصر بشواين لاي في رانجون بعد ان تولى نهرو اتمام التعارف بينهما وتبادلا الحديث عن الشؤون العالمية وعن قضايا بلدهما والمناطق المحيطة ، ثم توصلا الى تفاهم حول طلب مصر السلاح من الاتحاد السوفيتي •

---

(١) هيكل ، ص ٧٥ .
(٢) فلسفة الثورة ، ص ٦٧ ــ ٦٨ .

وفي باندونج شارك وفد مصر برئاسة عبد الناصر مع وفود ثماني دول عربية اخرى في اعمال المؤتمر • وهذه الدول هي سوريا ولبنان والعراق والاردن والسعودية واليمن وليبيا والسودان ، وجميعها كانت مستقلة فشملتها الدعوة •

ونجح عبد الناصر ـ كما يقول هيكل ـ في اقناع الوفود العربية ان تتبنى مجتمعة في المؤتمر استراتيجية التمسك بقرارات الامم المتحدة في حل مشكلة فلسطين لكي يتمكنوا من تبرير استبعاد اسرائيل من المؤتمر (١) •

وطرح عبد الناصر على مؤتمر باندونج المبادىء الرئيسية لسياسة الثورة العربية في المجال الدولي • فالثورة العربية ستشن الحرب بكل ما لديها من طاقات ووسائل على الاستعمار والسيطرة الاجنبية • والثورة العربية ستعمل من أجل السلام لأن اجواءه وامكانياته توفر الفرصة الوحيدة للتقدم القومي • والثورة العربية ستسعى لتحقيق التعاون الدولي من أجل رخاء الشعوب كلها وتوفير الرفاهية لها • وبيّن عبد الناصر في خطابه ان السلم العالمي لا يتحقق الا بشروط محددة وتناول وهو يشرح هذه الشروط مجموعة قضايا هامة ابرز فيها دور هيئة الامم المتحدة ومسؤوليات الدول الكبرى ومستقبل التعاون بين الشعوب الآسيوية والافريقية •

« •• ان مصر وكافة الدول الممثلة في هذا المؤتمر وغير الممثلة سواء لتدرك تمام الادراك ويؤلمها أشد الألم

---

(١) هيكل • ص ٢١٩ •

ما تتكفله أعباء التسليح من نفقات وجهود توشك ان تقصم ظهر الاقتصاد العالمي وتعوق النهوض الاجتماعي • وتأمل بحماسة وحرارة وقف التسلح فورا . حتى يفيق العالم من كابوس الفزع المريع الذي يقض مضجعه من جراء هذا التسليح •

وثمة علاقة وثيقة بين رفع مستوى معيشة الشعوب وخفض نفقات التسليح •• ولا شك في أن العلوم والخبرة الفنية الحديثة اذا استخدمت لاغراض سلمية ، سوف تتيح للجنس البشري من الرفاهية قدرا لا يعادله أي قدر توفر في أي زمان ومكان • فالطاقة الذرية مثلا اذا استخدمت في اغراض سلمية تهيىء للشعوب ولا سيما في البلاد المتخلفة حيث يعيش السواد الأعظم في فاقة وعوز فرصا لا نظير لها للرخاء الاقتصادي ••

•• يجب أن تكون كافة القرارات والاجراءات التي تتخذها المنظمة العالمية أساسها الميثاق ولو روعي هذا لما نزل بشعب فلسطين ذلك الظلم البين ولما وقع عليه هذا الاعتداء الذي لم يسبق له مثيل •••

•• ان نظرية التفريق العنصري والسياسة التي قامت استنادا اليها ، نظرية باطلة علميا وتهدد السلم والأمن العالمي بالخطر كما انها تتنافى مع عزة الانسان وكرامته••

•• ان فرض الدول الكبيرة سياسة معينة لتحقيق مصالحها الخاصة له أثره الضار على الدول الصغيرة فهو يعزلها ويفرق فيما بينها • كما يضعف الروابط والتعاون

الذي قد يكون قائما بينها • وبذا تقع السيطرة الاجنبية• وان دل على الدول الصغيرة ان تقوم بدورها الانشائي في سبيل تحسين العلاقات الدولية وتخفيف حدة التوتر الدولي •

« •• ثمة شيء آخر هو موضوع تصفية الاستعمار التي طالما كان سببا في الاحتكاك بين الدول وما يستتبعه من قلق ••

ولقد شاهدنا منذ سنين وما زلنا نشاهد ارتفاع موجة القومية لا في بلادنا والمناطق المجاورة لها فحسب بل في عدة اقطار آسيوية وافريقية • ولقد علمتنا تجارب الحياة ان القومية اذا احبطت ترتبت عليها عواقب وخيمة ونشأت عنها مشاكل عويصة ، وانالدول اذا تناولتها في حكمة وهوادة وواقعية اثمرت ثمرا طيبا من الصداقة والتفاهم والمحبة • وانا لنرجو ان نضع ذلك دائما نصب أعيننا بشأن بقية بلاد العالم التي ما زالت شعوبها متعطشة الى ارواء قوميتها ••

وأراني في غير حاجة الى القول بأننا نعيش الان في عصر جديد يختلف عن العصور الماضية ، فلقد استيقظ في الشعوب وعي جديد لا يمكن معه وقف تيار القومية والنهوض ••

ان التعاون بين الشعوب الآسيوية والافريقية ليس عاملا على تخفيف حدة التوتر الدولي القائم فحسب ، بل هو تعاون تلك الدول ــ التي تمثل أكبر قارتين وسكانها

أكثر من نصف سكان العالم ــ على التقدم وتحقيق مستوى معيشة أرفع . وتحقيق هذا الغرض لازم كما لا يخفى لهدف ثان هو السلم العالمي ؛ فليس معنى السلم مجرد لا حرب بل انه يستوجب جهودا متضافرة متواصلة لتهيئة جو من الاستقرار السياسي والنمو الاقتصادي والعدالة الاجتماعية وكلها مقومات لا غنى عنها لانشاء مجتمع عالمي سليم.. » .

أكد هذا الطرح الذي طرحه عبد الناصر في باندونج تصميم مصر الثورة على استقلالها في علاقاتها الدولية وتطلع الثورة العربية للقيام بدورها في عالمها ، وهنا تكمن اهميته . فلأول مرة في تاريخ العرب الحديث ــ كما يقول كرانجيا ــ « وقف زعيم عربي معتزا بقوته ليعلن استقلال بلاده والدور الذي يحق لها أن تؤديه على صفحات التاريخ » (١) . وحين عاد عبد الناصر ابرز هذا التصميم في خطابه للجماهير التي كانت في استقباله .

« ان مصر اليوم قد استقلت ، وانها حين تتكلم ؛ فهي تتكلم عن ارادتها وبوحي من ضميرها انني لم اترك هذا الوطن ولم اغادره الا من اجل تحقيق اهدافكم وتثبيت مبادئكم واشعار العالم أجمع ان مصر اليوم لها كيان مستقل وشخصية مستقلة وانها حينما تتصرف من وحي هذا الاستقلال انما تتصرف من الداخل وهي كاملة الاستقلال. وفي الخارج ، وهي تشعر أيضا انها كاملة الاستقلال .

لقد ذهبت لأعلن باسمكم ان مصر بعد انذاقت طعم

(١) كرانجيا ــ كيف نجح عبد الناصر ، ص ١٧٣ .

الحرية ستعلن رأيها مستقلا في سبيل الحق وفي سبيل الحرية وفي سبيل تحرير الشعوب والانسان » .

هكذا برز التصميم على استقلال مصر في باندونغ ليعلن انتهاء مرحلة في توجه الثورة الدولي وبداية مرحلة جديدة . فبعد ان كانت مصر الثورة في المرحلة الاولى وهي تسعى للتحرر منشغلة في المقام الاول باجراء حوار مع الولايات المتحدة الاميركية على اكثر من مستوى على أمل تحقيق مطالبها ، وتصارع خلال ذلك بقوة محاولات الاستيعاب الاميركية ، اذا بمصر الثورة في هذه المرحلة الجديدة تنطلق الى الافاق الدولية الرحبة وتكسر الحصار الاميركي وتعلن للعالم استقلالها وتوجيهها للمساهمة في حل المشاكل الدولية . وهكذا بدأ البعد الدولي للثورة في التبلور منذ تاريخ باندونج حيث شاركت في صياغة مبادىء باندونج العشرة .

ويهمنا ما دمنا في مجال الحديث عن بلورة فكرة العالم الثالث ان نثبت هذه المبادىء التي أصبحت مصدر وحي لتحركات دول العالم الثالث في الميدان الدولي ، والتي عززت ميثاق الامم المتحدة ومثلت معه تراثا مشتركا بين جميع الشعوب على اختلاف اوضاعها وفي سبيل مصلحتها المشتركة . فمبادىء باندونج العشرة تنص على :

١ ــ احترام الحقوق الاساسية للانسان وفقا لأهداف ومبادىء ميثاق الامم المتحدة .

٢ ــ الاعتراف بالمساواة بين جميع الاجناس والامم .

٣ ــ احترام سيادة وسلامة اراضي جميع الامم .

٤ ــ عدم التدخل في الشؤون الداخلية للبلدان الاخرى .

٥ ــ احترام حق كل أمة في الدفاع عن نفسها منفردة أو جماعيا وفقا لميثاق الامم المتحدة ٠

٦ ــ أ ــ رفض الاتفاقات الدفاعية الجماعية المعقودة بأي شكل وضعت فيه لخدمة المصالــح الخاصة للــدول الكبرى ٠

ب ــ رفض أي ضغط تمارسه قوة دولية ايا كانت ضد الاخرين ٠

٧ ــ الامتناع عن القيام بأعمال او تهديدات بالاعتداء أو باستعمال القوة ضد سلامــة أراضي بلد ما واستقلاله السياسي ٠

٨ ــ تسوية جميع النزاعات الدولية بالوسائل السلمية كالمفاوضات والتوفيق والتحكيم والاحتكام الى المحاكــم الدوليةوكل وسيلة سلمية تختارها البلدان المعنية وفقالميثاق الامم المتحدة ٠

٩ ــ تشجيع تبادل المصالح والتعاون ٠

١٠ ــ احترام العدالة والالتزامات الدولية ٠

ولقد تحدث عبد الناصر عن انطلاق الثورة العربية الى الآفاقالدولية بعد باندونغ وربط بين هذا الانطلاق وبين نضال الثورة قوميا فقال في عيد الثورة عام ١٩٥٧ :

« ٠٠ كتب علينا ان ندخل معركة رابعــة في حرب تثبيت الاستقلال هي معركة تحديد معالم شخصيتنا الدولية ورسم مسلكنا في هذا العالم الذي زرعوه بالمشاكل مــن حولنا ٠

كنا نريد أن نكون اقوياء في وطننا ندافع بكفاية عن حدوده وكنا نريد ان يكون ضميرنا الدولي يقظا يشارك في الدفاع عن سلام العالم •

لم نكن نريد ان نسمع ضربات التهديد تدق ابوابنا ولا نستطيع للخطر الداهم علينا دفعا ولا ردا وكذلك لم نكن نريد ان نرى نيران الفتنة تندلع في الارض من حولنا وتحرق غيرنا وتحرقنا معهم دون ان يكون لنا نصيب فعال يصدر في كل تصرفاته عن روح من عدم الانحياز تنشد العدل وتطلب السلام على أساسه •

وهكذا تشابكت معركتان في حرب تثبيت الاستقلال• الحصول على السلاح والاشتراك في مؤتمر باندونج الذي جمع دول افريقيا وآسيا » •

وتمثل عبد الناصر مبادىء باندونج فتشبع بروح عدم الانحياز التي تنشد العدل وتطلب السلام على اساسه وحددت الثورة العربية مكانها في العالم ومعالم شخصيتها الدولية • وهكذا كانت باندونج بداية انطلاق الثورة العربية الى الافاق الدولية ، فقد تحقق في المؤتمر تعريف الدول المستقلة حديثا في آسيا وافريقيا والعالم بالثورة العربية كما تحقق ايضا بروز عبد الناصر كزعيم لهذه الثورة وكواحد من زعماء هذا العالم الثالث الذي بدأ بالظهور ولقد سلطت الاضواء في باندونج على الزعيم الشاب الذي وصفه أحد الكتاب وصفا طريفا على الطريقة الغربية بقوله : « انه أقوى جاذبية من نجم سينمائي وأكثر رجولة من بطل رياضي » [1] والذي

---

(١) ملف عدم الانحياز ــ مجلة القضايا المعاصرة .

مثل في حقيقة الامر تفتح شباب العالم الثالث . واقام عبد الناصر في باندونج صلات واسعة مع رؤساء دول افريقيا وآسيا ستنمو وتتسع في السنوات التالية مع نمو واتساع دور الثورة العربية العالمي .

ودخلت الثورة العربية أثر باندونج امتحانا في التطبيق العملي للمبادىء التي اعلنتها وخرجت من هذا الامتحان الذي امتد خمسة عشر شهرا وقد حققت نجاحا كبيرا يوم تأمين قناة السويس . وحفلت هذه الفترة بالاحداث الهامة على المستوى الدولي .

فقد بادر عبد الناصر حال عودته من باندونج الى الاتصال بالاتحاد السوفيتي لابرام صفقة السلاح التي تفاهم عليها مع شواين لاي . وتم ابرام الصفقة مع تشيكوسلوفاكيا في اغسطس من عام ١٩٥٥ واعلن عبد الناصر ذلك رسميا يوم ٢٧ سبتمبر في خطابه في معرض القوات المسلحة . ووقف حال تسرب انباء الصفقة ــ قبل اعلانه عنها ــ يجابه بقوة ضغوط الولايات المتحدة لحمله على التراجع . ذلك ان دالاس وقد رأى في الصفقة خروجا على سياسته الخاصة بالاحلاف وقفزا من الاتحاد السوفياتي فوق « الحزام الشمالي » الذي يضم دول حلف بغداد ، اندفع الى الضغط على عبدالناصر ، فأرسل هو واخوه الان دالاس مبعوثهما كيرمت روزفلت الى القاهرة في طلب ايقاف الصفقة وتهديد عبدالناصر ان لم يستجب ، بايقاف كل المساعدات الاميركية لمصر وايقاف التجارة وقطع العلاقات الدبلوماسية ومحاصرة مصر بحريا وكان قدوم هذا المبعوث هو الذي حدا بعبد الناصر لاعلان ابرام الصفقة رسميا قبل استقباله ــ كما يروي هيكل ــ ولم يلبث دالاس ان أوفد مبعوثا آخر هو جورج الن مساعد وزير الخارجية ولكن عبد الناصر صمد امام الضغوط وفشل المبعوثان في اثنائه عن عزمه . كما صمد أيضا بعد ذلك أمام محاولات الولايات المتحدة تطويقه بأساليب

الترغيب حين فشلت الضغوط فلم ينجح روبرت اندرسون في زيارته للقاهرة عام ١٩٥٥ التي حمل فيها رسالة من ايزنهاور ضمن مساعي الديبلوماسية السرية لحل مشكلة فلسطين ولم تلاق عروض هربرت هوفر الابن مساعد وزير الخارجية على السفير المصري بواشنطن ما تضمنته من شروط قبولا في مصر [١] .

وفي اثناء هذا الحوار الساخن مع الولايات المتحدة الاميركية اعلن عبد الناصر في مايو ١٩٥٦ اعترافه بالصين الشعبية . وأيا كان السبب المباشر الذي حدا به لهذا الاعلان [٢] فقد جاء تعبيرا عن روح باندونج وسياسة عدم الانحياز . وواضح أن فكرة الاعتراف سبقت الاعلان بفترة ونبتت في ذهن عبد الناصر منذ مباحثاته مع شواين لاي وكانت لها مبرراتها القوية والمتصلة بروح باندونج . وهكذا فان الاعتراف لم يأت مجرد رد فعل لحادثة بعينها وان ارتبط الاعلان بهذه الحادثة . وقد كان للاعلان صداه في الغرب ـ كما سبق ان فصلنا من قبل ـ واتخذت الولايات المتحدة اجراء انتقاميا ضد مصر بمنع اية معونة مالية لبناء السد العالي وتلتها بريطانيا والبنك الدولي . ورد عبد الناصر بتأميم قناة السويس في يوليو ١٩٥٦ وتصاعدت الاحداث في المنطقة .

وفي خضم هذه الاحداث الهامة اخذت فكرة العالم الثالث في النمو

---

(١) اورد هيكل تفاصيل هذه الاحداث في كتابه .. فصل دالاس سياسة حافة الهاوية .

(٢) تحدث هيكل في كتابه المباشر لاعلان اعتراف مصر بالصين الشعبية وربطه بمباحثات خروشوف وبولجانين في بريطانيا وما اتجهت اليه من خطر تصدير السلاح للمنطقة . فجاء الاعلان ليمكن من شحن السلاح الشرقي عن طريق الصين الشعبية أن اقتضى الامر ذلك . ص ٩٠ .

وشقت طريقها • وساهمت الثورة العربية من خلال مواقف عبدالناصر خلال تلك الفترة في ابراز الفكرة واخراجها الى حيز التطبيق العملي • والتقت الثورة العربية في هذا الطريق الثالث بالهند ويوغوسلافيا وجسد عبدالناصر ونهرو وتيتو هذا اللقاء الذي فرضته الظروف المحيطة بدولهم •

وكان عبدالناصر قد التقى بتيتو لقاءهما الثاني في ديسمبر ١٩٥٥ حين زار تيتو القاهرة وصدر عن هذا اللقاء بيان مشترك اعلن تمسكهما بسياسة الحياد الايجابي وعدم الانحياز ودعوتهما الى التعايش السلمي • وقد اوضحت المباحثات التي جرت بين الزعيمين ان عدم الانحياز هو الفكرة التي يمكن ان ينطلقا منها لتحديد مكان بلديهما من الصراع العالمي • وكان تيتو يدرك جيدا موقع يوغوسلافيا من الصراع بين الدولتين الكبيرتين ويؤمن بأن عدم الانحياز هو الاساس الحقيقي لاستقلال بلاده وسلامتها • كما كان عبد الناصر منطلقا من سعيه للحفاظ على استقلال مصر ووحدة الوطن العربي يبحث عن مخرج يبعده عن النزاع بين الكتلتين ويخلصه من ضغوط الغرب دون الوقوع تحت نفوذ الشرق فوجد فكرة عدم الانحياز المخرج والسبيل •

وفي يوليو ١٩٥٦ التقى عبد الناصر وتيتو ومعهما نهرو ، لقاءهم التاريخي في بريوني • وكان نهرو يؤمن هو الآخر بعدم الانحياز كسياسة تتبعها الهند في خضم صراع الكتلتين في آسيا وكفكرة تستقطب دول العالم الثالث • وقد صدر عن هذا اللقاء بيان مشترك أيد قرارات مؤتمر باندونج وعبّر عن روح عدم الانحياز الذي كان الموضوع الأول في المباحثات وقدر للقاء بريوني أن يسبق مباشرة تصاعد الأحداث التي بدأت يوم ٢٠ يوليو بسحب الولايات المتحدة وبريطانيا عروضهما للمساهمة في تمويل السد وبلغت ذروتها بالعدوان الثلاثي على مصر • ومن الواضح ان اللقاء

كان عاملا هاما في اتخاذ الموقف الاميركي من تمويـل السد ، وقد سجل مرحلة جديدة في سياسة عدم الانحياز حيث اتخـذت شكل منهج عـام • وأصبحت القواعد التي وضعت في بريوني المؤلفـة من اثني عشر بنـدا أساسا تعتمده دول عدم الانحياز في تسوية المشاكل العالميـة • كما أرسى أقطاب بريوني مبدأ الاجتماعات الدورية ليبحث في المشكـلات الدوليـة وبادروا الى الاتصال بزعماء العالم الثالث •

وخاضت الثورة العربية بقيادة عبد الناصر معركة تأميم قناة السويس وصمدت في مواجهة العدوان الثلاثي وقدر لهذه الحرب أن تكون نقطـة تحول في مجرى حركـة التحرير بالنسبة للعالـم الثالث • وأدى انتصـار الثورة العربية على قوى العدوان الى توسع السياسة الجديدة التي تبنتها وأعلنتها في باندونج والى بروز عبد الناصر كواحد من أعظم قادة التحرير• وأصبحت الثورة العربية وعبد الناصر مصدر قوة روحية ومثلا يحتـذى عند ثوار العالم •

وأكدت هذه المعركة لعبد الناصر أهمية عدم الانحياز فازداد تمسكا بالفكرة وكشفت له بالمحـك العملي آفـاق السياسة الدوليـة وابعـاد مشكلاتها • وقد بدأ حديثه في الاحتفـال بالذكـرى الأولـى للنصر في بورسعيد يوم الثالث والعشرين من ديسمبر ١٩٥٧ معبراً عن ذلك كله •

« اليوم في بورسعيد ، نتجه الى العالـم كلـه •••
ونطالب بتثبيت قواعد العدالة وحق المصير •••

نتجه من بورسعيد للعالم كله ؛ ونطالب بأن تعطى كل دولة مستعمرة استقلالها لتحكم نفسها بنفسها ••• نطـالب بالقضاء على التمييز العنصري في أفريقيا ، وأن يكون لأهل أفريقيا حق مساو لجميع السكان الموجودين في بلدهم •••

ومصر تطلب اليوم من العالم كله أن يعمل بكل طاقته من أجل دفع شبح الحرب ... ننظر اليوم من بورسعيد للعالم ، ونجد ان المحاولات التي بذلت لاعطاء أسلحة ذرية للدول أكثر ، ولتخزين الأسلحة الذرية في أوروبا . وفي تركيا ... نقول ان هذا يعتبر تهديدا لنا .

وان مصر - أيها الاخوة - برغم ما قاسيناه تتبع سياسة عدم الانحياز ، سياسة الحياد الايجابي ، لكي توسع معسكر السلام ... لأن العالم اذا انقسم الى معسكرين ، وأصبحت دول العالم منقسمة ، جزء منها مع هذا المعسكر وجزء مع المعسكر الآخر فلا بد أن تقوم حرب . ولا بد أن تقاسي البشرية الأهوال » .

وهكذا ارتفع صوت الثورة العربية مناديا بسياسة عدم الانحياز والحياد الايجابي من أجل السلام ، ومعبرا عن رأيه في المشكلات الدولية ... التمييز العنصري ، وشبح الحرب ، وتهديد الذرة . وكان عبد الناصر قد ازداد استشعارا لأخطار الحرب النووية من خلال انشغال صديقه نهرو الشديد بهذه الأخطار . وقد تباحثا معا عند زيارة نهرو للقاهرة يوم ١٠ يوليو من ذلك العالم لتخفيف حدة التوتر الدولي وخفض التسليح وتحريم الأسلحة الذرية . كما ان نهرو لم يلبث ان ناشد العالم في نوفمبر ١٩٥٧ أن يستخدم الذرة للأغراض السلمية . وكان نداؤه مؤثرا وقد كتب لعبد الناصر وهو يرسل له النداء « اننا هنا في الهند ، نعاني مشاكلنا الخاصة الكبرى كما انكم في مصر تواجهون الكثير من المصاعب . وفيما تشغلني مشاكلي مباشرة فان ذهني يتجه بالتفكير بشكل متزايد الى المشكلة العظمى التي تواجه الانسانية » (١) .

---

(١) انظر هيكل ، ص ٣٩٧ وفي الكتاب نص نداء نهرو ، ص ٣٩٦ .

وقد أبدى عبد الناصر تفهما وتجاوب مع الدعوة بالشكل الذي ظهر في خطابه يوم عيد النصر ، رابطا بين سياسة عدم الانحياز واستتباب السلام في العالم •

وغذّت الثورة العربية السير في هذا الطريق الثالث • واستضافت القاهرة في مطلع عام ١٩٥٨ أول مؤتمر لشعوب التضامن الآسيوي الأفريقي الذي أعلن توصياته بوجوب دعم التعايش السلمي وتأييد استقلال الشعوب وتأييد قرارات مؤتمر باندونج وحل المشاكل الدولية في نطاق الأمم المتحدة • ونبذ سياسة الحرب والاستعمار والأحلاف • وقوى مركز الثورة العربية في العالم بعد اعلان وحدة مصر وسوريا يوم ٢٢ فبراير ١٩٥٨ وقيام الجمهورية العربية المتحدة ، فازداد تأثيرها في العالم الثالث وتعاظم دورها في الدعوة لعدم الانحياز • وتتالت الأحداث خلال تلك الفترة فأغنت تجربة الثورة العربية في هذا المجال • فقد تقدمت الجمهورية العربية المتحدة يوم ١٥ ابريل ١٩٥٨ الى مؤتمر اكرا الذي عقد تحت شعار « أفريقيا للأفريقيين » بثمانية اقتراحات تنحصر في وجوب تدعيم السلام والمطالبة بتطبيق مبادىء مؤتمر باندونج وقرارات مؤتمر القاهرة لتضامن الشعوب الأفريقية والآسيوية ؛ وتجاوب المؤتمر • وفي ٢٨ ابريل زار عبد الناصر الاتحاد السوفيتي لأول مرة •

وكانت هذه الزيارة مناسبة لكي يطرح عبد الناصر أفكاره حول سياسة عدم الانحياز الايجابي مع احدى الدولتين الكبيرتين • كما كانت الزيارة محكا لمدى امكانية التطبيق العملي لتلك السياسة • وقد جاءت بعد أن حدث التحول الأول في نظرة الاتحاد السوفيتي الى ثورة ٢٣ يوليو في مصر • ولسنا هنا ــ ونحن نركز حديثنا حول الجانب الفكري من المسيرة ــ في مجال تفصيل الحديث عن تطور العلاقات السوفيتية العربية ؛ ولذا نكتفي بالاشارة الى أن الاتحاد السوفيتي نظر بعين الشك

والريبة لثورة ٢٣ يوليو حين قامت • ثم راقب مسيرتها خلال الأعوام الثلاثة الأولى وهي تناضل ضد الاستعمار والأحلاف فحدث في نظرته شيء من التحول • وزاد اهتمامه بها بعد الدور الذي قامت به في باندونج فأقدم ساسة الاتحاد السوفيتي على ابرام صفقة السلاح • وحدث التأميم ثم العدوان ووقف الاتحاد السوفيتي موقف التأييد لمصر دوليا فتهيأ مناخ أفضل للتعاون • وان بقيت سياسة ثورة ٢٣ يوليو القومية وعلى الخصوص في الموقف الواضح من الشيوعية والحزبين الشيوعيين في مصر وسوريا محل استياء الاتحاد السوفيتي •

ونلاحظ ونحن نستعرض ما جرى في هذه الزيارة ان عبد الناصر حرص أول ما حرص ضمن تطبيق سياسة عدم الانحياز أن يبدأها بتحديد واضح للموقع الذي يتحدث منه ••• فهو قادم يحمل تحية شعوب صديقة •

« شعوب تعيش في منطقة هامة من العالم وتشعر ــ بحكم ما تفرضه عليها ظروف المكان الذي تعيش فيه مضافا اليها مشاعرها الذاتية المنبثقة من صميمها ان لها دورا تؤديه في سبيل صيانة الحرية والرخاء والسلام لجميع البشر » •

وهو يعبر عن عرفان هذه الشعوب للاتحاد السوفيتي على ما أظهره من فهم ، ويتطلع الى تعاون مخلص

« انني واثق ان لقاءنا سوف يدعم فهمنا المشترك ، ومن ثم سوف ينمي مجالات تعاوننا • واني لواثق أيضا ان هذه الصداقة التي ربطت شعوبنا بشعوبكم ستقوم بدورها كاملا كطاقة انسانية هائلة ، وستوجه كل قواها للمساهمة في

صيانة السلام لهذا الجنس البشري الذي ملأ الأرض من حوله بمعجزات العقل والاحساس ، ومع ذلك لم يستطع حتى الآن أن يوفر لنفسه حقا بدهيا بالنسبة لأي كائن حي ... ألا وهو حق الأمن » (١) .

ويفسر هذا الحرص تلك السياسة التي بدت في لقاء عبد الناصر الأول بخروشوف ازاء اشارة لخروشوف عن الشيوعيين في الجمهورية العربية المتحدة اعتبرها عبد الناصر تدخلا في الأمور الداخلية وطلب ايضاحا عنها . وتبين ان خطأ الترجمة هو السبب (٢) .

ولقد تحدث عبد الناصر في المباحثات والخطب التي ألقاها عن المواضيع المتصلة بسياسة عدم الانحياز والحياد الايجابي وأهمها المساعدات غير المشروطة من الدول الكبرى لدول آسيا وأفريقيا ومبادىء باندونج ووقف التجارب الذرية والعدوان الاسرائيلي . وأكد عبد الناصر ان الصداقة مع الاتحاد السوفيتي انما تقع ضمن تلك السياسة .

« ان سياستنا حرة تنادي بالحياد الايجابي وعدم الانحياز الى الأحلاف العدوانية وعدم قبول القواعد العسكرية والعمل من أجل التعايش السلمي والسلام .

ان الصداقة والتعاون بين حكومة الاتحاد السوفيتي وحكومة الجمهورية العربية المتحدة وشعب الاتحاد السوفيتي وشعب الجمهورية العربية المتحدة ستجعل منا

---

(١) من خطابه في مطار موسكو ٢٩ ابريل ١٩٥٨ .
(٢) أورد القصة تفصيلا هيكل ١٧٧٩ .

دولة قوية تصد العدوان وتقف ضد أساليب الاستعمار »[1] •

وحين رجع عبد الناصر من زيارته بدا حرصه واضحا على تأكيدفكرة عدم الانحياز كأساس لسياسة الثورة العربية في الصراع الدولي • وبدا أيضا شعوره بأهمية خروج الثورة العربية الى العالم لتأخذ مكانها فيه • وقد اعتبر الزيارة دليلا على صحة هذه الوجهة التي سار فيها • ومما قاله في خطابه عقب عودته يوم ١٦ مايو ١٩٥٨ شارحا أهم ما خرج به •

« هناك بعض الناس في أرجاء الوطن العربي يعتقدون انه لا يمكن للشعوب العربية أن تستقل • هناك بعض الناس يؤمنون الا سبيل لنا الا اذا خضعنا لكتلة من الكتل • انهم يجهلون خصائص الشعوب العربية ويجهلون مقومات الشعوب العربية ويجهلون القوة التي تنبثق منكم والتي رأيتها اليوم تجابه الحصار وتجابه الدول الكبرى • ان محادثاتي مع زعماء الاتحاد السوفيتي انما كانت تمثل المحادثات بين الشعب العربي الحر القوي والدول الصديقة التي لا تبغي شيئا •

اننا أيها الاخوة نحن العرب لأول مرة في تاريخنا الحديث نخرج الى العالم ونشعر بكياننا ونشعر بقوتنا ونشعر باستقلالنا ونشعر ان سياستنا تنبع من أرضنا وان دفاعنا ينبثق من منطقتنا •••

---

(١) من خطابه في أوزبكستان بتاريخ ١٩٥٨/٥/٤ •

لقد أعلنا سياسة الحياد الايجابي وسياسة عدم الانحياز • وقد لقيت من قادة الاتحاد السوفيتي ومن الشعب السوفيتي كل تقدير وكل احترام لهذه السياسة » •

وزار عبد الناصر الاتحاد السوفيتي مرة ثانية بعد شهرين من زيارته الأولى حين تصاعدت الأحداث في المنطقة أثر ثورة ١٤ تموز بالعراق • وكانت الأحداث قد بدأت في التوتر قبل ذلك على أرض لبنان • وبدا واضحا ان اميركا وبريطانيا على وشك التدخل المسلح في المنطقة • وهكذا قطع عبد الناصر رحلة العودة من يوغسلافيا وطار فجأة الى موسكو وعاد من هذه الزيارة بنتائج حسنة اجمالا عبّرت عن مبدأ التعاون بين سياسة عدم الانحياز والاتحاد السوفيتي في مواجهة التدخل الاستعماري وكشفت عن حدود هذا التعاون ضمن معطيات الوضع الدولي • ولكن قدر للعلاقة بين الثورة العربية والاتحاد السوفيتي أن تمر بأزمة شديدة ولم تمض سنة على هذه الزيارة بفعل ما شهدته ساحة العراق من صراع بين الشيوعيين والقوميين وبفعل الوجهة التي سار فيها عبد الكريم قاسم • ولقد وضعت هذه الأزمة على المحك وتضمنت في تضاعيفها تفاصيل توضح نظرة الاتحاد السوفيتي الايديولوجية الى القومية العربية والى عدم الانحياز وهي نظرة تجمع بين العداء والريبة . كما كشفت في مجملها عن ضرورة التعاون رغم كل الاختلافات التفصيلية على صعيد معاداة الاستعمار الغربي ، وحيوية هذا التعاون للطرفين (١) •

---

(١) اورد هيكل في فصل عبد الناصر وخروشوف من كتابه بعض تفاصيل الازمة . وتراجع خطابات عبد الناصر عامي ١٩٥٩ و ١٩٦٠ بشأنها .

ولعل مما ساعد على الوصول الى هذ المحصلة حدة عداء الاستعمار الغربي للثورة العربية في منطقة الوطن العربي • وقد تجلى ذلك في نـزول القوات الاميركية في لبنان والقوات البريطانية في الاردن يوم ١٥ يوليـو ١٩٥٨ ، ثم في اعلان ايزنهاور بعد شهر مشروعه الذي يقضي بوضع قـوة دولية في منطقة « الشرق الأوسط » باسم « قوة السلام » وبصفة دائمة • ونلاحظ ان الولايات المتحدة حاولت مرة أخرى حين استحكمت أزمـة العلاقـات السوفيتية العربية عـام ١٩٥٩ أن تنفذ الى الجمهورية العربية المتحدة فتقدمت الى عبد الناصر بعروض كبرى للمساعـدة • ولكن عبد الناصر الذي آمن بالثورة العربية وبعدم الانحياز وقف متشبثا بسياستـه المعادية للاستعمار ، وشن حملات عنيفة على مبدأ ايزنهاور وعلى ما تضمنه من حديث عن الفراغ في المنطقة •

وتابعت الثورة العربية سيرها في طريق عدم الانحياز وقـد زادتهـا التجربة تمسكا به • واهتمت اهتمامـا خاصا بأفريقيـا التي كانت تموج بحركات التحرير • وقد قام تيتو في نهاية عام ١٩٥٨ برحلـة الى أفريقيـا مبشرا بالسلام وبمبدأ عدم الانحياز ، ومثّل بناء على طلب عبـد الناصر الجمهورية العربية المتحدة فضلا عن تمثيله لبلده (١) •

وكان عبد الناصر يقول :

« ان عدم الانحياز ليس حالة ؛ انما تيار يستطيع كل مـن يحمل فكرته أن يمثله » •

وفي ٣٠ يناير ١٩٥٩ وصل الى القاهـرة آلاف من شبـاب آسيـا وأفريقيا لحضور مؤتمر الشبـاب الآسيوي الأفريقي وتشبعوا بفكرة عدم الانحيـاز •

---

(١) هيكل ، ص ٣٦٨ •

وقام عبد الناصر في ربيع عـام ١٩٦٠ بزيـارة رسميـة الى الهنـد والباكستان في نطاق تدعيم سياسة عدم الانحياز وتحـدث في برلمان الهند عن مدى ما تحقق في خمس سنوات مضت على انعقاد مؤتمر باندونج بفضل جهود التضامن الآسيوي الأفريقي وسياسة عدم الانحياز ، سواء في نطاق هذا التضامن الذي كان يحـاول أن يثبت وجوده فأكـد اليوم حقيقته ، أو في نطاق أفريقيا ووقف التجارب الذرية والحرب البـاردة ومحـاولات فرض الأحلاف . وأعلن :

« والآن فان أعلام الحرية ترتفع في أفريقيا ، وشعوب هذه القـارة المناضلة تحصل على استقلالها الوطني واحدا بعد الآخر » .

وقد رجع من تلك الزيـارة التي استقبلـت بترحـاب عظيـم على الصعيدين الشعبي والرسمي ليتحدث باسهاب عن مدى ما عززت قناعتـه بالثورة العربية وعدم الانحياز . وتباحث بعد عودته مع الرئيس سوكارنو الذي زار القاهرة في ٢٢ ابريل ١٩٦٠ حـول اشعـاع باندونج وسياسة عدم الانحياز .

وفي صيف ذلك العام عبّرت الثورة العربية عمليا عـن سياستهـا في دعم حركات التحرير الافريقية حين نشبت أزمة الكونجـو . وقد تحـرك عبد الناصر بسرعة وعن ايمـان في مواجهـة المؤامرات الاستعماريـة على الكونجو . وأعلن في رسالة لنكروما يوم ١٥ يوليـو انه يضع طائـرات الجمهورية العربية المتحدة تحت تصرف حكومة غانـا الى الكونجو . كما أعلن في رسالة الى داج هامرشولد السكرتير العـام للأمـم المتحـدة عن

استعداد الجمهورية العربيـــة المتحدة لتقديـم كل ما يطلب منها لمساعدة شعب الكونجو •

وفي ١٢ أغسطس وافقت القاهرة على طلب همرشولد باشتراك كتيبة عربية في قوات الأمم المتحدة في الكونجو وطارت الكتيبة الى هناك بعـد يومين • وتبنت الجمهورية العربية المتحدة وبقية دول عدم الانحياز موقفا واحدا قويا في الأمم المتحدة عند مناقشة الأزمـة في مواجهـة الاطمـاع الاستعمارية •

وقد شهد خريف ذلك العـام حضور رؤساء دول كثيرة دورة الأمم المتحدة الخامسة عشرة • وترأس عبد الناصر وفد الجمهورية العربية المتحدة لتلك الدورة • وكان سفره مناسبة لالتقائه بكثير من الرؤساء والتباحـث معهم في الامور الدوليـة • وهكذا اجتمـع بتيتو وخروشوف ونكرومـا وبكاسترو وايزنهاور ونهرو والحسن وماكميـلان • وألقى عبـد الناصر خطابه في الجمعية العامة يوم ٢٧ سبتمبر وناقش فيـه قضايا هامة كثيرة • وقد جسدت هـذه الرحلة أمرين أساسيين كان عبـد الناصر يؤمن بهما في تحرك الثورة العربية عالميا • أولهما هـو ايمانه بالمنظمة الدولية وبأن لهـا دورا هاما في التفاهم الدولي• وكانزعماء جميع دول عدم الانحيازيدركون أن الامم المتحدة هي المكان الذي تستطيع فيه الدول الصغرى أن تؤدي دورها العالمي • وكانوا يعتقدون ان دول العـالم سوف تجتمع في الامـم المتحدة ، ويأملون أن ميثاقها سوف يكون شريعة العالم • والامر الآخـر هو ايمانه بأهمية الاتصالات المباشرة بين رؤساء الدول وزعماء العالم «لان ذلك يمنح العلاقات الدولية نظرة انسانية تستطيـع دائما أنتتلمس حتى في وسط الأزمات المحتدمة أسبابا للاتصال » (١) •

---

(١) من رسالة عبد الناصر الى جونسون في ٢٦ ابريل ١٩٦٤ ، انظر هيكل ، ص ٣٢٠ .

تحدث عبد الناصر في خطابه بالجمعية العامة شارحا نظرة الثورة العربية للأمم المتحدة التي يجب أن تكون للجميع وتفتح بابها للصين الشعبية ، والتي هي مبادىء الميثاق وأحكامه • وتناول بالتفصيل أزمة الكونجو وما حدث من استغلال الاستعمار للأمم المتحدة فيها وعرض قضية فلسطين وقضية الجزائر • وشرح نضال شعوب العالم الثالث لتحقيق الحرية الاقتصادية ، وطرح تصوره لدور الأمم المتحدة في حمل رسالة دفع الحرية الاقتصادية جنبا الى جنب مع الحرية السياسية ••• وطالب بالقضاء على الأسلحة النووية وخفض ميزانيات التسليح وازالة القواعد العسكرية ووجه نداء الى ايزنهاور وخروشوف يدعوهما للاجتماع فورا من أجل السلام • وحضر عبد الناصر قبل انتهاء الرحلة مؤتمر لأقطاب الحياد مع نهرو وتيتو وسوكارنو ونكروما • ودعا هذا المؤتمر الدولتين الكبيرتين الى بحث المشاكل المعلقة بالمفاوضات • وكان ذلك تدخلا مباشرا في الشؤون الدولية الخارجية عن قضايا العالم الثالث أكدوا به مسؤوليتهم في الشؤون الدولية العامة •

كان لهذه الرحلة أهميتها في بلورة فكرة العالم الثالث من خلال الممارسة • وقد حققت الثورة العربية فيها نتائج هامة على الصعيد الدولي وأثبتت عمليا ان لها مكانها في العالم المعاصر • وهكذا استطاعت خلال سنوات خمس مضت على انطلاقتها الدولية في باندونج أن تقطع شوطا ليس بالقليل • ولقد تحدث عبد الناصر بعد عودته عما حققته الرحلة لجماهير الشعب ثم في مجلس الأمة • وخطابه هذا في مجلس الأمة كخطابه في الأمم المتحدة يعتبران من الوثائق الهامة في شرح النظرة الدولية للثورة العربية • ومما جاء في ختام خطابه بالأمم المتحدة :

« لقد بذلت جهدي حتى لا يطغي احساسنا الخاص بقضايانا

المحلية على الاحتمالات الخطيرة في الموقف الدولي الآن • واذا كنت قد أشرت دون دخول في التفاصيل الى بعض هذه القضايا . فلقد قصرت تعرضي لها على الناحية التي تربطها عموما بالسلام وبالأمم المتحدة ومن الواضح على أي حال اننا نؤمن بأن خدمة السلام في مجاله العام هي في نفس الوقت خدمة لقضايانا •

كذلك فاننا نؤمن بأن سيادة الأمم المتحدة معناها سيادة المبادىء وغلبة القانون والعدل على أحلام الغزو والسيطرة •

بل اننا نؤمن ان جو السلام القائم على العدل هو خير جو يستطيع وطننا فيه أن يباشر تطوره وأن يفتح الطريق أمام آماله في تغيير أوضاعه واعادة صنع مجتمعه على أساس جديد •••

وانكم تعلمون ان تيارا ثوريا وطنيا يجتاح الآن بلادنا، بل اننا نقول ان وطننا يعيش الآن ثلاث ثورات في وقت واحد ••• ثورة سياسية ••• وثورة اجتماعية ••• وثورة عربية ••• واننا لنعلن اننا نؤمن بأمة عربية واحدة ••

واذا جاز لي أن أتقدم أمامكم الآن بحلول لما يواجهنا من مشاكل فانني أجد خير ما يمكن أن أقدمه لكم هو صورة من تفكيرنا عندما كنا تسعا وعشرين دولة آسيوية وأفريقية اجتمعت في باندونج وناقشت مشاكل العالم وقتها ، ومع الأسف انها نفس المشاكل التي ما زالت

تواجهنا اليوم مع بعض الاختلاف في التفاصيل ..

انتا نقدمها هنا طريقا للسلام وطريقا للحرية وطريقا للرخاء للبشر كلهم على اختلاف أوطانهم وألوانهم وأديانهم بلا تفرقة أو تمييز » .

وأعطت الثورة العربية بعد رحلة عبد الناصر الى الأمم المتحدة اهتماما خاصا لأفريقيا التي كانت ترتفع فيها أعلام الحرية ، والتي كانت تخوض ضد الاستعمار معركة ضارية . فقدمت الثورة العربية ما تستطيع تقديمه لحركة التحرير الأفريقية ، فضلا عن انشغالها المباشر بثورة الشعب العربي الجزائري التي كانت تمر آنذاك بفترة دقيقة . وكانت ثورة الجزائر كجزء من الثورة العربية تقدم المثل الذي يحتذى لشعوب القارة الأخرى. وقد نشط عبد الناصر في الشهرين الأخيرين من عام ١٩٦٠ أفريقيا وأعلن في ذكرى تفجر ثورة الجزائر ان مساندة الجمهورية العربية المتحدة لشعب الجزائر لا تقف عند حد . كما زار السودان يوم ١٥ نوفمبر وبعث برسائل حول أزمة الكونجو الى عدد من رؤساء الدول الآسيوية والأفريقية .

وضمن هذه الانطلاقة الأفريقية انعقد مؤتمر الدار البيضاء في يناير ١٩٦١ وحضرته ج.ع... وغانا وغينيا ومالي والمغرب والجزائر (الحكومة المؤقتة) . وأعلن المؤتمر « تصميم الدول المجتمعة على تحقيق النصر للحرية في القارة الأفريقية كلها ، واقامة صرح وحدتها » وطالب عبد الناصر بحلول عملية لمشكلة الكونجو ، كما أعلن ان الصحراء الكبرى لم تعد فاصلا بين دول أفريقيا . واعتبر المؤتمر ان اسرائيل قاعدة عدوانية استعمارية ضد الشعوب الأفريقية . وأكدت دوله تصميمها على المحافظة على وحدتها في الرأي والعمل في الميدان الدولي وترسيخ أقدام هذه الوحدة وتعزيز السلام في العالم عن طريق تبني سياسة عدم الانحياز ... ولقد حدد عبد الناصر طبيعة المرحلة التي تمر بها القارة في خطابه بالمؤتمر .

« لقد كان في فكري دائما انه اذا كان العام الـذي مضى عام ١٩٦٠ ـ عام أعياد الاستقـلال في أفريقيـا فان هذا العام الذي بدأناه ـ عام ١٩٦١ ـ يجب أن يكون عام حماية الاستقلال ودعم تعاوننا الأفريقي حتى لا نكتفي من الاستقلال بالعيـد ••• ولقـد رأينا في السابـق ان ما تصورناه عيدا للانتصار كان في واقع الأمر يـوم الخطـر الأكبر » •

والحق ان خطرا كبيرا كان يهدد حركة التحرر الأفريقية • وما أسرع أن نجح الاستعمار في تدبير جريمة اغتيال باتريس لومومبـا في أعقـاب مؤتمر الدار البيضاء • وقد وقفت الثورة العربية تندد بالجريمـة وأعلـن عبد الناصر يوم ١٣ فبراير أن جريمة اغتيال لومومبا سوف تؤذي الضمير الانساني كله • وسارعت الجمهورية العربيـة المتحـدة الى الاعتراف بجيزنجا رئيسا لوزراء الكونجو • وخرجت القاهرة في جنازة شعبية مـن أجل لومومبا ، واستضافت أسرته للاقامـة بها وطلبـت أن يبحث مجلس الأمن مؤامرة تصفية استقلال الكونجو • وكتب عبد الناصر الى جـون كيندي رسالته الأولى بمناسبة اغتيال لومومبا وضمنها مشاعـره تجـاه المأساة الاليمة وأفكاره حول أفريقيا وذلك ضمن سياسة الاتصال المباشر التي سار عليها • وقد حدد في الرسالة ثلاث عوامل تثير قلقه وهي الجريمة التي ارتكبت وما يمكن أن ينشأ عنها من أخطار والموقف العصيب الـذي صارت اليه أعمال الأمم المتحـدة في الكونجو ، والصدمـة التي تلقتهـا الشعوب الأفريقية المتطلعة الى أملها بعد ليل استعمـاري طويل • وطرح أفكارا محددة فيما ينبغي عمله دوليا [١] •

---

(١) انظر نص الرسالة هيكل ، ص ٢٥٠ .

وفي نطاق الحشد لمجابهة هذا الخطر الكبير جاء افتتاح مؤتمر الشعوب الأفريقية في القاهرة يوم ٢٤ مارس . وقد قال عبد الناصر لوفود المؤتمر ان المعركة ضد الاستعمار مستمرة . وحدد خطآن وقع فيهما النضال الأفريقي وهما ، وهم استسلام الاستعمار وتفرق كلمة أفريقيا . وطالب بازالة القواعد العسكرية الأجنبية واستعادة الأراضي والمناجم الأفريقية .

وكانت الثورة العربية دائبة على تبني قضايا التحرر الأفريقي منذ أن تصدت لحمل مشعل الحرية في أفريقيا بعد باندونج . وقد جعلت من القاهرة المركز الأول للوطنيين الأفارقة، فأسست فيها « الرابطة الافريقية » التي قامت بدور هام في مجال الكفاح السياسي لأبناء القارة المضطهدين والمنفيين من المناضلين ، وفي مجال الأعلام عن حركات التحرر . ودربت هذه الرابطة قيادات كان لها دورها في الكفاح في أوطانها . وافتتحت في القاهرة مكاتب لحركات تحرير الكاميرون وأوغندا والصومال وجنوب أفريقيا واتحاد روديسيا ونياسلاند وكينيا وموزمبيق والنيجر ونيجيريا وتشاد وزنزبار . وخصصت القاهرة اذاعة وطنية موجهة « لأفريقيا الحرة » تذيع باللغات الصومالية والسواحلية والأمهرية والهوسا فضلا عن الانجليزية والفرنسية . وأصبحت القاهرة مسرحا للقاءات ومؤتمرات ثورات أفريقيا. وقد عقد فيها خلال ستة شهور تمتد بين ديسمبر ١٩٦٠ ويونيو ١٩٦١ عدة مؤتمرات ساهمت على مستويات مختلفة في حركة تحرير القارة من بينها مؤتمرات « اجلوا عن أفريقيا » ومؤتمر نساء أفريقيا والمؤتمر الثالث لشعوب أفريقيا ومؤتمر تضامن شعوب أفريقيا وآسيا . وبلورت هذه المؤتمرات توصيات محدودة حول « خلق منظمة مشتركة لمساعدة حركات التحرر في أفريقيا ، وضرورة القضاء على الاستعمار في أفريقيا بكل الوسائل الممكنة السلمية وغير السلمية والنظر الى الحكومات الاستعمارية في

بلجيكا وفرنسا وبريطانيا وهولندا واسرائيل وجنوب أفريقيا والولايات المتحدة باعتبارها المخطط الأساسي لسياسة الاستعمار الجديد » . وفتحت القاهرة أبواب معاهدها وجامعاتها العلمية وكلياتها العسكرية أمام أبناء شعوب القاهرة فكان فيها عام ١٩٦٠ أربعة آلاف طالب أفريقي وهو يماثل العدد الذي كان يدرس في فرنسا . وكان لهذا العدد أثره الهام في مجابهة الولاء الفكري للغرب بين كثيرين من المثقفين الأفريقيين الذين درسوا في أوروبا (١) .

وحققت هذه الجهود التي قدمتها الثورة العربية لحركة التحرر الافريقي نتائج مباركة . وكان عام ١٩٦٠ علامة كبرى في تاريخ القارة . فالى ما قبله كان فيها عشر دول مستقلة فاستقلت خلاله سبع عشرة دولة جديدة . واعتبر ذلك العام عام افريقيا . وخلال السنوات العشر التي تلت عام ١٩٥٦ ظفرت اربع وثلاثون دولة افريقية بالاستقلال كما اوصلت هذه الجهود الى بناء منظمة الوحدة الافريقية عام ١٩٦٣ وسنصل للحديث عنها.

كان تصدي الثورة العربية لهذا الدور في افريقيا جزءا من سياسة عدم الانحياز والحياد الايجابي مارسته عمليا وأغنت به هذه السياسة . وقد تتالت احداث في ربيع ١٩٦١ اوصلت الى عقد اول مؤتمر للدول غير المنحازة . ففي ١٧ ابريل زار تيتو الجمهورية العربية المتحدة وتباحث مع عبد الناصر حول الشؤون الدولية . ونشبت خلال زيارته أزمة خليج

---

(١) يراجع مقال عبد الناصر وحركة التحرر الافريقية في مجلة الآداب العدد الخاص عن عبد الناصر ، فبراير ١٩٧١ م .

الخنازير في كوبا ، فبعث عبد الناصر رسالة الى فيدل كاسترو يعلن فيها تأييد الجمهورية العربية المتحدة لكوبا ضد العدوان الاميركي • وقد تضمن البيان المشترك بين عبد الناصر وتيتو استنكار العدوان على كوبا ومنع استخدام القوة في حل المنازعات العالمية • وفي ٤ مايو بعث الرئيسان برسالة الى رؤساء الدول غير المنحازة يطالبان فيها بعقد اجتماع لرؤساء هذه الدول • وتلقت القاهرة رسائل من عدد من رؤساء الدول تتضمن الموافقة على الحضور وتباحث عبد الناصر في القاهرة يوم ١٦ مايو مع سيكوتوري وسوكارنو حول المؤتمر • وحين تلقى عبد الناصر رسالة من كينيدي تضمنت وجهة النظر الاميركية في احداث كوبا رد عليه في ١٨ مايو برسالة مطولة حدد فيها عدم الانحياز كما تطرحه الثورة العربية •

« اننا في سياستنا الدولية نؤمن بعدم الانحياز •وليس عدم الانحياز من وجهة نظرنا سلبية وليس انتهازية انما معناه بالنسبة الينا تحرير نظرتنا الى المشاكل الدولية من قيود الارتباطات غير الموضوعية وجعلها نظرة مستقلة تشارك ايجابيا في دعم السلام القائم على العدل وتبدي رأيها في كل مشكلة بوحي من هذا الاعتبار » •

وافتتح الاجتماع التمهيدي لمؤتمر الدول غير المنحازة في القاهرة يوم ٥ يونيو وقرر دعوة اول مؤتمر لعدم الانحياز في بلغراد في سبتمبر ١٩٦١ • ووقع عبد الناصر على الدعوة مع تيتو وسوكارنو • وحدد الاجتماع خمسة شروط ينبغي توافرها في الدول التي تريد الاشتراك في المؤتمر • وهذه الشروط هي أن تكون سياستها مستقلة مبنية على التعايش السلمي وعدم الانحياز ، أو يكون اتجاهها وديا ازاء هذه السياسة • وان

تكون مؤيدة لحركات التحرر الوطني • وأن لا تكون مشتركة في أي حلف عسكري جماعي يجعلها طرفا في الصدام بين الدول الكبرى • وأن لا تكون مشتركة في أي تحالف ثنائي مع دولة كبرى • وأن لا تكون قد سمحت لدولة أجنبية باقامة قواعد عسكرية في أراضيها •

وانعقد المؤتمر الاول للدول غير المنحازة في الاول من سبتمبر ببلغراد وحضرته اثنتان وثلاثون دولة على الرغم من ان « بعض الدول الكبرى لم يبق مكتوف اليدين » على حد تعبير تيتو في رسالة له لعبد الناصر قبيل المؤتمر • « فقد بدأوا يزاولون الضغط على كل رؤساء دول عدم الانحياز من أجل حملهم على عدم حضور المؤتمر أو عدم ارسال ممثليهم اليه • على أن ذلك لا يمكن ان يقال بالنسبة الى معسكر من المعسكرين انما يمكن ان يقال بالنسبة اليهما معا • « وجاء انعقاد المؤتمر في جو احتدم فيه الصراع بين المعسكرين أثر فشل مغامرة اميركا في كوبا وفشل لقاء خروشوف وكينيدي في فيينا وتصعيد القتال في لاوس • وقد سلم السفير السوفيتي قبل يومين من الانعقاد رسالة شخصية من خروشوف جاء فيها ان الاتحاد السوفيتي سيستأنف اجراء التجارب على الاسلحة النووية وهو أمر يخالف ما تنادي به دول عدم الانحياز من وقف هذه التجارب [1] •

وحدد عبد الناصر باسم الثورة العربية مفهوم عدم الانحياز في خطابه امام المؤتمر ، وشرح دور الدول غير المنحازة في خدمة السلام القائم على العدل في العالم وفي تحرير الشعوب المستعمرة وتحقيق التعاون الدولي من أجل الرخاء •

---

(١) هيكل ، ص ٣٧١ •

« لا ينبغي أن يكون هناك ما يوحي من قريب أو بعيد بأن الدول الملتزمة بسياسة عدم الانحياز انما تصنع بنشاطها كتلة دولية ثالثة • اننا نعيش في عالم يعاني من الصراع بين كتلتين ولا تتصور ان تدخل العملية كتلة ثالثة تزيد من حدة هذا الصراع بدلا من أن تخفف وطأته •

ان ابرز ما يجمعنا هو التحرر من آي قيد سوى ما تفرضه المبادىء ورغبة كل منا بقدر طاقته أن يخدم هذه المبادىء • والحافز الذي جمعنا اليوم هنا بالذات هو الحافز الذي لا يسكن بغير توافره ان تتاح الحياة لأي مبدأ من المبادىء وأعني به حافز السلام • ولا توجد قوة قادرة على خدمة السلام مثل مجموعة الدول التي تتبع سياسة عدم الانحياز • فان هذه الدول التي تعيش مشاكل عالمها لا تنعزل عنها أو تنفصل . والتي لا تخضع في مواقفها من هذه المشاكل لضغط كتلة من الكتل تحدد لها مواقفها وترسم لها اتجاه خطاها والتي تصدر في كل ما تراه بشأن هذه المشاكل عن دافع السلام القائم على العدل بصرف النظر عن أي اعتبار آخر • هذه المجموعة من الدول أقدر على أن تضع في خدمة السلام بنزاهة وتجرد كل طاقاتها المادية والمعنوية وهي لذلك اقدر على الحركة الطليقة النزيهة المتجردة •

انه في جو السلام وحده نستطيع أن نطور الحياة في بلادنا وان نزيد خصوبتها الخلاقة ــ وفي جو السلام

نستطيع ان نساعد شعوبا غيرنا كثيرة ما زالت ترسف في الاغلال » .

وطرح عبد الناصر امام المؤتمر ستة اقتراحات يتعلق أولها بوضع خطة واضحة لدعم المفاوضات بين الكتلتين في محاولة لاذابة الجليد الفاصل بينهما . ويتعلق الاقتراح الثاني بتمكين الأمم المتحدة من أداء رسالتها . ثم تنص بقية الاقتراحات على اتاحة فرص التقدم أمام الشعوب التي لم تستكمل نموها الاقتصادي والاجتماعي وان تواصل دول عدم الانحياز جهودها من أجل السلام وأن تعمل على ضرورة تصفية الاستعمار وعلى تحريك كل القوى المستعدة للخير . وقد وافق المؤتمر على الاقتراح الأول وكلف أربعة أقطاب بحمل رسالتين الى خروشوف وكينيدي تطلبان اليهما ان يجتمعا ويتفاوضا من أجل السلام العالمي (١) . وقد حمل هذا الطلب معنى كبيرا ، فللمرة الاولى في التاريخ ــ كما قال نهرو آنذاك ــ تتقدم أقل الدول قوة بمطالب ــ ترقى الى مرتبة الأمر ــ لأكثر الدول قوة في العالم . ومع أن المبعوثين الاربعة لم ينجحوا في مهمتهم الا ان الموقف العنيد لدول عدم الانحياز حيال استئناف التجارب النووية ساعد على ابرام الاتفاق الجزئي على حظر التجارب النووية بين اميركا وروسيا .

● ●

والآن وبعد هذه المتابعة لبروز ونمو فكرة عدم الانحياز منذ باندونج

---

(١) أوفد المؤتمر سوكارنو وموديبوكيتا الى البيت الابيض ونهرو ونكروما الى الكرملين .

حتى انعقاد المؤتمر الاول والتي تعرفنا فيها على دور الثورة العربية وعبد الناصر في بلورة الفكرة ودعمها •• نقف لنتعرف اكثر من خلال التحليل على الفكرة وأبعادها •

لقد تضمن البيان المشترك لمؤتمر بلغراد شرحا واضحا لفكرة عدم الانحياز • كما وجه البيان الختامي نداء الى الدولتين الكبيرتين اعتبر أبرز عمل من أعمال المؤتمر وأثبت دليل على أن دول عدم الانحياز لم تجتمع في تكتل ثالث يخاصم ويقاوم الكتلتين القائمتين •• وقد أبدى المؤتمر في هذا البيان الختامي قلقه من خطورة الحالة الدولية « بحيث أن أقل نزاع من شأنه ان يؤدي الى حرب افنائية » • وهذا يعني أن خطر الصدام بين الكتلتين يتهدد العالم • ورأى المؤتمر « أن خير علاج لتفادي مثل هذه الحرب هو أن توقف الولايات المتحدة وروسيا استعداداتهما الحربية ••• وتستأنفا مفاوضاتهما لتسوية المسائل وفقا لمبادىء ميثاق الامم المتحدة حتى تصلا الى نزاع شامل للسلاح » • وأوضح المؤتمر « انه اذا كانت قرارات الحرب والسلام تتوقف على أمريكا وروسيا فان نتائجها تمس العالم بأسره • فمن المصلحة الدائمة لجميع الامم والشعوب أن يكون من شأن الوسائل والاعمال التي تعتمدها الدول الكبرى أن تمكن البشرية من السير قدما في طريقا السلام والازدهار لا الى الابادة والدمار » • وعلى هذا فقد وجه المؤتمر النداء للدولتين وتمنى على جميع الدول في العالم انتوجه نداء مماثلا •

وتتابع شرح البيان المشترك لفكرة عدم الانحياز فنراه يقول :

« ان العالم الذي نعيش فيه يمتاز بوجود انظمة اجتماعية مختلفة • وترى الدول المشتركة في المؤتمر أن الفوارق في الانظمة لا تعتبر عقبة

يصعب تغييرها طلبا لاقرار السلام بشرط ان تحظر محاولات السيطـرة والتدخل في شؤون الشعوب والأمم الاخرى •

وانه يتوجب على جميع الشعوب والامم ان تحل مشاكلها الخاصة بأنظمتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وفقـا لأحوالهـا وامكاناتها • وكل محاولة لفرض نظام اجتماعي أو سياسي معين علـى الشعوب بالقوة ومن الخارج تعرض السلام العالمي للخطر المباشر •

وترى الدول المشتركة في المؤتمر ان مبادىء التعايش السلمي هي الطريق الواجب سلوكه ازاء الحرب الباردة وخطر وقوع كارثة نوويـة عامة • ونظرا الى ان تطور المجتمع البشري يكون دائما مصحوبا بعقائـد مختلفة ، فان الدول المشتركة في المؤتمر ترى من واجب الشعوب والحكومات ان تمتنع عن استخدام العقائد لاثارة الحرب الباردة والالتجاء الى وسائل الضغط لفرض ارادتها •

ولا يتقدم رؤساء حكومات الدول غير المنحـازة باقتراحات عملية لتسوية جميع الخلافات الدولية ولا سيما الخلافات بين الكتلتين • وهـم يودون قبل كل شيء لفت الأنظار الى المشاكل الحالية لايجاد حل لها بشيء من الواقعية وتقدير للمسؤوليات •• ولا تسعى الدول غير المنحازة الممثلة في المؤتمرات الى انشاء كتلة جديدة ولا تستطيع تأليف كتلة • وكل مـا ترغب فيه هو التعاون المخلص مع كل حكومة تحاول المساهمة في توطيد اركان الثقة واقرار السلام في العالم ••

ويتابع البيان شرحه فيعارض مطامع الدول في ضم اراض دول اخرى، ويؤكد على حق جميع الامم في الوحدة وتقرير المصير وعلى حق الشعوب

في التصرف بحرية بثرواتها وعلى ضرورة نزع السلاح وعلى وجوب بـذل الجهود لازالة الاخلال في التوازن الاقتصادي « بمعالجة الفارق المتزايـد بين مستوى المعيشة في الدول المتقدمة صناعيا والدول العديدة المتأخرة اقتصاديا » • واختتم البيان بأن جميع هذه المطـالب في روحها ونصهـا تتفق مع المبادىء الانسانية التي نص عليها ميثاق الامم المتحدة « وبذلك تعتبر دول عدم الانحياز انها تمثل ما سوف يكون عليه العالم عندمـا تصبح الدول باختلاف عقائدها ومطامحها قادرة على تأمين مصالحها كجزء من مصالح المجموعة الدولية » •

ان هذا الشرح لفكرة الحياد الايجابي وعدم الانحياز يوضح انهـا كما عبر عنها اقطابها هي ضمير العالم وصمام أمنه • ولقد كان تيتو يقول « نحن ضمير العالم ولسنا عضلاته » ويقول عبد الناصر عن مفهوم عدم الانحياز :

« هو صيغة جديدة في العلاقات الدولية تمثل قـوة الضمير في عالمنا الذي نعيش فيه » •

وسياسة عدم الانحياز تستوحي من فكرته مجموعـة المبـادىء السياسية التي تسير عليها في علاقاتها الدولية البلدان التي لم تنضم لأي من الكتلتين • وهي تختلف عن سياسة التكتلات لانها ليست في خدمـة فريق من الدول كوسيلة لتأمين مصالح مشتركة فيما بينها •

ان عدم الانحياز والحياد الايجابي هو ظاهرة سياسية معـاصرة انبثقت في عالمنا المعاصر نتيجة لثورة التحرير والانقلاب النووي اللذين تميز بهما • فثورة التحرير أوجدت الدول المستقلة حديثا التي شكلـت

« العالم الثالث » والتي بحثت لها عن مكان في عالم اليوم • والانقلاب النووي غير متوازن الاستراتيجية الدولية وفرض على هذه الدول البحث عن حلول لأبعاد خطر الافناء عن العالم •

لقد « جمع العالم الثالث » اذن بين دول تعيش ظروفا متشابهة • فهي دول خرجت بثورة التحرير من الاستعمار القديم الذي كان لا يزال يتسلط ويستعمر اقطارا مجاورة لها • وهي تستشعر منه الخطر عليها وعلى جيرانها فتعلن حربها ضده وتستشعر في الوقت نفسه خطر أكبر من الاستعمار الجديد وسط حرصها على حماية استقلالها الذي بذلت الكثير من أجله • وهي ترى نفسها قد تخلفت ــ بفعل عوامل عدة من بينها استنزاف الاستعمار لمواردها ــ عن ركب التقدم والعلم فتحاول ان تغذ السير في طريق التقدم• وفي محاولتها هذه عليها ان تحذر مناورات الاستعمار الجديد الذي يريد احتواءها بالمساعدات • وهي اخيرا تعيش في عالمها الذي يعاني من صراع الكتلتين ومن حرب باردة مستحكمة اعقبت الحرب العالمية الثانية ؛ ويتهددها وسط هذه الحرب الخطر النووي وسعي كل من الكتلتين لربطها الى عجلتها •

هي اذن قضايا ثلاثة رسمت حدود « العالم الثالث » وبلورت فكرة عدم الانحياز والحياد الايجابي أولها قضية القضاء على الاستعمار وثانيها قضية السلام وابعاد الخطر الذي يتهدد العالم وثالثها قضية التقدم والتعايش الدولي من أجل الرخاء •

لقد تصدت الثورة العربية بقيادة عبد الناصر لهذه القضايا الثلاثة وحددت مواقفها منها فكرا وتطبيقا وفي عام ١٩٦٢ صدر الميثاق وتضمن شرحا لسياسة الجمهورية العربية المتحدة الخارجية التي جسدت هذه

المواقف وعبرت عن فكرة الثورة العربية تجاه القضايا الدولية . ويقول الميثاق :

« والسياسة الخارجية لشعب الجمهورية العربية المتحدة انعكاس أمين وصادق لعمله الوطني تمتد في ثلاثة خطوط حفرت مجراها عميقا ومستقيما بنضال شعب باسل صمد لكل انواع الضغط وانتصر عليها .

ان الخطوط الثلاثة العميقة في السياسة الخارجية للجمهورية العربية تعبيرا عن مبادئها هي الحرب ضد الاستعمار والسيطرة بكل الطاقات والوسائل . وكشفه في جميع اقنعته ومحاربته في كل اوكاره .

والعمل من اجل السلام لأن جو السلام واحتمالاته هو الفرصة الوحيدة الصالحة لرعاية التقدم الوطني .

ثم التعاون الدولي من اجل الرخاء ، فان الرخاء المشترك لجميع الشعوب لم يعد قابلا للتجزئة كما انه اصبح في حاجة الى التعاون الجماعي لتوفيره » .

ويشرح الميثاق كلا من هذه الخطوط ، بادئا بالحرب ضد الاستعمار فيحكي نضال الشعب العربي في هذا المجال منذ ان جوبه بالاستعمار حتى انتصاره على العدوان الثلاثي . ثم يتحدث عن الحاضر والمستقبل.

« ان الاستعمار الذي ما زال متمسكا بأهدافه غيّر اسلوبه .

ان شعبنا كان بالمرصاد لكل محاولات التنكر والتخفي

وواصل مطاردته لها وتجميع قوى الشعوب ضدها » •

ويسجل الميثاق اصرار الشعوب على محاربة الأحلاف العسكرية وتصفية العدوان الاسرائيلي على جزء من الوطن الفلسطيني ومقاومةالتمييز العنصري • ثم يتحدث عن السعي نحو السلام مشيرا الى مساهمة شعبنا في اعمال باندونج ومشاركته في اعمال الأمم المتحدة وفي العمل من اجل تحريم التجارب الذرية ونزع السلاح لأنه يؤمن ايمانا مطلقا بالحياة • ثم يقول الميثاق :

« ان العمل من اجل السلام هو الذي سلّح شعبنا بشعار عدم الانحياز والحياد الايجابي » •

ويتحدث الميثاق عن التعاون الدولي من اجل الرخاء المشترك لشعوب العالم فيرى انه « امتداد طبيعي للحرب ضد الاستعمار وضد الاستغلال، وهو استطراد منطقي للعمل من أجل السلام لتوفير الجو الأمثل للتطوير،

« ان السلام لا يمكن أن يستقر في عالم تتفاوت فيه مستويات الشعوب تفاوتا مخيفا • انالسلام لا يمكن ان يستقر على حافة الهوة السحيقة التي تفصل بين الأممالمتحدة والأمم التي فرض عليها التخلف •

ان الصدام المحقق بين التخلف والتقدم هو الخطر الثاني الذي يهدد السلام العالمي بعد الخطر الأول الذي يكمن في نشوب حرب ذرية مفاجئة •

ان التعاون الدولي من اجل الرخاء هو الأملالوحيد

في تطور سلمي يقرب ما بين مستويات الأمم ويزرع المحبة بينها بديلا عن سموم الكراهية » .

ويحدد الميثاق الجبهة العريضة التي يمتد عليها التعاون الدولي والتي تحاول الثورة العربية أن تتحرك عليها وتشمل هذه الجبهة فتح الأسرار العلمية للجميع « فان احتكار العلم يهدد البشرية بنوع جديد من السيطرة الاستعمارية » والدعوة الى توجيه الذرة للسلام حتى تستطيع ان تخدم قضية التطوير وتضيء جوانب التخلف المظلم ، ومواجهة التكتلات الاقتصادية الدولية بحيث لا تستخدم بواسطة الأقوياء لتحطيم محاولات غيرهم من أجل التقدم .

وبعد أن ينهي الميثاق شرحه لهذه الخطوط العميقة الثلاث التي تمثل مجموعها فكرة عدم الانحياز والحياد الايجابي وتحمل في طياتها رؤية واضحة لما ينبغي أن يكون عليه مستقبل الانسانية ، نراه يحدد الدوائر التي تتحرك فيها الثورة العربية .

« واذا كان شعبنا يؤمن بوحدة عربية ، فهو يؤمن بجامعة افريقية ، ويؤمن بتضامن آسيوي افريقي ويؤمن بتجمع من أجل السلام يضم جهود الذين ترتبط مصالحهم به ، ويؤمن برباط روحي وثيق يشده الى العالم الاسلامي ، ويؤمن بانتمائه الى الامم المتحدة وبولائه لميثاقها الذي استخلصته آلام الشعوب في محنة حربين عالميتين تخللتهما فترة من الهدنة المسلحة » .

ويوضح الميثاق ان الايمان بهذا كله لا يتعارض مع بعض وانما هي

حلقات سلسلة واحدة • ويشرح مرتكزات هذا الايمان معبرا عن مدى انفتاح الثورة العربية وبحثها نقاط اللقاء في العالم وفهمها للمشكلات الدولية المزمنة • ويختم الميثاق هذا الحديث •

« ان شعبنا قد عقد العزم على أن يعيد صنع الحياة على أرضه بالحرية والحق والكفاية والعدل بالمحبة والسلام •

ان شعبنا يملك من ايمانه بالله وايمانه بنفسه ما يمكنه من فرض ارادته على الحياة ليصوغها من جديد وفق امانيه » •

قلنا ان هذه القضايا الثلاثة بلورت فكرة عدم الانحياز والحياد الايجابي ورسمت حدود العالم الثالث وقد برزت نتيجة لثورة التحرير والانقلاب النووي في عالمنا المعاصر • وحين تمت بلورة الفكرة وانعقد المؤتمر الاول للدول غير المنحازة كانت المرحلة الثانية من مراحل توازن القوى بين الكتلتين التي تقوم على استراتيجية الغدر والردع الشامل في أوجها . وأعصاب العالم مشدودة بسبب ذلك كما رأينا ، وقد استطاعت جهود الدول غير المنحازة ان تخفف من التوتر العالمي وأبت هذه الدول على اطلاق صيحات التحذير من خطر الحرب ونداءات السلام القائم على العدل • وعملت على توفير الجو السياسي والاقتصادي الذي يمهد لسلام بنّاء •

وقادت الجمهورية العربية المتحدة مع الهند ويوغوسلافيا هذه الجهود • وكانت لقاءات زعماء عدم الانحياز الثلاثة مناسبة لاطلاق الصيحات والنداءات • وبعد مؤتمر بلغراد بشهرين التقوا بالقاهرة وأصدروا في ١٩ نوفمبر بيانا ثلاثيا يعلن أن بذل كل جهد من أجل السلام هو الهدف الحيوي

للسياسة الخارجية للدول الثلاثة • وفي ٢١ مارس ١٩٦٢ وجهت الجمهورية العربية المتحدة نداء الى الدول الذرية للامتناع فورا عن التجارب النووية• ووقفت القاهرة بعد ذلك يوم ٢٦ ابريل مع الرأي العام العالمي احتجاجا على سلسلة تجارب ذرية قامت بها الولايات المتحدة • وكان عبد الناصر قد أبدى استعداده للسفر الى جنيف في رسالة جوابية منه لخروشوف من أجل السعي لعقد اجتماع للجنة نزع السلاح على مستوى رؤساء الدول اذا كان في ذلك خدمة للسلام •

بفعل هذه الجهود وبفضل تجارب الضمير العالمي مع المبادىء التي اعلنتها الدول غير المنحازة أصبح لهذه الدول صوتها المسموع في النزاعات الدولية • وأخذت الثورة العربية ضمن فريق عدم الانحياز مكانها في عالم اليوم • وكانت حركة عبد الناصر كما رأينا سريعة واثقة بالمبادىء التي تنطلق منها • وكانت كلماته معبرة اصدق تعبير عن المثل الخلقية لهذه المبادىء • وهكذا وجدنا كيندي يكتب لعبد الناصر شارحا حين تفجرت أزمة الصواريخ السوفيتية في كوبا في اكتوبر ١٩٦٢ ، ويرد عبد الناصر خاتما رسالته بتسجيل وجهة نظره في المسؤولية الهائلة التي تتحملها الولايات المتحدة حيال الجنس البشري اجمع •

« اننا نعتقد ان الولايات المتحدة بكل قوتها وهيبتها تقدر على دعم السلم كما لا يقدر عليه أحد • كما انها تتحمل مسؤولية تاريخية أمام البشرية كلها في هذا الصدد ، حيث السلام القائم على العدل مطلب انساني يتقدم جميع المطالب الاخرى فهو لا يصون الحياة فقط ، انما هو يكرمها •

ولم تكن رحلة الدول غير المنحازة للوصول الى هدفها رحلة سهلة ،

فقد شقت طريقها وسط صعوبات أهمها موقف الكتلتين من فكرة عدم الانحياز . فأما كتلة الغرب الاستعماري بما تمثله من استعمار قديم واستعمار جديد فقد رفضت الفكرة وحاربتها بشدة منذ ظهورها ــ كما رأينا ــ واستماتت في محاولة ضم العالم الثالث ، عالم الدول النامية الفقيرة حديثة الاستقلال ، والحاقها في فلكها السياسي والمذهبي حتى وان وصل الضغط والاكراه الى حد العنف والقهر .

وفي هذا السبيل ــ كما يقول جمال حمدان ــ « استهدف الغرب هدفين الاستراتيجية والايديولوجية واتخذ اداتين الاحلاف العسكرية والنموذج الرأسمالي » وقد رأينا كيف اعتمد في الاستراتيجية على الاحلاف العسكرية التي ركز فيها على الوطن العربي وجنوب شرقي آسيا ثم افريقيا ، واصفا اياها بالاحلاف « الدفاعية » ضد « الخطر الشيوعي » وكان منطقه في حملته الشرسة هذه هو انه مع التحرير اصبحت هذه المناطق بلا قوة حربية تواجه ذلك الخطر ، فهي تعاني من وجود فراغ لا بد من ملئه بالأحلاف (١) . وقد رأينا كيف نظر دالاس الى فكرة عدم الانحياز على انها خيانة لحملته ضد الشيوعية ، ثم كيف طرح ايزنهاور مبدأه القائم على نظرية الفراغ .

وحين تفجر رد شعوب العالم الثالث في وجه هذه الاستراتيجية وسقطت سياسة الاحلاف الغربية انطلق المعسكر الغربي الرأسمالي ليعرض على العالم ايديولوجيته الرأسمالية ، مستغلا وجوده الاستعماري السابق

---

(١) انظر جمال حمدان ، ص ٣٣٢ .

فيه وعلاقاته الاحتكارية الجديدة معه • وقد وقفت دول العالم الثالث ضد هذا العرض مدركة أن نكبتها كانت كبيرة بسبب النظام الرأسمالي وانه لا سبيل أمامها لتعوض ما فاتها الا الاقتصاد الموجه والتخطيط •

ولم يختلف موقف كتلة المعسكر الشرقي كثيرا من قبول فكرة عدم الانحياز عن المعسكر الغربي مع اختلاف الدوافع • فقد نظر بريبة وشك بادىء الأمر — كما سبق أن ذكرنا — للثورة العربية في بداية الخمسينات، ولكنه التقى معها ومع ثورة التحرير في العالم الثالث على محاربة الاستعمار الغربي • وكان في صالحه أن يعزز وقفة دول العالم الثالث ضد الأحلاف الغربية الموجهة ضده • ولكنه بقي من الناحية النظرية يتطلع لثورات بروليتارية شيوعية فيها ؛ ويشك في الطريق الاشتراكي الذي اختارته دول العالم الثالث معلنا انه لا اشتراكية الا الاشتراكية العلمية « الماركسية » • وهكذا توزع الاتحاد السوفياتي في موقفه من عدم الانحياز بين الرفض الذي يقول به بعض المنظرين وبين القبول الذي يفرضه العداء للاستعمار الغربي • ولقد كان يتردد في أوساط الكرملين حين بدأت فكرة عدم الانحياز تشق طريقها ما قاله تشاييف مدير ادارة الشرق الاوسط في وزارة الخارجيةالسوفيتية لعبد الحكيم عامر عام ١٩٥٧ « انعدم الانحياز خرافة، وعلى مصر ان تقرر اختيار معسكر دولي اذا كانت راغبة في أن تكسب قوة حقيقية •• وان عدم الانحياز مثل السير على حبل مشدود ولن يصمد طويلا » [١] • ثم حين قبل الاتحاد السوفيتي بالفكرة وبدأ يتعامل مع دول

---

(١) انظر القصة كاملة كما اوردها هيكل ؛ ص ٢٩٧ •

العالم الثالث على أساس من هذا القبول بقي موقفه محكوما بمصلحته كاحدى الكتلتين • ويعبر عن هذا الموقف جواب خروشوف على سؤال عبد الناصر له لماذا لا يحتمل عدم انحياز تيتو في الوقت الذي يقبل بعدم انحيازه • فقد قال خروشوف « لأنه اذا نجح تيتو فان من شأنه ان يؤثر في كتلتنا . لكنك اذا نجحت انت فان من شأنك أن تؤثر في الكتلة الأخرى » (١) • وسواء أكان هذا الحوار قد حدث بنصه أو انه قصة رمزية فان قول خروشوف يعبر عن موقف الاتحاد السوفيتي من الفكرة بعد أن شقت طريقها • ونلاحظ ان قبول الكتلة الشرقية بفكرة عدم الانحياز كواقع سياسي لم يقترن به قبول نظري بها كايديولوجية متميزة • فبقيت لا تقبل تسمية اشتراكية دول العالم الثالث بالاشتراكية ، بل تنظر اليها كطريق غير رأسمالي أو كمرحلة انتقال من الرأسمالية الى الشيوعية • وتركز على أنها حركات تحرر وطني وكما ظهرت في الغرب الاستعماري دراسات كثيرة عن العالم الثالث تشكك في فكرة عدم الانحياز من أساسها ، ظهرت في المعسكر الشرقي دراسات عن العالم الثالث تنطلق من قبول الفكرة وتحاول توجيهها وفلسفتها ماركسيا (٢) •

وهكذا نجد ان رحلة الحياد الايجابي وعدم الانحياز عبرت جسرا من الصراع • وأفادت من الحرب الباردة بين المعسكرين ولكنها لم تصبح جزءا منها • واستطاعت وسط ظروف توازن القوى العالمي ان تؤثر وتساهم في توجيه سياسة العالم •

• •

---

(١) هيكل ، ص ٣٦٧ .
(٢) يراجع كتاب « العالم الثالث » الصادر عن مكتبة الشرق .

بعد النجاح الذي حققته فكرة عدم الانحياز في مؤتمرها الاول ببلغراد تابعت الدول غير المنحازة سيرها في الطريق الثالث • وتحملت الثـورة العربية مسؤولية كبيرة في قيادة الركب واعلاء الفكرة • وكان ذلك يعني النضال وفق الخطوط الثلاث التي حكمت سياستها الخارجية • وضمن خط النضال من أجل الرخاء والقضاء على التخلف في الدول المستقلة حديثا دعا عبد الناصر وتيتو الى أول مؤتمر للدول النامية ليبحث في مسائل التنمية الاقتصادية • وعقد المؤتمر بالقاهرة وحضرته ست وثلاثون دولة نامية • وقد حدد عبد الناصر في خطابه في افتتاح المؤتمر يوم ٩ يوليو ١٩٦٢ المشكلة التي تواجهها الدول النامية في عالم اليوم وطرح أفكارا لحلها •

« انكم جميعا قادمون الى هنا من أوطان تبذل شعوبهـا جهودا جبارة لاعادة صنع حياتها • شعوب أرغمت علـى التخلف في غالب الاحيان بسبب ظـروف لا دخل فيهـا لارادتها •• شعوب تيقظ فيها التصميم الاكيد على تعويض الماضي . وعلى اللحاق بالمستقبل في ظروف يخطو فيها التقدم بسرعة متزايدة •

•• ان هذه الشعوب ـ برغم كل جهودها ونظـرا لسرعة خطى التقدم بسبب الثورة العلمية ـ تجد ان الفوارق بينها وبين غيرها من الدول السابقة في التقـدم تزيد ولا تقل •• الامر الذي يفرض دوره جهودا مضاعفة •

ومن ناحية اخرى فان كثيرين منا يواجهون مشكلة ضغط الزيادة في عدد السكان بسرعة تكاد ان تبتلع معدل

النمو الاقتصادي •• وانه لا بد من مجهود اكبر لمواجهة مشكلة انخفاض مستوى المعيشة التي سوف تحدث عالميا نتيجة لتضخم عدد السكان زيادة على كل موارد الغذاء في العالم • •

ان المشاكل التي تتعرضون لها ، هي في الواقع مشاكل التقدم وكيفية احرازه ، وهي في الوقت نفسه مشاكل السلام ، وتلك حقيقة يجب أن يعرفها الكل ، وان يثقوا انه لا يمكن أن يقوم سلام في عالم تتفاوت فيه مستويات المعيشة تفاوتا مخيفا • فيكون التقدم حكرا لقلة من الدول ويكون التخلف فرضا على كثرتها الغالية •

لكنا في نفس الوقت الذي يقول فيه ذلك نستطرد منه على الفور الى القول بأن هذا المؤتمر ليس موجها على أي شكل ضد المتقدمين » •

ولقد اصدر هذا المؤتمر أعلان القاهرة الذي تضمن أن التوسع التجاري بين الدول النامية وبخاصة على الاساس الاقليمي ، يمكن أن يسهم اسهاما مفيدا في التنمية الاقتصادية ، والذي دعا الى توثيق العلاقات المتبادلة بين الدول النامية في مجالات التجارة والمدفوعات والتمويل والتعاون العلمي والفني والصناعي • وقد تبنت الامم المتحدة اعلان القاهرة ودعت الى أول مؤتمر للتجارة والتنمية في جنيف عام ١٩٦٤ فشهدته سبع وسبعون دولة نامية •

وحين نشب النزاع بين الصين والهند حول الحدود في خريف

عام ١٩٦٢ قام عبد الناصر ممثلا للثورة العربية بدور فعال في اقرار السلام وانطلق من موقعه في فريق عدم الانحياز . وقد شعر هو ونهرو بأن الهجوم الصيني كان هجوما على فكرة عدم الانحياز ، وانه جاء بعد ان شعر الصينيون بأن عدم الانحياز اصبح قوة يجب أن يحسبوا لها حسابا ، وكانوا يعتقدون قبل ذلك انه مرحلة عابرة [1] . ووضح ان موقفهم المبدئي منه يلتقي في بعض الجوانب مع موقف الاتحاد السوفيتي وان بدا الاختلاف في التدليل النظري عليه والتطبيق العملي له .

وضمن خطة مكافحة الاستعمار ومتابعة لجهد الثورة العربية في افريقيا شارك عبد الناصر في مؤتمر اديس ابابا للقمة الافريقي في ٢٢ مايو ١٩٦٣ ووقع في ختام الاجتماعات مع اربعة وعشرين زعيما افريقيا ميثاق منظمة الوحدة الافريقية . وألقى في المؤتمر خطابا هاما يوم ٢٤ مايو أوضح فيه ان القارة الافريقية تواجه تحديات الحياة بينما يعاند الاستعمار بشراسة ارادة الحرية فيها وينهب ثرواتها . وهاجم اجراء التجارب الذرية على ارض افريقيا وطالب بمواجهة مشكلات التخلف بأفضل الحلول ، وعبر عن الحاجة الى العقل الذي يملك الحكمة والشجاعة ، ودعا الى اقامة جامعة افريقية واعلان ميثاق افريقي والى عقد اجتماعات دورية لرؤساء افريقيا .

« تعتبر الجمهورية العربية المتحدة ان القارة الافريقية تواجه اليوم اقصى مراحل نضالها . واذا كنا نقول ان اعلام الاستقلال التي ارتفعت على ارض القارة خلال السنوات

---

(١) هيكل ، ص ٤٠٠ .

الاخيرة دليل على ان ميلاد الحرية قد تحقق . فان الميلاد وحده حتى بمعجزاته البالغة لا يكفي ، فان الحرية لا بـد ان تنمو ولا بد ان يكون نموها صحيحا وكاملا وقـادرا على مواجهة مسؤوليات الحياة في عصرها . من هنا بعـد معجزة الميلاد فان القارة تواجه الان في رأينا تحديات الحياة وعليها وفق ظروف صعبة ان تؤكد صلاحيتها للبقاء والنمو واكثر من ذلك قدرتها على تجديد الحياة دائما وتطويرها.

انمجرد انعقاد هذا المؤتمر دليل كما قلت على وجود ارادة افريقية حرة واحدة . فنحن لم نصل الى هنا صدفة ولا وصلنا بسرعة .

ان هذه الارادة الحرة الواحدة تحتاج الى عقل منظم والى أعصاب محركة لتستطيع أن تصمد لما يواجهها من تحديات ولتقدر على التقدم بكفاية الى الآمال الافريقيـة العظمى » .

وتتالت بعد قيام منظمة الوحدة الافريقية مواقف الثورة العربية التي تجسد عمليا ما اعلنته في المؤتمر الاول وما تبنته قبل ذلك في سياستها . فقد قطعت القاهرة علاقتها الدبلوماسية مع حكومة البرتغال بسبب حربها الاستعمارية في افريقيا تنفيذا لقرار مؤتمر القمة الافريقيا . ثم اعترفت القاهرة بحكومة الثورة لجمهورية انجولا في المنفى . وحين نشبت الحرب بين الصومال واثيوبيا في فبراير ١٩٦٤ بسبب مشاكـل الحدود وجـه عبد الناصر نداء الى رئيسي البلدين طلب فيه نقل الخلاف الى اطار منظمة

الوحدة الافريقية وفي يوليـو ١٩٦٤ استضافت القاهرة مؤتمر القمـة الافريقي الثاني • وقد شرح عبد الناصر في خطابه امام المؤتمر الاخطار التي تواجه افريقيا وحدد الطريق لمواجهتها وأكد على قضايا عدم الانحياز الثلاثة •

« لقد كنا قبل اديس ابابا نقوم بمحاولات استكشاف اسفرت عن مجموعات افريقية مختلفة ثم كانت اديس ابابا محاولة تجمع ••

ونحن الان في القاهرة وعلينا ان نحول التجمع الـى لقاء معمق بالفهم الصحيح والمعرفة الوثيقة نستطيع انتشدد ضغطا اكثر ضد البقايا الاستعمارية في القارة حتى تنزاح آخر بقايا النظام الاستعماري عن افريقيا •

ونستطيع أن نستكمل الحصار من حول بقع التفرقة العنصرية البغيضة في جنوبي افريقيا وفي روديسيا •••

ونستطيع أن نطرح قضية التنمية على اهتمام العالم بالقدر الذي تستحق • ولقد اثبتت لنا تجربة مؤتمر التجارة في جنيف ان تعاوننا معا يستطيع ان يفتح امامنا الابـواب المغلقة ويستطيع ان يضع امام السابقين الى التقدم الحقيقة التي لا مهرب منها وهي انرخاء العالم لا يتجزأ وان الرخاء لا ينفصل عن السلام •

ونستطيع وصل الروابط النضالية والجسور العريضة

التي تمتد بين قارتنا وبين آسيا • وكذلـك مع امريكـا اللاتينية • •

ونستطيع فوق ذلك كله ومعه أن نشارك في بناء عالم السلام » •

واصدر مؤتمرالقمة الافريقي الثاني قرارات حول تصفية الاستعمار والتفرقة العنصرية ومساعدة حركات التحرر ودعم الوحدة الافريقية •

كان عام ١٩٦٤ عاما مشهودا في تحرك الثـورة العربية الدولي وفي بروز سياسة عدم الانحياز والحياد الايجابي وقد سلطت الاضواء فيـه على القاهرة التي تألقت وهي تستقبل عددا كبيرا من رؤساء دول العالم • فبعد ان انعقد فيها مؤتمرالقمة العربي الاول في يناير استجابـة لدعوة عبد الناصر • زارها خروشوف زيارة رسمية في مايو بمناسبة الاحتفـال بانتهاء المرحلة الاولى في بناء السد العالي الذي ساهم الاتحاد السوفياتي مساهمة فعالة في تنفيذه •وبعد ان انعقد فيها مؤتمر القمة الافريقي الثاني في يوليو استضافت في اكتوبر المؤتمر الثاني للدول غير المنحازة •

وقد جسدت الثورة العربية في ذلك العام مفهومها لفكرة عدم الانحياز افضل تجسيد • فهي تنطلق الى تبني الفكرة من ايمانها بوطن واحد وأمة عربية واحدة • وهي تدرك أبعاد عالمها وطبيعة القوى التي تحكمه فتجـد مجالها في العالم الثالث ليحتل مكانه المناسب وليقوم بدوره • وهي تتحرك بحرية وفرتها فكرة عدم الانحياز في علاقاتها مع الكتلتين الكبيرتين • وقد نجحت حركتها مـع الاتحاد السوفيتي في تجاوز الازمة الشديدة التـي

أحاطت بالعلاقات العربية السوفيتية اوائل الستينات ، واوصلت الى رسم حدود علاقة تقوم على معاداة الاستعمار والتعاون من اجل السلام والتقدم والرخاء مع بقاء التمايز العقائدي • كما حافظت على علاقة حوار وتعامل مع الولايات المتحدة الاميركية تقدم لنا فكرة عنها مراسلات عبد الناصر مع كنيدي وجونسون حول القضايا الدولية •

وانعقد مؤتمر عدم الانحياز الثاني بالقاهرة في وقت تغيرت فيه موازين القوى العالمية عما كانت عليه عند انعقاد مؤتمر بلغراد قبل ثلاث سنوات • فبعد اشتداد ازمة الصواريخ الكوبية وما صحبها من توتر دولي دخل توازن القوى بين المعسكرين مرحلته الثالثة حين دخلت الغواصة الذرية مسرح الصراع • واصبح التوازن والتكافؤ اكثر حدة ودقة من حد السيف• وللخروج من أسر هذا التوازن ظهرت في اميركا فلسفة « الرد المرن » كاستراتيجية لهذه المرحلة. وهي تعني التقدم الى خوض حروب صغيرة محدودة بالسلاح التقليدي دون ما اثارة للحرب النووية ودون خوف من الردع النووي الشامل • ونتج عن هذا التحول في نمط التوازن الدولي ان تراجعت الحرب الذرية الشاملة تاركة المجال للحروب الصغيرة المحلية• وبدأت الدولتان الكبيرتان تتقاربان قليلا وبالتدريج وارتفع شعار « التعايش السلمي » ، وانعكس هذا التقارب في تزايد التبادل التجاري وفي مجالات الاتفاق على نزع السلاح ، وشهد كل من المعسكرين تفككا في داخله وتباعدا بين دوله ، وسيظهر بوضوح في رومانيا والصين وفرنسا • وقد جاء هذا التطور وعلى الخصوص في مجال الحرب المحدودة ــ على حساب العالم الثالث الذي اصبح على دوله وحركات التحرير فيه ان تدرك

ان عليها ان تعتمد على نفسها بدرجة متزايدة في الدفاع وحماية مكاسب التحرير [١] .

وبلغ عدد الدول التي شاركت في المؤتمر الثاني ثمان واربعون دولة ، كما حضرته عشرة دول كمراقبين وافتتح عبد الناصر المؤتمر يوم ٥ اكتوبر بخطاب شامل نبه فيه الى اختلاف الظروف التي ينعقد فيها المؤتمر الثاني عما كانت عليه حين انعقد مؤتمر بلغراد . فلقد خفت الحرب الباردة كثيرا عن ذي قبل وتباعدت الكتل وتحققت انتصارات عظيمة ضد الاستعمار وتم التوصل لاتفاقية موسكو للحظر الجزئي للتجارب الذرية . ثم طرح بوضوح التساؤل حول سياسة عدم الانحياز وهل استنفذت بسبب هذا الاختلاف دورها ؟.

« نسمع الان من انحاء كثيرة من يقولون لنا ان سياسة عدم الانحياز قد استنفذت دورها بالتغيرات التي طرأت على الموقف الدولي وخاصة فيما يتعلق بالحرب الباردة وسياسة الكتل .

ولا بد ان نسأل انفسنا من هذا المكان ، ومن موضع المسؤولية التاريخية والانسانية الذي نقف فيه . هل هذا صحيح ؟

من الضروري بالنسبة لنا اولا ان نحدد بعض المفاهيم

---

(١) جمال حمدان ، ص ٣٢١ .

عن سياسة عدم الانحياز ونؤكد بذلك مرة اخرى ما قاله كل منا من قبل في مختلف المناسبات .

المفهوم الاول ان سياسة عدم الانحياز ليست تجارة في الصراع بين الكتلتين تستهدف الحصول على اكبر قدر من المزايا من كل منها ، بدليل اننا وجهنا اكبر جهودنا لازالة هذا الصراع والتنبيه الى مخاطره والعمل ايجابيا لتلافيه .

المفهوم الثاني ان سياسة عدم الانحياز ليست سلبية تريد أن تنأى بنفسها عن مشاكل عالمها ، بدليل اننا حاولنا ارتياد جميع مشاكل عصرنا وخرجنا من ذلك بحلول طرحناها في وجه سياسة الكتل . ولقد كان كل ما ألزمنا انفسنا به هو ان نصدر في كل موقف تتخذه عن نظرة امينة لا يقيدها التزام مسبق الا بالمبادىء التي ارتضتها الشعوب في اغلى وثيقة توصلت اليها بتضحياتها وهي ميثاق الامم المتحدة .. ميثاق السلام القائم على العدل .

واذن نخرج من هذه المفهومين بعدة حقائق :

ان سياسة عدم الانحياز ليست تجارة حرب باردة .

ان التغيرات في اوضاع الكتل الدولية لا تؤثر في سياسة عدم الانحياز ، وانما يبقى لهذه السياسة تعبيرها عن ضمير الانسانية الملتزم بميثاق الامم المتحدة سواء كانت هناك كتلتان او ثلاث أو أربع .

ان موقف عدم الانحياز هو في صورته النهائية تجميع السلام القائم على العدل .. » .

وهكذا حددت الثورة العربية المفهوم الراسخ لفكرة عدم الانحياز، وانطلق عبدالناصر من هذا المفهوم يناقش في خطابه قضايا السلام ويرسم الطريق اليه . وركز على الفوارق المؤلمة في مستويات معيشة الشعوب على مستقبل الانسانية . وكانت القاهرة قد استضافت في يوليو ١٩٦٤ المؤتمر الاقتصادي للدول النامية الذي سلط الاضواء على هذه الفوارق. وصدر عن مؤتمر عدم الانحياز الثاني بيان ركز على الناحية الانمائية الاقتصادية .

بعد هذه الذروة التي بلغتها سياسة عدم الانحياز في عام ١٩٦٤ قدر لها ان تجابه ظروفا بالغة الشدة في الاعوام التالية . فقد ارتفع المد الاستعماري واتصل بفعل انطلاق الولايات المتحدة : لتصفية سياسة عدم الانحياز بسلاح الاستعمار الجديد مستغلة التعايش السلمي . وتتالت الضربات التخريبية في دول عدم الانحياز ــ وعلى الخصوص في افريقيا التي شهدت في عام ١٩٦٦ اثني عشر انقلابا وعاشت الامم المتحدة أزمة عنيفة ونشبت الحرب في فيتنام وثارت اضطرابات في اميركا اللاتينية . ثم جاءت ضربة عدوان يونيو ١٩٦٧ موجهة للثورة العربية طليعة عدم الانحياز . وقد استهدف التحالف الاستعماري الصهيوني بهذه الضربة فيما استهدفه ان يقضي على فكرة عدم الانحياز بعد أن يثبت عجزها .

والحق ان الموقف بدا صعبا للغاية اثر العدوان حيث وضح ان الولايات المتحدة استغلت التوازن النووي لصالحها الى ابعد حد ، بينما كف الاتحاد

السوفيتي يده • وهكذا واجه العالم الثالث عدوان الاستعمار الاميركي الذي تغطرس بالقوة • وبدا للبعض ان عدم الانحياز وصل طريقا مسدودا ، وان عليه أن يختار الانضمام التبعي لاحدى الكتلتين •

ولقد صمدت الثورة العربية في هذا الامتحان الصعب ، كما انطلقت ثورة شعب فيتنام بقوة اكبر تواجه العدوان الاميركي • وأكد المثلان ان طريق عدم الانحياز مفتوح ، وان الفكرة قادرة على التلاؤم مع المتغيرات الدولية • فأما الثورة العربية فقد خاضت ضد التحالف الصهيوني الاستعماري (الاسرائيلي الاميركي) حرب الاستنزاف وصمدت امام متطلباتها • وأقامت علاقة مع الاتحاد السوفياتي تقوم على الصداقة والتعاون في مواجهة العدوان الاستعماري موضحة ان هزيمة عدم الانحياز تترك الطريق مفتوحا لضربة قادمة بوجهها الاستعماري الاميركي للمعسكر الشرقي • وأما ثورة شعب فيتنام فقد اكدت أن حركات التحرير لا تزال قادرة على شق طريقها وسط مناخ التعايش ، وان عطاء الشعوب لا يحد وهو كفيل بتفجير تناقضات الاستعمار العالمي •

وعلى الرغم من ان الثورة العربية صبت كل جهودها بعد العدوان لتحقيق هدف أساسي لا ينتظر هو تحرير الأراضي العربية ، فانها لم تغفل عن دورها العالمي ، وبذلك ما تستطيعه من اجل حركات التحرير وعلى الخصوص في فيتنام وفي نيجيريا لمجابهة انفصال بيافرا • ومع ان عبدالناصر وتيتو شعرا في عام ١٩٦٨ حين غزا الاتحاد السوفياتي تشيكوسلوفاكيا ان يد عدم الانحياز قد غلت ولم يصدر رأي عن عبد الناصر يدين الغزو ، الا ان نظر عبد الناصر بقي مركزا على عدم الانحياز وكله ثقة ان الأزمة التي يعانيها ستنتهي •

ورحل عبد الناصر فجأة يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ بعد ان بذل قصارى جهده لتحرير الاراضي العربية • وبقيت تجربته الحافلة في المجال الدولي ، وذكراه كواحد من زعماء عدم الانحياز وكأول عربي يحتل مكانة بارزة في عالمنا المعاصر • وبقيت أيضا الثورة العربية التي قادها تتلمس طريقها لمتابعة المسيرة •

ولقد حدث بعد رحيل عبد الناصر متغيرات اخرى في عالمنا ودخل توازن القوى منذ عام ١٩٧٢ مرحلته الرابعة • فشهد ذلك العام زيارة نيكسون للصين الشعبية والاتحاد السوفياتي • ودخول الصين الامم المتحدة وظهرت سياسة الوفاق بين الدولتين الكبيرتين وتحددت بعد زيارة بريجنيف للولايات المتحدة في يونيو ١٩٧٣ ونراها اليوم تتجسد في زيادة التبادل التجاري بين المعسكرين وفي المشاريع الغربية داخل الاتحاد السوفيتي •

وتطرح هذه المتغيرات على الثورة العربية ودول العالم الثالث ان ترسم طريقها على ضوئها وتحدد استراتيجيتها وهي في اعتبارها • والطلائع العربية مدعوة اليوم وهي تؤمن بضرورة استمرار الثورة العربية الى دراسة هذه المتغيرات واسترجاع دروس وعبر التجربة العربية الثورية في نضالها من اجل بلورة فكرة عدم الانحياز والحياد الايجابي • ولا تزال القضايا الثلاثة التي حددتها الثورة العربية أساسا لفكرة عدم الانحياز قائمة • فلا بد من القضاء على الاستعمار ، ولا بد من سيادة السلام القائم على العدل ، ولا بد من التقدم والتعاون الدولي من اجل الرخاء • وحين تنطلق الطلائع العربية في مهمتها هذه على المستوى الدولي فانها تمهد لذلك بنضالها لتحرير ارضها لأن مصير الوطن العربي يتوقف على مصير فلسطين ، ومصير العالم الثالث يتوقف على

مصير الوطن العربي – كما قال جمال حمدان – وعلى هذه الطلائع ان تناضل ايضا لانتصار اهداف النضال العربي لأن التقدم العربي لا يمكن بناؤه على التجزئة .

ان الطلائع العربية مدعوة انتسترجع المهام التي حددها عبد الناصر لنفسه ولها . وقد شرحها في خطابه بمجلس الامة حين قبل الترشح لرياسة الجمهورية يوم ٣٠ يناير ١٩٦٥ . وكانت آخر هذه المهام هي مهمة الثورة العربية عالميا .

« ان الامة العربية ليست مقطوعة عن دنياها ، وانما هي في القلب تماما في هذه الدنيا . ولقد كانت لها منذ فجر التاريخ رسالة حرية وحضارة جاهدت في سبيلها لكي تنشر الامل والنور وتحمل ألويتهما الى اقاصي الارض .

واذا كانت الظروف قد صدت بالنكسة هذا الدور الانساني الكبير ، فان امتنا العربية قد تمكنت من الارتفاع فوق الظروف وعادت لتحمل رسالتها من جديد ، حرية وحضارةوتضيف اليهما دعوة السلام وعيا بالحقائقالجديدة التي ابرزتها ثورة العالم الحديث ، وفي مقدمتها استحالة الحرب العالمية بسبب الخطر النووي .

واذا كان الشعب المصري في هذه المرحلة يحمل النصيب الأوفى من هذه المسؤولية العربية العالمية اصالة عن نفسه وتعبيرا عن امته ، فليس ذلك في واقع الامر مجرد

تطوع وتبرع من اجل المبادىء وحدها .. وانما هو الى جانب المبادىء ضرورة أمن في عالم ضاعت فيه المسافات وانتهى امرها » .

ان الطلائع العربية وهـي تتصدى لهذه المهام بعد رحيل عبد الناصر لتستشعر من خلال تجربته الثقة بقدرتها على القيام بدورها وحمل رسالة العرب الحضارية الى العالم .

فهرس

مقـدمـة ٥
مـدخـل ٩
تأكيد حقيقة عروبة مصر ٣١
بنـاء القاعـدة ٥٧
القضـاء على الاستعمـار ٧١
بلورة فكرة القومية العربية وتحديد أهداف النضال العربي ١١١
المشاركة في بلورة فكرة العالم الثالث ١٤٩

٧٣ / ٣٠٠٠ / ٣